

تأملات
فى
ثقافة التغيير

الشَّيخُ الدُّكْتُور

جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ المُهَلْهَلِ الْيَاسِينِ



تأملات في ثقافة التغيير

(نقوش في قضايا الأمة)

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ-٢٠١٢م

تطلب منشوراتنا

فى الكويت من : شركة السماحة ــ الكويت.

الرمز البريدي: ٤٣٧٥٦ ص. ب: ٦٦٥٢٠ بيان.

ت/٩٩٥٥٧٤٧١

فى مصـــر من : مؤسسة شروق للنشر والتوزيع

المنصورة - شارع جيهان - أمام مستشفى الطوارئ - ت: ٠٥٠/٢٢٥٢٨٦٠

سلسلة من وحي التجربة

رقم السلسلة (٢٣) الرقم الفني (٤)

تأمــلات في ثقافـة التغـيير

(نقوش في قضايا الأمة)

تأليف
الشيخ الدكتور
جاسمُ بن محمد بن مهلهل الياسين

مؤسسة السماحة
للطباعة والنشر والتوزيع

الموضـــــــوع: سلسلة من وحي التجربة

اسم الكتـــاب: تأملات في ثقافة التغيير.

التـــأليـف: الشيخ د. جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

عدد الصفحات: ١٩٨ صفحة = ١٣ ملزمة.

قياس الصفحة: ١٧×٢٤ سم.

رقــم الإيـــداع : ٢٠١٠/٢٣٠٩٢

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ

٢٠١٢م

شركة السماحة

للطباعة والنشر والتوزيع

الكويت

الإِهْدَاءُ نَثْراً

إلَى وَالِدَتِي مُنِيرَةَ، الَّتِي لَهَا مِن اسْمِهَا نَصِيبٌ، فَقَدْ أنَارَتْ لِيَ طَرِيقَ حَيَاتِي، فَعَرَفْتُ رَبِّي، وَسَلَكْتُ مَنْهَجَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ.

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي أرْضَعَتْنِي مَعَانِي الْخَيْرِ كُلَّهَا، فَكَانَتْ مَدْرَسَةً فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَهِيَ الَّتِي عَلَّمَتْنِي كَيْفَ يَكُونُ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَعَلَّمَتْنِي الإِحْسَانَ إلَى الآخَرِينَ وإنْ أسَاؤُوا، وأَرْضَعَتْنِي مَعَانِي الصَّبْرِ الَّتِي قَرَأْنَا فِي الْمُجَلَّدَاتِ وكَتَبْنَاهَا. لَقَدْ عَلَّمَتْنِي مَعْنَى الإِنْفَاقِ مِمَّا كَانَ فِي يَدِهَا لِتُدْخِلَ بِهِ السُّرُورَ عَلَى الآخَرِينَ.

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي لَمْ تَعْرِفِ الشَّكْوَى فِي حَيَاتِهَا، ولَمْ تَئِنّ مع كَثْرَةِ أمْرَاضِهَا.

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي كُنَّا قَبْلَ وَفَاتِهَا - رَحِمَهَا اللهُ - بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ، وَإِنِّي لأَذْكُرُ قَوْلَ أحَدِ الأَصْدِقَاءِ عَنْ أمِّهِ بَعْدَ وَفَاتِهَا: لَقَدْ ذَهَبَتْ مَنْ كُنَّا بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ. وإنِّي لأقُولُ: لَئِنْ تَنَعَّمْتُ بِدُعَاءِ أُمِّي فِي حَيَاتِهَا، فَإِنِّي أتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَكُلَّمَا ازْدَدْتُ لَهَا دُعَاءً، ازْدَادَتْ نَفْسِي إحْسَاساً بِالنَّعِيمِ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَنَعَّمُ بِدُعَائِهَا فِي حَيَاتِهَا وَأَتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَفِي الْحَالَتَيْنِ، فَإِنِّي أتَنَعَّمُ بِخَيْرِهَا فِي الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ.

وَلَسْتُ أعْرِفُ لإِنْسَانٍ فَضْلاً عَلَيَّ - فِيمَا أنْعَمُ بِهِ مِنْ فَضْلٍ - خَيْراً يُعَادِلُ أَوْ يُقَارِبُ فَضْلَ وَالِدَتِي - رَحِمَهَا اللهُ تَعَالَى. وَأَسْأَلُ اللهَ - سُبْحَانَهُ - أنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَهَا لِي، وَيَسْتَجِيبَ دُعَائِي لَهَا.

لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْهَا الصَّبْرَ وَالتَّجَلُّدَ؛ فَقَدْ شَطَبَتْ مِنْ حَيَاتِهَا مَا يُسَمَّى بِالإِيذَاءِ، فَكَانَتْ لَا

تُؤْذِي أحَداً وَلَا شَيْئاً حَتَّىٰ الأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ تَمْشِي عَلَيْهَا، عَلَّمَتْنِي مَعَانِي كَثِيرَةً، قَدَّمَتْهَا وَهِيَ تُضَحِّي بِصِحَّتِهَا وَوَقْتِهَا وَسَعَادَتِهَا.

إِلَىٰ وَالِدَتِي الَّتِي أَعْرِفُ مِنْ مَدْرَسَتِهَا الْكَثِيرَ، وَلَا يَسَعنِي ذِكْرُهُ فِي هَـٰذَا الإِهْدَاءِ، وَسَأُفْرِدُ لَهُ رِسَالَةً خَاصَّةً، إِنْ شَاءَ اللهُ.

إِلَىٰ وَالِدَتِي أُهْدِي ثَوَابَ هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ، لَعَلِّي أُؤَدِّي زَفْرَةً مِنْ زَفَرَاتِهَا فِي وِلَادَتِي.

وَأُهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ وَالِدِي - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

وَأُهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ رَفِيقَةِ الدَّرْبِ أُمِّ مُعَاذٍ، الَّتِي كَانَتْ لِي عَوْناً فِي صَبْرِهَا عَلَىٰ سَهَرِي وَسَفَرِي.

وَأُهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ أَوْلَادِي جَمِيعاً، ذُكُوراً وَإِنَاثاً.

وَأُهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ كُلِّ مَنْ أَسْهَمَ فِي إِخْرَاجِهَا، وَجَعَلَهَا بَيْنَ يَدَيِ النَّاسِ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

وَإِنَّنِي إِذْ أَكْتُبُ هَـٰذَا الإِهْدَاءَ، أَرْجُو مِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ يَكُونُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هَـٰذَا الْكِتَابُ أَلَّا يَنْسُونَا جَمِيعاً مِنْ صَالِحِ دُعَائِهِمْ.

الشَّيْخُ الدّكتُور

جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُهَلْهِل الْيَاسِين





الإهْدَاءُ شِعْراً

أُمَّـــــاهُ كُنْتِ مُنِيــرَةً وَمَنَـارَةً ... عُلْيَـــا وَصَـرْحــاً ثَابِتَ الأَرْكَـانِ

قَـدْ كُنْتِ مَـدْرَسَـةً تُعِـدُّ نُفُـوسَنَا ... لِصَنَائِعِ المَعْـرُوفِ وَالإِحْـسَـــانِ

قَـــدْ كُنْتِ لِلأَيْتَـامِ أُمّــاً بَـرَّةً ... وَالجَـارِ وَالمِسْكِينِ أَرْأَفَ حَـــانِ

أَرْضَعْتِنَا الأَخْلاقَ شَهْداً سَلْسَلاً ... تَدْنُو ثِمَارُ قُطُوفِـهَا لِلْجَـانِي

عَلَّمْتِنَا الصَّبْرَ الجَمِيلَ خَلِيقَةً ... وَالقَــوْلَ لِلحُـــسْنَى وَكَفَّ لِسَانِ

❖ ❖ ❖

أَبَتَـاهُ قَدْ رَبَّيْـتَنِي وَأَحَطْتَنِي ... بِرِعَايَةٍ فِـي غِــبْطَـةٍ وَأَمَـانِ

وَفَّـرْتَ أَسْـبَـابَ السَّـعَادَةِ وَالهَنَا ... فَـجَـعَلْتَنِي أَسْـمُو عَلَى الأَقْرَانِ

فَجَـزَاكَ رَبُّ العَـرْشِ خَـيْرَ جَزَائِهِ ... وَأُسْكِنْتَ فِي رَوْحٍ وَفِي رَيْحَـــانِ

❖ ❖ ❖

نَوَّرْتَ يَا بَدْرَ الدُّجَا سُبُلَ العُـلا ... بِالفَـــضْلِ لاَ فَظٍّ وَلاَ مَنَّـانِ

كَمْ ذَا تُقَــابِلُ بِالسُّـرورِ تَدَلُّلِي ... بِمَــحَـــبَّةٍ وَبِرَأْفَـةٍ وَحَنَـانِ

أَحْـبَـبْـتَنِي قَـرَّبْتَنِي رَبَّيْـتَنِي ... بِالعِزِّ فِي ثِقَـةٍ وَفِي اطْمِـئْنَانِ

❖ ❖ ❖

أَرَفِـيـقَـتِي كُنْتِ الشُّعَاعَ إِذَا دَجَا ... لَيْلُ الحَــيَـاةِ بِمُظْلِمِ الحِدْثَانِ

قَدْ كُنْتِ خَـيْرَ شَـرِيكَةٍ وَمُعِـينَةٍ ... فِي البِـرِّ عِنْدَ تَقَـاعُسِ الأَعْـوَانِ

الصَّبْرُ فِيكِ مَعَ الوَفَاءِ سَجِيَّةٌ ... بِتَـــعَـــاقُبِ الأَفْـرَاحِ وَالأَحْـزَانِ

❖ ❖ ❖

يَا حَبَّذَا أَفْلاذُ أَكْبَادٍ بِهَا — كَمُلَ الْمُرَادُ وَقَرَّتِ العَيْنَانِ
فَاحْفَظْ مُعَاذاً وَاحْفَظَنَّ مُهَلْهَلاً — أَمَدَ الزَّمَانِ وَعَابِدَ الرَّحْمَنِ
لاَ زَالَ عَبْدُ اللهِ فِي حِفْظٍ وَلاَ — زَالُوا جَمِيعاً غُرَّةَ الفِتْيَانِ
وَلْتَحْظَ عَائِشَةٌ وَفَاطِمَةٌ بِمَا — قَدْ شَاءَتَا مِنْ بُغْيَةٍ وَأَمَانِ
وَاحْفَظْ هَيَا وَمُنِيرَةً يَا رَبَّنَا — مِنْ مُبْطِنِ البَغْضَاءِ وَالشَّنَآنِ

❖ ❖ ❖

يَا رَبِّ لاَ زَالَ الجَمِيعُ بِنِعْمَةٍ — وَقِهِمْ شُرُورَ الحَاسِدِ المَعْيَانِ
صَلَّى الإِلهُ عَلَى النَبِيِّ مُحَمَّدٍ — وَالآلِ وَالأَصْحَابِ كُلَّ أَوَانِ

❖ ❖ ❖

الشَّيْخُ الدّكتُور
جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُهَلْهَل الْيَاسِين





الفصل الأول

نقوش في قضايا الأمة

مدخـــل

لا يرتاب مسلم عـاقل في عظمة هذه الأمة وخيـريتها، فهـذه حقيقـة نطق بها الكتاب العزيز، يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(١) .

بيد أن هذه الخـيرية وهذا الدور الذي تضطلـع به الأمة فتـقوم بواجب الشـهادة على الناس لابد له من شروط، وهو ما أخبرت عنه الآية الشريفة:

﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ... الآية﴾.

والمتأمل في الخط العام لسـير الأمة الإسلامية، وما تواجـهه من عواصف وأنواء يدرك حالة التألب عليها والتربص بها، من قوى عديدة لا يعوزها المكر، ولا ينقصها الدهاء والحقد !!

لهذا وغـيره.. كـان لزامًا علينا أن نقف لنتـابع سير هذا الركب، فنـقيم المائل ونصلح الفاسد، ونرسم الطريق، ونحدد شاراته...

وسوف يجد القارئ الكـريم في هذا الفصل، الكثير من اللفتات والتـوجيهات، في قضايا متـعددة، يجمع بينها الرغبـة في توجيه الجهود وحشد الـطاقات، لمواجهة التحديات المختلفة التي تتعرض لها الأمة.

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢) .

---

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) يوسف: ٢١.

المبحث الأول

الإيحاءات الجليّة في الزيارة السودانية

«**من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم**»[١] والاهتمام بأمور المسلمين، ومحاولة المساعدة في حلها أو حل بعضها على الأقل يستدعي جهودا حثيثة، تتواصل وتتماسك، لتحدث الغرض المطلوب من هذا الاهتمام، بزيادة الخير المرصود، وتخفيف الآلام الكثيرة، التي أصابت الجسد الإسلامي في كثير من أعضائه، والمشاركة في تخفيف الأعباء عن تلك الأعضاء في جسد الأمة واجب إسلامي لا تفرغ ذمة الأمة منه إلا بالأداء.

وقد أكرمني الله ـ سبحانه ـ فكنت أحد المدعوين لمنظمة الدعوة الإسلامية لأزور السودان ولأطلع على أحواله، خاصة بعدما أصابه من جراء الفيضانات الغزيرة التي أغرقت بعض المزروعات، وهدمت بعض البيوت، وشردت عددا من السكان، فصار العراء مأوى كثيرين، والجُوع زادَهم، وهم الذين كانت أرضهم في السودان منذ مائة عام تنتج للبلاد العربية الحبوب والغلال، وتمد بلادا كثيرة مما حولها بالطعام.

إنهم ـ اليوم ـ بلا مأوى، وبلا طعام، فلا أقل من أن يقف العالم الإسلامي إلى جانبهم يمدهم بما يستطيع.

ولقد واكبت ـ بحمد الله في رحلتي هذه إلى السودان ـ ركب المساعدات الكويتية التي أمر سمو أمير البلاد بإرسالها إلى السودان، تعبيرا عن مشاركة الكويت الدول العربية الأخرى في بأسائها وضرائها، وعن المساعدة والمساهمة في تخفيف أعبائها وآلامها.

توكل لا تواكل:

ورغم ما أصاب السودان من خسائر مادية كثيرة، فإن حماسة الأفراد للتغلب على هذه الأزمة ظاهرة لا تخفى على زائر، إن نفسية البناء والنماء وتجاوز القصور

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٧/ ٢٧٠) برقم (٧٤٧٣)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٥٢) برقم (٧٨٨٩)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٣١٠).

الكامن فوق أرض الواقع غـالبة على الشعب هناك، يجاهر بهـا كل من تلقاه، وهذه الحماسـة مرغوبة مطلوبة إن قامت على أساس التـوكل بمعناه الإيماني الشرعي الآخذ بكل الأسباب المؤدية إلى النجاح، وهي أسباب ينبغي أن تبنى على الواقع المراد تغييره بالعمل والجد نحو الأفضل والأحسن؛ فإذا خلا الأمر من اعتبار الأسباب، فقد تحوّل هذا التوكل إلى نوع من التواكل تكـون ثمرته مريرة، ونتيجتـه على أرض الواقع غير مرضـية، لأنه لم يلتزم بما سمـاه رسول الله ﷺ: (حق التوكل) في حـديثه الذي بلغه إلى الأمة، ليكون عنوان تميزها عن غيرها، وتعميرها للأرض كما أمر الله، «**لو أنكم توكلتم عـلى الله حق توكله لرزقكم كـمـا يرزق الطيـر تغـدو خمـاصـا وتروح بطانا**»[1]. ولا خوف على السـودان من شدة الحصار الذي يتـعرض له الآن، والذي يحكم قـبضتـه حوله بحـزام من الدول المحيطـة به، تساعد عـلى بقاء هذا الحـصار وإحكامه، بحيث لا يكون له منفـذ يتعامل من خلاله مع جهـات أخرى، وتساعد ـ كذلك ـ على بقاء الحصار واستمراره المعـارضةُ المسلحة وغير المسلحة، التي تحاول أن تقضي على النظام في السودان، ولو جـاع الشعب، وهلك الناس، وقلّت الأقوات، وزاد الفسـاد والخراب. وكل ذلك لا يشـكل حاجزًا أمـام البناء والنماء إن قـام على معنى التوكل الإيماني، الذي كان طابع المسلمين في كل نهضة.

التواضع:

وإذا قام هذا التـوكل على المعنى الصحـيح الموافق للشرع، أثمـر التواضع لخلق الله، فيتحقق لصاحبه الرفعة عند الله.

إن الأقوياء الأسـوياء يتواضعـون للناس، لأنهم يعرفون قـدرهم، ويدركون أن النعم التي بين أيديهم ـ مادية كانت أم معنوية ـ إنما هي من الله ﴿**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**﴾[2] فعلام يغترون؟

إن الغرور بما تحت يد الإنسان من قوة إنما هو بداية السقوط في هاوية الخسران، والقوة التي يغـتر بها الناس قـد تكون مادية أو معـنوية، وقد تتمـثل في موقف من

(١) رواه الترمـذي (٢٣٤٤) وقال: «حسن صـحيح»، لا نعرفـه إلا من هذا الوجه» وابن ماجـه (٤١٦٤)، وقال الألباني: «صحيح».

(٢) البقرة: ٢٥٦.

المواقف أو رأي من الآراء، أو غير ذلك من المسارب التي يتسرب منها الغرور إلى النفوس فيقضي عليها. والحمد لله فحماسة إخواننا في السودان ومواقفهم من القضايا المثارة على الساحة لم تدفع بهم إلى الغرور، ونسأل الله ألا يقعوا في مصيدة الغرور، لتظل لهم فطرتهم النقية، وسيرتهم السويّة، وحياتهم الصافية.

لا تدفعوهم إلى الاضطرار:

الاضطرار حالة تنجم عن طارئ عارض مفاجئ، قد لا يكون في الحسبان، يدفع المضطر إلى تصرف يأبى فعله في الظروف العادية؛ لأنه يرتكبه تحت وطأة الضرورة، التي تبيح المحظور، بالقدر اللازم لزوال الخطر من غير زيادة أو اشتهاء ورغبة. إنها حالة يلجأ إليها المرء كارها غير راغب ولا مشتهٍ، ليتخلص منها فور زوال العارض الذي دعا إليها.

وحالات الضرورة الملجئة إلى الاضطرار في حياة الأفراد والدول حالات نادرة قليلة الحدوث، فإذا ما تغير الأمر فأصبح الاضطرار هو الأصل فإن العوج يكون قد ساد، ويكون الخلل منذرا بكثير من الفساد.

وقد كانت بعض مواقف الحكومة السودانية تأخذ هذا الطابع الاضطراري، فقد أيدوا العراق في غزوه الكويت سنة ١٩٩٠م بحجة أنهم اضطروا إلى ذلك التأييد، لأن العراق أمدهم بالسلاح، مع العلم أن هذا السلاح الذي أمدهم العراق به إنما هو سلاح دفعت الكويت والسعودية ثمنه أيام حرب الخليج الأولى، ولا يد فيه للعراق اللهم إلا أنه أراد أن يتخلص منه فأعطاه للسودان.

وعند صياغة الدستور السوداني أدخلت عليه بعض المواد المنافية والمجافية لأقرب قواعد الشرع المستقرة في الأذهان بحجة أنهم ـ كذلك ـ مضطرون لهذا الأمر، لأعذار قد تقبل وقد ترفض.

وحتى رؤيتهم للواقع الإسلامي المعاصر يغلفونها بحالة الاضطرار، لتبرير موقفهم في قضية من قضايا الأمة، وأقرب هذه القضايا قضية الحشود الإيرانية تجاه الحدود الأفغانية، فإن الحكومة السودانية كانت مجاملة لإيران بغير تحفظ بحجة أنها مضطرة إلى هذا، فإلى متى تظل سياسة الدول رهنا بحالات الاضطرار التي تجعل

قراراتها غير بعيدة عن الاضطراب؟

وماذا يكون موقف حكومة السودان لو أن حربا شبت الآن ـ لا قدر الله ـ بين إيران وبين العراق؟ هل سيقترن موقفها بحالة الاضطرار؟ أو ستكون حكومة السودان مع أخف الضررين وأهون الشرين؟

إن استمرار هذه السياسة ـ سياسة الاضطرار ـ يهز مصداقية الدولة، ويفقدها تأييد كثير من الناس في الخارج، ويجعلهم لا يثقون في قراراتها ولا يستطيعون أن يحكموا على توجهاتها. . فإلى متى يستمر هذا الوضع؟

إنني لأدعو العقلاء والحكماء ألا يدفعوا السودان لاتخاذ المزيد من قرارات الاضطرار، حتى لا يفقد تأييد الكثيرين في الشارع الإسلامي.

المبحث الثاني

مفهوم الحرية بين الانفلات والانضباط

١ ـ أصول الدين:

لا مجال للتردد في عرض الأصول الدينية أمام الناس، ولا مجال للمساومة تجاهها، أو الاختيار من بينها، أو التشكيك في بعضها، أو المهادنة حيال المتشككين المشككين في هذه الأصول من غير أن تكون لهم رغبة حقيقية في الوصول إلى الصدق واليقين، وإنما هم يسيرون وراء هوى غربي أو شرقي يقلدونه وهم معصوبو العيون عما عندهم من تعاليم الله وتعاليم رسوله وهديه في سيرته وسنته، فيتركون ذلك المنهج المعصوم، ويلوذون بمناهج أخرى أرضية يقلدونها، وإن خالفت مبادئ السماء، ويجهرون بها وإن أفسدت جيلا من الأبناء.

أصول الدين في العقيدة والشريعة لا خلاف عليها بين جميع علماء الأمة في جميع عصورها وأمصارها، وهم في ذلك يتبعون هدى الرسول ﷺ، الذي أبى كل مساومة مهما كثرت الإغراءات (مُلكا كانت أم مالا، أم نساء) وقال قولته المشهورة بين الناس: «**والله ـ يا عم ـ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أموت دونه**»[(١)]، يقول هذا وهو في المرحلة المكية مع قلة من أصحابه يلحقهم أعظم البلاء وأشد الإيذاء، ولكنه يأبى إلا أن تكون الأصول واضحة والحقائق ناصعة لا يقبل فيها أنصاف الحلول، لقد عرض عليه المشركون أن يعبد آلهتهم يوما ويعبدون إلهه يوما، فأنزل الله ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**..﴾[(٢)]؛ ليكون هذا بيانا للناس وبلاغا لهم أن أصول هذا الدين لا يصح أن يزاحمها في قلب المؤمن شيء، فضلا عن أن يتخلى عنها ليضع مكانها مبادئ بشرية، وأضاليل أرضية.

على أن هذا لا يمنع المؤمنين من أن يأخذوا من غيرهم ما يوافق مقاصد دينهم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢٦٦/١، وقال الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٩٠٩): «ضعيف»..
(٢) الكافرون: ١، ٢.

ولا يعارضها، وفرق بين أصول يجب أن يأخذها الصغير عن الكبير، وتتربى عليها الأجيال، لتصنع في أنفسها القوة المعنوية المؤثرة في الحياة التي تأبى الاستسلام عند البلاء وإن اشتد، وترفض الخضوع للأعداء وإن تمكنوا، وتعلن في عزم وتصميم أنها تعيش على هذه الأصول وتموت في سبيلها.

أقول: فرق بين التمسك بالأصول ثم بعد ذلك قد نوافق الآخرين فيما لا يتعارض معها، بل يوافق مقاصدها، ويحقق غرضها كما فعل رسول الله ﷺ في (حلف الفضول) حيث شارك في التعاهد على رفع الظلم عن المظلوم ورد مظلمته إليه، والوقوف في وجه الظالم، وقال عن هذا الحلف: «**لو أُدعى به في الإسلام لأجبت**»[1]. فرق بين هذا وبين التخلي عن الأصول، أو إهدار مقاصدها، أو اتخاذ ما يناقضها ويعارضها في غير مواربة، مما يحاول البعض أن يفعله تحت دعوى (الحرية) التي يظلمونها حين يرفعون شعارها ليهدموا تحت ظلها قيم المجتمع ومبادئه التي تدعو إلى إحياء القلوب ورفع الرؤوس، وإعلاء الكرامة، وتحقيق العزة والشهامة، فلتكن كلمة الحرية في أيدي هؤلاء هي معول الهدم لهذه القيم والمبادئ، ولتكن هي السكين الذي تذبح به الفضائل.

٢ ـ الحرية المظلومة والكتب الممنوعة:

إن الحرية ليست خالية من الضوابط التي تقيد الناس وإلا صارت فوضى، هل من الحرية أن تسير عكس الاتجاه؟ هل من الحرية ألا تتوقف أمام إشارة المرور الحمراء؟ هل من الحرية أن تصادم الناس ـ كل الناس ـ في معتقداتهم ودينهم ومبادئهم وقيمهم؟ هل من الحرية أن يبيع الناس ما يشاؤون ولو كان من المحرمات؟ أنفتح الباب أمام تجار المخدرات بدعوى حرية التجارة؟ أنبيح لتجار الأغذية الفاسدة أن يفرضوها على الناس في الأسواق، بدعوى أن الناس أحرار فيما يأكلون، أحرار فيما يشترون؟! إذا كان أحد لا يوافق على هذا فلماذا يوافق على أن تعرض العقول جنونها؟ ولماذا يوافق على أن تعرض الغرائز نزواتها؟ ولماذا يوافق على أن تذبح العقيدة بسكين أحمر حين يسب هذا الذابح ذات الله ـ سبحانه؟ ولماذا نفسح لهؤلاء في ديارنا، ونعرض شذوذهم في معارضنا، ونقول لأبنائنا وبناتنا: خذوا فاقرؤوا

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٣٦٧)، رقم (١٢٨٥٩).

واعملوا كمـا يفعل هؤلاء وإن أنكره كبار السن، فـلا تسمعوا لهم فإنهم رجـعيون، ونحن تقدمـيون، وهذه سـمتنا نعلنها بـينكم فخذوا طريقـتنا في الحيـاة، ارتعوا في دنياكم، وحـققوا لشـهواتكم مطالبـها، ولا تركنوا إلى عقـيدة، ولا تفعلوا عـبادة، وليكن همكم الشراب والـطعام والشهوة من غـير أن تمنعهـا عقيـدة ولا تصدها من المنكرات عبادة إنهم يقولون لـلشباب بلسان الحال: أنتم أحرار فيـما تفعلون وتقولون وتلبـسون، وإياكم أن يخـيفكم أحـد بعذاب من الله، فـهذه خرافـة فلا تركنـوا لها وأسطورة فلا تأبهوا بها [١].

كل هذا يتم بدعوى الحـرية، وإن شئت الحق فقل: إنه الهدم في الجـيل الجديد الذي هو ذخر الكويت في مستقبلها، وعدتها في بناء مجتمعها والمحافظة على كيانها في قادم الأيام، ولا صلة لهذه من قريب أو بعيد بدعوى الحرية، لأن الحرية أن تفعل ما لا يضرك أو يضر الآخرين، وبمعنى آخر: أن تفعل ما ينفعك دون أن تلحق ضررا بأي شخـص آخر، فليس من حق الإنسـان أن يقدم على الانتـحار بدعـوى الحرية، وليس من حقه أن يدخل بيـوت الآخرين بغير إذنهم بدعوى الحـرية، وليس من حقه أن يسيء إليـهم بدعـوى الحرية، وليس من حق أحـد أن يرتد عن دين الله بدعـوى حرية الأديان ثم يستشهد بقول الله تعالى: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾[٢] والاستشهاد بقول الله تعـالى ظاهر خطأ في هذا الموضع؛ لأن الآية تلزم المؤمنين ألا يكرهوا أحـدا على الدخول في الدين، ولا صلة لها بالمرتدين الذين جاءت السنة بأحكامهم الشرعية التي ليس هنا مجال تفصيلها.

ولو أبحنا للناس أن يغيروا دينهم لصار الدين ألعوبة في يد من يشاء يسلم حين يكون الظرف مناسبا للإسلام، ويكفر حين يكـون الظرف مناسبا للكفر، ويتقلب بين هذين الاتجاهين بحسب الظروف والأحوال.

فأي دين هذا؟ إن الـدين ليس زيا يبدل حـسب ظروف الجو، أو طعـاما يؤكل ويطلب عند الاشـتهـاء ويعرض عنـه في غيـر ذلك، إن هذا إساءة للدين، وإسـاءة للمؤمنين.

---

(١) المنار، عدد رقم (٧)، العقل بين الشذوذ والجحود.

(٢) البقرة: ٢٥٦.

وكل ما يمس أصولَ الدين ومبادءئه ينبغـي أن يصان ـ في مجتمع المؤمنين ـ فلا يتعـرض له متعرض إلا بخـير؛ لأنه يتعـرض لشيء مقدس يحـمله قلب كل مؤمن يعيش فوق هذه الأرض.

فلا ينبغي أن يفرض علينا في بلدنا المسلم إعلام غربي أو شرقي يخالف ما جاء به الدين تحت إطار «الحرية».

إننا ـ حقا ـ نعيش في مـجتمع مفتوح، ولكن انفتـاح المجتمع لا ينبغي أن يمس مقـدساتنا، وإن من واجبنا أن نوجِدَ في داخـلنا حاجزا يمنع انهيـار الأخلاق، ويمنع التعدي عـلى القيم، وللأسف فنحن نقر في بلدنا المسلم أن يتـلاعب الإعلام بأبنائنا تحت مسمى: «الحرية» وأن يسيء إلينا أجمعين.

فمن الذي لـم تلحق به الإساءة في هذا البلد بعـرض الكتب التي تسب الذات الإلهـية؟ ومن الذي لم تلحق به الإسـاءة في هذا البلد بعـرض الكتب الداعيـة إلى الإباحية الجنسية؟ أية حرية هذه التي يريدون؟

ساء ما يقولون، وبئس ما إليه يدعون أو يفعلون.

إننا ما زلنا متمسكين بموقف مبدئـي لنا تجاه دول معينة (دول الضد) لأنها وقفت منا موقفـا غير مؤيد لقضيـتنا العادلة، ولو أخذنا بمبدأ أن الناس أحرار في مـواقفهم وأقوالهم لكنا مخطئين في موقفنا منهم، فهل نحن مخطئون في حقهم بناء على هذا المبدأ الجائر؟

وإننا نغضب من قناة الجزيرة لانحيازها إلى جانب العـراق، ومحاولتها المستمرة أن تبث ما لا نقبـله لأنه لا يتفق مع تصوراتنا لهذه القـضية، فلماذا هذه الغـضبة إن قلنا: إن الناس أحرار.

إن الحرية إذا انحرفت عن الحق أضـرت بصاحبها وأضـرت بالآخرين، وصارت ضربا من العبث والفساد، وهـل الحـق في بلـدنا وبـلاد المسلمـين سـوى ما أنزله الله ـ سبحانه ـ وما جاء به رسوله ﷺ؟ ومـا الحرية إلا تبع لهذا الحق، تسير في ركابه ولا تحيد عنه، وإلا صارت شيئا آخر.

ـ فلماذا نقدمها على الدين؟ ونبيح باسمها ما يناقضه ويعارضه؟

ومن يقف وراء هذه الكتيبات ومن يقطر قلمه بها السموم، فإن الفساد عنده مقصود، والجريمة متعمدة مع سبق الإصرار، وما الحرية هنا إلا خيط الحرير الذي تتم به جريمة الشنق والخنق لمبادئ الدين وقيمه التي على أساسها تربت أجيال وأجيال، ولكن المفسدين يودون أن تَنْبَتَّ (١) صلة الجيل الحاضر بدينه وقيمه، بحيث لا يعرف اتجاها ولا ينتمي إلى هوية واضحة، يكافح من أجلها في الحياة، ويذود بها ضد الطغاة، ويحافظ بها على بلده ومقدراته وخيراته كما يحافظ الأُباة.

٣ ـ المحاكمة:

ونحن ـ هنا ـ أمام قضية ذات شقين:

كُتّاب يكتبون ما يخالف عقيدة الأمة، ويهزؤون بقيمها، وينشرون الرذيلة بكتاباتهم حولها مؤيدين واصفين.

وهؤلاء ينبغي أن تمنع كتبهم ولا يسمح لها بدخول بلدنا، فلا تعرض في معارض الكتب ولا تعرض في مكتباتنا خاصة كانت أو عامة، تعبيرا عن رفضها، وإعلانًا لإعراضها عما يقول أصحابها ويكتبون، لأنهم يسبون الله ورسوله ويؤذون مشاعر المسلمين.

وحب الله ورسوله ينبغي أن يقدم في نفس المؤمن على حبه لنفسه ووالديه والأقربين والناس أجمعين. والطعن في ذات الله وشخص رسوله والمبادئ الإسلامية موجه إلى كل مسلم. وأضعف الإيمان تجاه هؤلاء هو رفض كتاباتهم وعدم السماح لكتبهم بدخول بلدنا في أي مناسبة، أو تحت أي مسمى، هذا هو الشق الأول من هذه القضية.

وشقها الثاني هؤلاء الذين سمحوا لهذه الكتب بالعرض بعد منعها، هل كانوا على علم بما حوته هذه الكتب من بذاءات؟ هل تعمدوا الإساءة للأمة حين سمحوا بإذاعة هذه المنكرات؟ هل هم يعلمون ما حملت الكتب من خزايا؟ إن كانوا عالمين عامدين فإنهم مفسدون؛ لأنهم أباحوا عَرْض هذه الكتب التي تتعرض للذات الإلهية بالسب والانتقاص، فناقضوا بذلك دستور الدولة الذي ينص على أن دين الدولة هو الإسلام، وناقضوا القوانين المستمدة من هذا الدستور، التي تجرِّم وتحرِّم الإساءة إلى الآخرين.

---

(١) تَنْبَتَّ: بمعنى تقطع من أصولها.

وقد أساؤوا للشعب الكويتي كله، الذي يحافظ على عقيدته، والذي يرفض أن يُشاع فيه الخنا والفجور والخنوثة، وأشاعوا ذلك وأذاعوه على نحو مخز، حتى إن كاتبة أو قل غانية تعترف في كتاب لها بأنها زنت وتصف هذا الفجور الآثم في اعتداد، وكأنما صنعت بطولة تفتخر بها وتطلب من الآخرين أن يقلدوها بصنع مثل هذه البطولات الموبقات، مع أن جريمة الزنا من أكبر الآثام في الشرائع السماوية والقوانين الأرضية فكيف نقبل من أحد أن يفعل ذلك؟ وكيف نسمح له أن يذيع بيننا إفكه وإثمه؟!، وأن تدخل بيوتَنا موبقاته وشروره؟ هل سيصل الأمر بنا تحت دعوى «الحرية» إلى دخول جموع منا فيما اعتنقه القرامطة قديما، وفيما اعتنقه عبدة الشيطان حديثا؟ هل سيصل الأمر بنا إلى شيء من الفوضى الجنسية تحت دعوى الحرية؟ أي خزي هذا الذي يصيب الناس حين يجلبه لهم الإعلام ويذيعه عليهم بدعوى «الحرية»؟

والذين ساعدوا في نشر هذا المنكر وإذاعته هم شركاء في الجريمة ينبغي أن تمتد إليهم يد القضاء ليصدر القضاءُ حكمَه بالتجريم أو البراءة.

إن إباحة الكتب المحظورة بعد منعها، أدى إلى تهافت الناس عليها كتهافت الفراش على النار، لا لقيمة فيها، ولكن لأنها تثير اشمئزاز الناس ونفورهم حين تتعرض لمعتقداتهم، وتثير استغرابهم وفضولهم لأنها تدغدغ غرائزهم وتستدعي شهواتهم، وكلا الأمرين قبيح مرذول، ولعل الذين فعلوا ذلك يدركون أن ضعف الإيمان يرتبط بوهن الأخلاق واستعداء الشهوات، فجمعوا بين السوأتين وأباحوا النوعين.

وتأتي ثالثة الأثافي في التجرؤ على أصولنا حين أباحوا الكتب التي تهاجم الدول العربية الصديقة، ولها ما لها من ديون في أعناقنا، ينبغي أن نقابلها بالشكر والعرفان والاعتراف بالجميل، فقد قدر الله في محنة الغزو أن تكون الدول الصديقة واضعة لأرضها وجيشها ومقدراتها كلها قلبا وقالبا معنا تدافع شراسة الباغين، وتجبر كَسْر المستضعفين على أرضها المقيمين، وتحسن رفدهم[1]، وتفتح صدرها لهم فلها علينا حق الشكر لا حق النكير، وإلا كنا في ذلك مثل الدول التي نعيب موقفها منا، حين عرفناهم في الرخاء فنسونا في الضراء.

(١) رفده رِفْدًا ورِفادة : دعمه وأعانه وأعطاه، المعجم الوسيط (رفد).

إن الطعن في الدول العربية الصديقة ـ بحجة حرية الرأي ـ وفتح الباب واسعا لهذا الطعن أمام جماهير الناس جريمة لا تقل في خطرها عن المساس بالذات الأميرية، فلابد أن يقدم أصحاب هذا التصرف إلى المحاكمة أمام القضاء، إن كانوا عامدين لما فعلوه، عارفين بما فيه، وإلا فإن الأمور تكون قد اختلت، والموازين تكون قد اعتلت.

٤ ـ اللجنة:

وإني أتساءل: هل التعرض للذات الإلهية بما لا يليق محتاج إلى لجنة تحكم فيه؟ هل الاستهزاء باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء محتاج إلى لجنة؟ هل الكاتبة التي اعترفت بالزنا في كتابتها ودعت إليه محتاجة إلى لجنة؟ هل التعدي على دولة ناصرتنا واعتبرت قضية غزو الكويت قضيتها ودفعت من أجل ذلك مقدراتها وأبناءها محتاج إلى لجنة؟!

إن الطفل الغرير[1] يعلم أن التعدي على الذات الإلهية كفر صريح، وأن إشاعة الفاحشة من الكبائر التي تستحق عقاب الله، لأن الله توعد فاعليها في الدنيا والآخرة، ﴿**لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**﴾[2].

ويعلم أن الدول الصديقة ناصرتنا وأيدتنا، وأن من العقوق الذي يأباه الله ويأباه الصادقون أن يقابل الجود بالجحود، والعطف والإحسان بالتجني والنكران.

وإذا كان الأمر أوضح من الشمس في رائعة النهار فعلام ـ إذن ـ تعليق الأمر على اللجنة تجيز كتابا أو تمنعه.

٥ ـ لجنة الفتوى وموقف العلماء:

ثم ماذا ينتظر رجال الفتوى وحائط الدين يهدم؟ هل ينتظرون ورقة مكتوبة تسأل عن حكم الشرع فيمن يعرض كتبا مُسِفَّة في حق تعاليم الدين، ويتعدى إسفافها حدود المخلوقين ليصل إلى الخالق سبحانه، فما حكم من يفعل ذلك؟

---

(١) الغرير: الشاب لا تجربة له، انظر المعجم الوسيط (غرر).

(٢) النور: ١٩.

بل ماذا ينتظر كل علماء الدين في كل موقع وفي كل موقف، ومتى يستنفرون ليدفعوا بأقلامهم وألسنتهم عن حوزة الدين، وينصروا الله رب العالمين؟ ﴿**وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ**﴾[1] ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾[2] إن مثل هذه الجرائم بلاء يصيب مجتمعنا، وعلماء الدين هم في طليعة المدافعين عن الأمة، حتى وإن أصابهم البلاء، ووقع عليهم بعض الجزاء (العقوبة) فقد أعلن خبيب بن عدي أنه يرضى أن يقتل مصلوبا ولا يلقى رسول الله ﷺ شوكة تصيبه في بيته[3].

هذا وغيره من الصحابة الأكرمين الذين دافعوا عن دين الله بكل ما استطاعوا هم قدوتنا، فأين نحن من هذه القدوة في أمر هذه الكتب التي طعنت في المجتمع طعنتها الغادرة، ثم تركتنا نجفف آثار الجراح، ومضى أصحابها لا يلوون على شيء وكأنهم ما ارتكبوا إدّاً[4]، أو هدموا أمام الانحلال سدّاً؟ ولعل لجنة الفتوى (الرسمية) مثقلة بالأعباء، وليس لديها وقت لبحث القضايا اليومية المستجدة مما يستدعي ضرورة إنشاء لجنة شرعية شعبية، يكون لها رأي في المسائل الكبرى التي تتعرض لها الجماهير، وهي أمور مستجدة لا تتوقف، ومن هذه المسائل مسألة الكتب التي تستدعي أسئلة منها:

١ـ ما حكم من كتب طعنا في الدين؟

٢ـ ما حكم من نشر هذا الطعن أو ساعد على نشره؟

٣ـ هل يعذر الكاتب أو الناشر بالجهل؟

٤ـ هل لو اعترف كاتب بخطئه أو جهله يباح نشر كتبه؟

إلى غير ذلك من الأسئلة، التي لابد لأهل الفقه والفتوى من إبداء رأيهم فيها حتى لا تحدث بلبلة بين العامة في صفوف المجتمع، فأهل الفتوى هم صمام الأمان للأمة في كل زمان ومكان.

---

(١) محمد: ٤

(٢) محمد: ٧.

(٣) رواه أحمد (٢/ ٣١٠)، والطبراني في الكبير (٥٢٨٤)، وقال الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(٤) الإدُّ: الأمر الداهي المنكر، المعجم الوسيط (أدد).

٦ـ واجب الدعاة:

إن واجب الدعاة أن يبينوا للناس دين الله بوضوح لا لبس فيه، وجلاء لا غبش فيه، وأن تكون الصلابة في الحق سبيلهم، والحكمة والموعظة طريقهم في البلاغ، ولا تنافى بين إظهار المبادئ وإعلانها في قـوة، وبين اتخاذ الحكمة والموعظة الحسنة طريقا لإيصال هـذا الحق، والمهم ألا يتهـاون الدعاة في شأن إظـهار الحق، في مسـألة من المسائل، دون نظر إلى أن هذا الحق قد يغضب فلانا أو يرضي فلانا، ولكن ينبغي أن يكون قـول رسـول الله ﷺ الذي أوصت به أم المؤمنين عـائشـة رضي الله عنهـا معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه حين أرسل إليها يطلب منها أن توصيه، فكتبت إليه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من التمس رضاء الله بسـخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس**»[١]. ورضا الله في اتباع الحق وحده، يرضى به من يرضى، ويسخط به من يسخط. وإن على الدعاة ألا يستخدموا العبارات المبهمة في القـضايا الحاسمة، وأن يتركوا الغمغمة[٢] في بيان الأحكام الشرعية. على الدعاة أن يراقبوا الله في أقـوالهم وأعمالهم، فلا يتركوا أمرا إلا بينوا رأي الدين فيه بوضوح وجلاء مع استـخدام أدب الحديث، والبعد كل البعد عن الغلظة في القول عند بيان الأحكام الشرعية.

إن الله سيسأل الدعـاة عن علمهم ماذا عملوا فيه، فـلا يغيب عن الأذهان قول رسول الله ﷺ في كاتمي العـلم الذين يلجمون بلجام من نار يوم القـيامة[٣]، ولا يغيب عن البال قول الله: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ**﴾[٤] .

أسأل الله أن يهدينا ـ جميعا ـ سواء السبيل.

---

(١) رواه الترمذي (٢٤١٤)، وقال الشيخ الألباني: صحيح.
(٢) الغمغمة: الكلام غير المفهوم، المعجم الوسيط (غمم).
(٣) كما عند أبي داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩) وغيرهما.
(٤) آل عمران: ١٨٧.

المبحث الثالث
الطريق إلى الهاوية

تحدث عملية النخر في مجتمعنا بوسائل متعددة، قد تصل لإخواننا ولأبنائنا وإن كانوا من الراكعين الساجدين، ووسائل النخر متنوعة، فبعضها اقتصادي، وبعضها اجتماعي، وبعضها فكري ثقافي، بعضها يقتصر على الأفراد، وبعضها يحدث على يد المؤسسات، وكلها في النهاية تصب في خانة المجتمع، فتعوق حركته، وتقيد نهضته، وقد تعوقه عن السير المطلوب نحو الهدف المرصود فترة تطول أو تقصر، مما يسترعي لفت الأنظار، ويستدعي مؤازرة كل قادر على الإسهام في التخلص من الأخطار.

ولا نكون مبالغين إن قلنا: إن أهم الأسباب الدافعة إلى هذا النخر هو ذلك الانفصام النكد ـ لدى كثير من الناس ـ بين الدين والدنيا، بين المسلم في محرابه متبتلا، وبينه في سوقه متمولا، بين الصائم نهاره طاعة لله، ثم هو في ليله مقترف لمعاصي الله، باحث عن الشهوات والملذات وإن كانت من المحرمات، ألم تر إعلانات الصحف عن الخيام الرمضانية وسهراتها؟ إن لم تكن ـ يا أخي ـ قد قرأت فإني أنقل لك بعض ما جاء في إحدى صحف الأسبوع الماضي: (بمناسبة الشهر الفضيل، وإحياء لتقليد الأمسيات الرمضانية الجميلة، أعد فندق.. أمسية موسيقية بعنوان «حلم ليلة شرق» أحياها بالغناء والعزف.. وفرقته الموسيقية العربية، شهد الأمسية عدد كبير من السفراء العرب من محبي فن الغناء العربي، ونخبة من المجتمع الكويتي، ورجال الصحافة والإعلام، واستمرت الأمسية حتى ساعات الفجر الأولى وسط انسجام وتشجيع الجمهور من عشاق الموسيقى الغنائية العربية) ولا نشك في أن أغلب هؤلاء الحاضرين ـ إن لم يكونوا كلهم ـ يصبحون صائمين، فهل يتفق صيام النهار مع سهراتهم الليلية أم أن صيامهم شيء وسهراتهم الليلية شيء آخر؟ إنه ـ إذن ـ الانفصام النكد، الذي يجعل بعض المسلمين يسجدون لله في المسجد فإذا خرجوا من المسجد ألقوا أمر الله خلف ظهورهم، وأقدموا على فعل كل ما يريدون، لا تردعهم ولا تمنعهم صلاتهم من أن يبيعوا مثلا ـ السموم ـ للناس، يهلكون بها عافيتهم، ويسلبون منهم أموالهم، وهل المخدرات وما يسير في فلكها إلا سموم قاتلة؟!

إنه الانفصام النكـد الذي يجعل بعض الصائمين ينسون أوامـر الله في أعمالهم فإن كـان تاجرا غش وأقسم زورًا، لا يعنيه شيء من أمـر الحلال والحـرام ما دامت سلعته رائـجة وتجارته غير كـاسدة، وإن كان موظفًـا ربما وقع في الرشا، وأهمل في العمل، ولم يؤده على جهة الإحسان أو الإتقان.

على حين أن الذين عرفوا ربهم فعبدوه هم أحق الناس أن يكونوا نماذج يقتدى بها في أعمالهم وأن يكونوا واقفين عند حدوده، فلا يقـربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا يرتكبوا الآثام خوفا من غضب الله سبحانه، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السمـاء، فهم يعـرفون الحـلال فيـأخذون منه بما يرضي الله وبما قـسم، ويعرفـون الحرام فيتوقفون عنه كله، لأنه يغضب الله، هذا شـأن المسلم الذي يحمل إيمانه في قلبه فهو معه حـيثـما حل. ولكن بعـض الناس يجعلون إيمانـهم كثـيابهم يغـيـرونها بحـسب الظروف والأحوال، وبحـسب المزاج والرغبـات، فخف وزن الإيمان عندهم، وصـار خوف الناس أعظم في قلوبهم ونفوسـهم من خوف الله، خَفَّ في ميزانهم الخـوف والرهبة من عذاب الآخرة، ورجح عندهم عـذاب الدنيا يدفـعونه بما استطاعـوا ولا يتوقون عـذاب الآخرة، وصار الدين ـ بتعاليمه ـ طقوسا تؤدى في وقتها، ثم بعد ذلك ينطلق الإنسان يَعُبُّ [(١)] من الحياة عبا، غير عابئ بحرام أو حلال طالما أمن عقاب الدنيا وعذابها، فإن كان لما هو مقدم عليه عذابٌ في الدنيا؛ فإنه يتوقف ريثما يستـقر أمره: أيخاطر فيقدم أم يتأنى ويحجم؟ أما أمر الآخرة فقد هان عند الكثيرين حتى صار كأنه غير كائن، أو هكذا يتعامل معه الناس.

ذات يوم في شهر رمضان حدثني أحد العاملين في الإعلام أنه استضاف متخصصًا في مرض فقدان المناعة «الإيدز»، تحدث الضيف عن أهم أسباب المرض وهو: العلاقات الجنسيـة غير المشروعـة، ثم بين أعراض المرض، وأرشد إلى طريق الوقـاية منه، وبعد انتهـاء الحديث جاء القـائمون على إعداد هذا البـرنامج التلفزيوني وسأل بعـضهم هذا الضيـف: لقد نمت بالأمس مع امـرأة فهل يمكن أن أصـاب؟ وماذا أعـمل الآن؟ وقال آخر: كنت من أسبوعين مع اثنتين فماذا أصنع الآن وهل يمكن أن أكون أصبت؟

يحكي مـحدثي أن هؤلاء العـاملين مـعه في إعـداد البـرنامج صائمـون، نعم صائمون نـهارا ضائعون ليلا، يتـبعون طريقة الانفـصام النكد، فلا يبقى مـعهم من

(١) عَبَّ الماء عبًّا: شربه بلا تنفس، تَعَبَّبَ الشراب: تجرعه بكثرة وإفرط في شربه. المعجم الوسيط (عبب).

العبادة التي يؤدونها رصيدٌ ينهاهم عن الفحشاء والمنكر، ومع علمهم بحرمة الزنا التي هي من المعلوم بالدين بالضرورة فإنهم ما خافوا عـذاب الله، فامتنعوا عن الفحشاء، أو على الأقل فكروا في التوبة منهـا والرجوع عنها، فلما علمـوا عذاب الدنيا الذي تمثل لهم في (الإيدز) خافوا وفزعوا، وجاءوا يسألون: ماذا يعملون؟

فليقرؤوا إذن ما يقوله د. راشد عبد العزيز العويش مقرر اللجنة الوطنية لمكافحة الإيدز: (وأفـضل علاج واق من وجـهة نظري هو العـفة والتـقوى وتربيـة الشـباب عليها، وهذا ما كفله لنا ديننا الإسـلامي للوقاية من جائحة هذا المرض .. ينبغي أن يكون حـرص المرء مبنيـا على تقوى الله، وعلى العـفة والطهـارة، وابتغـاء الحلال، والبعد عن الممارسات غير المشروعة) [1].

إن طريق النجاة من الإيدز وغيره من الأمراض والمعوقات هو في الالتزام بتعاليم الدين في كل وقت وفي كل مكان، وصدق الله العظيم: ﴿**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى**﴾ [2]، هل يعي شبابنا هذا؟ وهل تعي تلك المجموعة من الشباب ـ التي رأيت سخطها في المطار وسمعت جلبتها ـ ما أقول؟

والقصة رأيتهـا بعيني منذ سنتين عندما اضطررت للسفر في صبيـحة عيد الفطر عبر مطار الكويت، وكـانت الطائرة تقلع في الساعة التاسعـة، ومعنى ذلك أن أكون في المطار في حدود الثامنة تقريبا، وتوجهت في الموعد المحدد إلا المطار وإذا بِجَلَبَة[3] وسخط تلفت الانتباه، فنظرت فإذا مجـموعة من الشباب لا تقل عن ثلاثين ارتفعت أصواتهم، ولما حـاولنا أن نعرف سبب السخط والغـضب قيل: إنهم كانوا مسـافرين إلى (.......) البلد العـربي، ولظروف الطيران فـإن هذه المجمـوعة قسـمت إلى قسمين قـسم يسافر في الموعد المحدد، وقـسم يتأخر حتى المساء، وهنا عـلا الصياح وزاد الغـضب، وانكشف المستـور لأنهم على مـوعد هناك مع بعض الغـانيات قـبل حلول المساء.

فأين منهم صيام رمضان الذي صـاموه؟ هل صلوا العيد؟ هل وصلوا أرحامهم؟ هل خافوا ربهم؟ هل كـانت رهبة عذاب الآخرة في نفوسـهم؟ إلى آخر هذه الأسئلة

---

(١) جريدة الوطن الكويتية بتاريخ ٢١/١/١٩٩٨م. (٢) طه: ١٢٣.
(٣) الـجَلَبَة: الصياح والصخب. المعجم الوسيط (جلب).

التي يعتـبرها البعض أو قـد يعتبر المقـالة كلها موعظة تمر وتمضي. وإنني أقـرر أنها موعظة ونصـيحة ودواء عظيم لشـفاء النخر الذي يكـاد ـ إن لم يوقف ـ أن يستنزف قوى المجتمع، ثم يؤدي به إلى البوار.

﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ..**﴾[1].

---

(١) الحديد: ١٦.

المبحث الرابع
الأمم بين الاقتصاد والأخلاق

صار الاقتـصاد لدى كثيـر من الدول هو المعبود الأول في هذا العصـر، الذي يقوى فتقوى به الدولة، ويضـعف فتهتز أركانها، ويصيب الخلل بعض أجـزائها، وترتبك حركة الحياة والأحـياء فيهـا، وها هي ذي روسيا يخرج فـيها أكثـر من مليون نفس في مظاهرة صاخبة، تطالب بعزل الرئيس «يلسن» نظرا لأنه لم يسـتطع أن ينعش الاقتصاد، وأن يوفر كثيرا من المواد المعيـشية التي يحتاج إليها الناس بالأسعار المعقـولة، وفي اليابان طالب كثير من السياسيين هناك بإقـالة الحكومة الجديدة التي لم يمض على تشكيلها غير بضـعة أشهر، لا لأن الناس لا تجد ما تأكله، ولكن لأن مؤشر المعدل الاقتصادي منذ مجيئها لم يرتفع.

وقد كانت عدة آلاف من فرص العمل حققها الرئيس كلينتون كفيلة بأن يتغاضى كثير من الشعب الأمريكي عن سقطاته الأخلاقـية ونزواته الجنسية، وأن تزداد شعبيته عما كانت عليه من قبل.

اضطراب الاقتصـاد يهز الجماهير ويحـرك الناس والقادة؛ لأنهم يظنون أن المادة وحدها تحقق لهم السعادة، إذ إنهم بها يستطيعـون أن يحققوا ما يرغبون وأن يشتروا ما يريدون، فصار المال معبودهم وغايتهم، مع أنه في الحقيقة وسيلة توظف للوصول إلى غـاية يحقق بهـا الإنسان بعض مطالب بدنـه، لكنه لا يستطيع أن يحـقق به كل مطالب نفسه وأشواقها في الحياة، فـقد يكثر المال وتقل السعادة وقد يقل المال وتوجد السعادة، ولكن غـير المسلمين في هذه الأرض اعتبر كثـير منهم المال غاية، واتبع في تحقيقها **الطريقة الميكافيللية** المبنية على قاعدتهم المشهورة «الغاية تبرر الوسيلة» وبذلك صارت كل وسيلة لجلب مزيد من المال، سواء أكانت مقبولة أم مرفوضة مشروعة في نظرهم، ما دامت ستؤدي في النهاية إلـى السعادة أو إلى المال في رأيهم، وفي سبيل هذه الطريقـة الميكافيللية تخلص أرباب الأمـوال وأصحـاب الأعمال مـن الأخلاق باعتـبارها قيـودا أمام حركة التـجارة؛ اللهم إلا ما كـان منها يساعـد على مزيد من التنمية ومـزيد من الدخل، بالعناية بالعمل وإتقان الجودة والصدق في المواعـيد وغير ذلك مما به تزيد الأرباح، ويزداد الطلب على السلع، فتتراكم الأموال.

أمام هذه النظرة المادية التي تَدَثَّر[١] بها رجال المال في الغرب سقطت القيمة الإنسانية للبشر، في بقية أجزاء الأرض، وكرس الإنسان الغربي منذ بدء عصر النهضة[٢] جهده كله، لتحقيق مزيد من الأموال على حساب الآخرين، ولو داس في طريقه لتحقيق هذه الغاية على كل القيم والفضائل الإنسانية، فكان جنون الذهب عنده من أكبر أسباب القضاء على الهنود في أمريكا، وكانت الرغبة في استغلال أمريكا بعد اكتشافها سببا في استرقاق كثير من الأفارقة وإهلاك كثيرين منهم، وقد صارت النخاسة بذلك تجارة من أكبر التجارات الأوربية، لها الأساطيل القوية والشركات الضخمة ولها الصيادون والأسواق ومرافئ التصدير في ليفربول، وبردو، ولشبونه ونزفت القارة الأفريقية حتى الموت. من أجل ماذا؟ من أجل حب الرجل الغربي للمال وجمعه من أي طريق، ثم أعقب ذلك مرحلة الاستعمار التي كان يمشي فيها الثالوث الماكر : المبشر الذي يتعرف على الأرض والبيئة والسكان، والجندي الذي يدمر كل مقاومة، ثم التاجر الذي يمثل الشركات الكبرى التي بدأت تضخ الخيرات إلى أوربا، غير عابئة إلا بالاقتصاد الخام الذي يقدم المواد الأولية للمصانع الغربية، وإلا باستغلال الأيدي العاملة المسخرة والتي تلهبها السياط من أجل تدليل الرجل الأبيض، ولم يتورع أهل الغرب عن استعمال كل وسيلة رخيصة من أجل استغلال الآخرين، فكان الأفيون أحد وسائلهم، ونتج عن ذلك ما سمي بحرب الأفيون، وما عرف بالاستهلاك الإجباري للنبيذ في الهند الصينية، وسخرت البلاد المستعمرة لصالح المستعمرين، فاستغلت السنغال لتنتج ٨٥٪ من جملة إنتاجها من الفستق لصالح «شركات الزيت» الأجنبية، وكانت الكروم والخمور هي المورد الأول للجزائر (قبل ظهور النفط)، وكان القطن في مصر والهند تدار به مصانع مانشستر بينما كان أهل هذه البلاد يستوردون الطعام أو يتساقطون على دروب الجوع[٣].

واستمرت عجلة الإنتاج الأرضي تمد الرجل الغربي بالمزيد والمزيد من الأموال ليرفع معدل الأداء الاقتصادي، وليهبط مؤشر الأخلاق إلى أدنى مستوياته في الغرب، حتى ليقع تحت وطأة الرذيلة كبار السن من المسؤولين ابتداء من فضيحة «لوتروكيه» رئيس مجلس النواب الفرنسي سنة

(١) تغطى بها.

(٢) عصر النهضة: مصطلح يطلق على فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة وهى القرون ١٤ ـ ١٦، ويؤرخ لها بسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ م حيث نزح العلماء إلى إيطاليا حاملين معهم تراث اليونان والرومان.

(٣) على جناح طائر، د. أحمد شاكر، بتصرف.

١٩٥٦م وانتهاء بالرئيس الأمريكي سنة ١٩٩٨ في فضائحه الجنسية، مرورا بوزير خارجية بريطانيا بروفوميو سنة ١٩٦٣م وفضيحته مع كريستين التي هزت بريطانيا يومئذ [١]. وقد ظن الغربيون أن تحقيق المزيد من المال والانغماس في كثير من الشهوات هما جناحا السعادة، فكان حرصهم على الاثنين كبيرا، أصبحت هناك نقابات معترف بها رسميا تهتم بشؤون الشواذ من الجنسين، وأقرت الكنيسة في بريطانيا (زواج) رجلين وباركهما أحد القساوسة، ويقام احتفال سنوي علني في سان فرانسيسكو للشاذين، الذين يملؤون الساحات تحيط بهم الورود والزهور في مأتم للفضيلة، التي يذبحها الشاذون بمساعدة غير الشاذين، الذين لا ينكرون منكرا ولا يأمرون بمعروف، بل إنهم يساعدون على المنكر بإقراره ومعاونة أصحابه، من أجل أصواتهم الانتخابية وما أحقره من ثمن!! حتى إن الرئيس الأمريكي الغارق في وحل الرذيلة يدين بشدة الاعتداء الذي حدث على طالب مثلي الجنس (شاذ) اعتدى عليه بالضرب زميلان بعد أن تظاهرا أنهما مثله في الشذوذ [٢].

ولم تتورع القوى الفاعلة في الساحة الدولية من إجراء التجارب التي قد تخدم اقتصادياتها وتثبت نفوذها في بعض المناطق فعمدت إلى تقسيم (يوغسلافيا) السابقة، وأثارت فيها العصبيات الدينية والعرقية التي جعلت الصرب يعملون عملهم في المسلمين قتلا وتذبيحا في البوسنة طيلة سنوات، كانت شلالات الدماء التي سالت، وأرواح الآلاف التي أزهقت هي عربون التدخل الفعلي الأمريكي لوقف هذه المجازر العلنية ولتفرض ما تشاء، واليوم تحدث نفس المعارك ونفس التكتيك في كوسوفا تذبيح وقتل المئات من الناس حتى يستكين الإقليم للقوة الصربية، ثم تملي أمريكا إرادتها في غير مراعاة لإنسانية الإنسان، ولا لمصلحة أصحاب الإقليم، وهذا يؤكد أن الأخلاق لا وجود لها في التعامل، وأن هبوط مؤشرها مستمر في سقوطه لا يرتفع أبدا.

وهذا الارتفاع الاقتصادي والهبوط الأخلاقي أثمر في الغرب العديد من الأخطار التي تتطلب معالجتها واتقاء شرورها أموالا عديدة تستهلك كثيرا من الدخل دون أن تحقق الشفاء والأمان، ومن هذه الأخطار:

١ـ انتشار عدد من الأمراض التي تحصد كل عام مئات الألوف من الأرواح وتستهلك مئات الملايين من الدولارات دون أمل قريب في الحصول على نتائج ملموسة تمنع الشر والخطر أو تخففه، وفي مقدمة هذه الأمراض الإيدز الذي يصاب به نحو ٣٠

---

(١) أحجار على رقعة الشطرنج ص ١٠.

(٢) الوطن ١٢/ ١٠/ ١٩٩٨م.

مليـون شخص بينهم ١ر١ مليـون تحت سن الخامـسة عـشرة [١]، وبلغ عدد المـصابين بالأمراض المنقـولة جنسيا ٣٣٣ مليـون حالة سنويا كما جـاء في تقرير منظمة الصـحة العالمية، وعدد المصابين بهذه الأمراض في الشرق الأوسط ١٠ ملايين إصابة سنويا[٢].

٢ـ تجارة المخـدرات، وهي تجارة ممنوعـة قانونا، رائجة في الواقع بلـغت جملة تجارتها ٥٠٠ مليـار دولار سنويا، منها ٧٠ مليارا في العالم العـربي، وقد تضاعف إنتاج الأفيون ثلاث مرات خلال السنوات العشر الأخيرة حتى بلغ ٤٣٠٠ طن سنويا، كما تضاعف إنتاج أوراق الكوكا ثلاث مرات ليصل إلى ٣٠٤ آلاف طن وقفز الإنتاج العالمي من الماريجوانا بنسبة **٥٠٪** وتقدر قيمة تكلفـة علاج ووقاية الفرد الواحد في المجتمع الأمريكي بـ ٣٠٠ دولار سنويا[٣].

٣ـ الجريمة المنظمة التي أقلقت المجـتمعات الغربية وهزت بناءها الاجـتماعي من الأساس وأشاعت في جـوانبها الرعب والخوف، وأحدثت نزيفـا مستمرا في مـيزانية تلك الدول، فقد بلغ حجم «أعمال الجريمة» هناك نحو ٢٠ بليون دولار[٤].

وبلغ مجموع النساء اللائي تعرضن لعمليات التحرش الجنسي في إيطاليا وحدها ٩ مـلايين امرأة، وتعـرضت **٤٪** على الأقل من النسـاء إلى عـمليات اغـتصـاب، وتعرضت كثـيرات إلى الابتزاز الجنسي في مقار وظائفهن، ويلجـأ أكثر من ٦٠ ألف شخص إلى تغيـير محل سكناهم كل عام خوفا من التـهديد أو الابتزاز[٥]، نقلا عن تقرير معـهد الإحصاء الإيطالي. وأما عن أمـريكا أو كثير من دول الاتحاد السـوفيتي سابقا فحدث عن الجريمة بأنواعها ولا حرج.

٤ـ الضعف الجنسي الذي يشكو منه ١٥٠ ملـيون شخص على مستـوى العالم منهم نحو ٣٠ مليونا في أمريكا وحدها.

وكل هذه الأخطار وغيرها أصبـحت تشكل مصدرا دائما للقلق والأرق الذي لا يترك مجالا أمام السعادة، حتى وإن كَـثُر المال وحقق كثيرا من المطالب، لأن السعادة لا تتحـقق إلا حيث يتـمسك الناس بالقيم والـفضائل وتسـود بينهم العفـة، وتشيع

(١) المجتمع العدد ١٢٨٦.
(٢) جريدة الوطن الكويتية ١٢/ ١٠/ ١٩٧٨م.
(٣) الأنباء العدد ٧٩٢٤.
(٤) القبس العدد ٩٠٠٠.
(٥) الشرق الأوسط العدد ٧٢٤١.

العدالة، ويبتعدون عن المناكر كلها، هذا هو ما يحقق للناس السعادة وإن قل مالهم ولم يحققوا ـ أحيانا ـ كل متطلباتهم. أما السير وراء الغربيين واعتبار ارتفاع المؤشر الاقتصادي وحده عنوان الرقي، فهذا ليس محققا للسعادة... ومن المؤسف أن دولاً كثيرة في العالم الإسلامي، تأخذ بالنهج الغربي في الاهتمام بالاقتصاد ـ وحده ـ وإن كانت لم تنجرف إلى الانغماس في تيار التحلل الخلقي، إلا أنها تأخذ من هنا ومن هناك بعض الأمور التي تدخل في باب المحرمات، وأقرب الأمثلة على ذلك ما سمحت به السلطة الفلسطينية حين سمحت بإقامة «كازينو» للقمار في أريحا تكلف ١٥٠ مليون دولار، وجلبت إليه فتيات من اليونان إلى جانب بعض الشباب الفلسطيني من الجنسين للعمل في هذا المجال، بحجة أن هذا ينعش الاقتصاد. وبعض البلاد تسمح ببيع الخمور، بل وتصنعها من أجل زيادة الدخول، فهل هذه الزيادة تحقق السعادة؟

لو كان الأمر كذلك لكانت الدول الغربية في مقدمة السعداء، ولكن الأمر غير ذلك، حتى إن الولايات المتحدة الأمريكية خصصت يوم ٨ أكتوبر من كل عام يوما وطنيا لمحاربة الاكتئاب، تفتح فيه المستشفيات أبوابها لكل من يعاني من الاكتئاب لمساعدته مجانا على التخلص من هذا المرض الذي يفتك كل عام بـ ١٧ مليون دولار أمريكي، ومن أعراضه القلق والحزن والشعور بالفراغ، وهذا المرض ثمرة من ثمار الاهتمام بالجانب الاقتصادي وحده. فهل نود أن نكون مثل هؤلاء ولو على المدى البعيد؟

وإننا لنجد فيما يثار الآن دعوات إن تحققت فإنها في النهاية ستصل بنا إلى هذه النهاية المفزعة، وعلى سبيل المثال فإن هناك دعوة لانفتاح الكويت انفتاحا واسعا من غير ضوابط أمنية وأخلاقية يحقق ازدهارا اقتصاديا كما حدث في دبي.

وأصحاب هذه الدعوة لا ينظرون إلا إلى وجه واحد من الانفتاح، أما الوجه الآخر الذي تداس فيه القيم وتنتشر الأمراض الخطيرة والجرائم الكبيرة، وتتكلف الدولة الملايين من أجل معالجة هذه الأخطار فإنه يغيب عن أصحاب هذه الدعوة، كما يغيب عنهم أن تحسين الاقتصاد عن طريق زيادة الإنتاج وترشيد الاستهلاك خير للكويت من هذا الانفتاح الذي يدعون إليه، إن هذا الانفتاح ـ غير المنضبط ـ الذي لا يراعي حرما ولا قيما سيكون نتاجه ما سبق وذكرناه عن الغرب، فالحذر من الانفتاح أن تندفع نحو الانفتاح غير المأمون العاقبة الذي تزيد به الهموم والآلام وتكثر به الجرائم والانحرافات.

المبحث الخامس
قـــوانين وأهـــــواء

١ ـ الاضطهاد الديني بين الحقيقة والواقع:

في مســاء ٢٧/ ١٠/ ١٩٩٨م وقع الرئيس كلينتــون قانون الاضطهاد الديــني، بعد أن وافق عليه الكونجــرس الأمريكي، ويعطي هذا القانون للــرئيس الأمريكي حق إنزال بعض العقوبات من بين خمس عــشرة عقوبة، منها ثمانٍ دبلوماسية وســبع اقتصادية للدول التي تتهم بأنها تمارس الاضطهاد الــديني للأقليات فيها، وتتراوح هذه العقــوبات بين الاحتجاج الدبلوماسي، وقطع الــتبادل الدبلومــاسي والحد من تراخيص التــصدير، والتصــويت ضد حصــول تلك الدول على قروض من المؤســسات الماليــة الدولية، إلى غــير ذلك. وهكذا تنصِّب أمريكا نفسها حامية الأديان في العــالم، وتجعل من نفسها حكما وخصما في وقت واحد، بين بعض الرعايــا في دولة ما وبين الدولة التي يعيشون في ظــلها، مما يجعل ولاء أولئك الرعايا يميل إلى أمريكــا أكثر من ميلهم لبلادهم، ومما يجــعل هذه الوصاية الجديدة ذريعة للتدخل في شــؤون الدول الأخرى، وتشويه صورتهــا، وإثارة روح العداء ضدها، واستنهاض الآخــرين عليها، وقد حاولت أمــريكا استخدام هذا القانون حــتى قبل أن يقره الرئيس الأمريكي حــين أرسلت مندوبا إلى مصر للتــحري عمــا يخص الأقباط في مــصر بحجة أنهم مضطهدون، واستطاعت أجهزة الإعلام الغربية أن تشوه سمعة مصر، وأن تثير الرأي العام في أمريكا ضــدها على نحو من الأنحاء، وقد استخــدمت هذه الورقة ـ ورقة اضطهاد الأقباط في مصر ـ منذ عهد السادات حتى صارت أحد عناصر الضغط التي توجه ضد المصريين، وتشهر في وجوههم حينا بعد حين.

والغريب فــي الأمر أن تتصــرف أمريكا في شــؤون البلاد الأخرى بمــوجب قانون داخلي يصدره الكونجرس ويقره الرئيس، ويصبح ـ بعــد ذلك ـ تنفيذه رهنا بمجموعة من العلاقــات المتشابكة، التي تقــبلها دول فلا تتهم بشــيء، وتأباها دول أخرى فيأتيــها هذا الاتهام وتلاحقها حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بحجة تطبيق القانون، دون أن تحتاج في ذلك إلى قرار من الأمم المتحدة أو غيرها من الهــيئات الدولية الناشطة العاملة، ومن الطبيعي ألا يطــبق هــذا القــانون على الدول الكبرى التي يضطــهد فيــهــا ـ دينيا ـ بعض

الرعايا، لأنه مقصود به دول العالم الثالث في أفريقيا وآسيا، فالدول الكبرى لا تسمح مكانتها أن تطبق عليها أمريكا ما تطبقه على غيرها، وبعض الدول تسير عكس الاتجاه فلا يكلمها أحد، فالصين تأبى ألا تتعامل نوويًا مع غيرها من البلاد، ومع هذا تنال من أمريكا حق الدولة الأولى بالرعاية اقتصاديا، وإسرائيل تأبى التوقيع على اتفاقية خطر انتشار الأسلحة النووية ومع هذا تنال من أمريكا كل الرعاية السياسية والاقتصادية، وهذا يعني أن القوانين في عصر القطب الواحد تطبق على بعض البلاد دون الأخرى، وأن أمر تطبيق القوانين خاضع للهوى، غير منزه عن الأغراض السياسية.

٢ - صفحة من التاريخ القريب:

ومن حقنا في الشرق أن نرتاب في مثل هذه القوانين التي لم تنل دول الشرق من ورائها غير الإذلال والاحتلال، فليست هذه القوانين وأمثالها جديدة علينا في الشرق، إذ إن الدول الغربية ضغطت على الدولة العثمانية سنة ١٨٣٩م لاستصدار قوانين جديدة بحجة حماية الأقليات (وكانت تريد منح الأقليات أو الأوربيين، أو غير المسلمين بصفة عامة حريات سياسية، وحقوقا تتحول إلى امتيازات، وذلك لتجعلهم طوائف منفصلة عن الدولة، متمتعين بمزايا لا تتمتع بها الأكثرية من المواطنين، وقد صدر هذا القانون في٢ نوفمبر سنة ١٨٣٩م)[١]، ثم يقول في موضع آخر مؤكدا صحة استخدام ذريعة الاضطهاد الديني للتدخل في شئون الدولة العثمانية. (أرسل القيصر «قيصر روسيا» إنذارا إلى الباب العالي أي «السلطان العثماني» يطلب فيه الاعتراف بحقوق روسيا في حماية رعايا الدولة المسيحيين، ولما رفضت الدولة العثمانية ذلك سارع «القيصر» بإرسال جيوشه لمحاربتها سنة ١٨٥٣م)[٢].

(ثم بعد هزيمة روسيا في تلك الحرب على يد إنجلترا وفرنسا، انعقد مؤتمر الصلح في باريس في فبراير سنة ١٨٥٦م بعد أن كانت إنجلترا قد ضغطت على السلطان العثماني ليصدر مرسوما آخر يكون أكثر وضوحا أو صراحة في إعطاء المسيحيين وأهل الملل الأخرى من رعايا الدولة حقوقا أو ضمانات خاصة.

فصدر في ١٨ فبراير سنة ١٨٥٦م مرسوم بذلك، وقد كان بمثابة إعلان دستور

(١) تباشير النهضة في العالم الإسلامي، د. محمد ضياء الدين الريس، ص ١٠٦، ١٠٧.
(٢) المصدر السابق ص ١١٣.

خاص للرعـايا غير المسلمين من الأوربيين وغيـرهم جعلهم في مركـز كأنهم يكونون دولة داخل الدولة)[١]، (وكان من شأن هذه الامتيازات التي تسلحت بها الأقليات أو الطوائف نتيـجة ضغط الدول المباشـر، كان من شأنها أنهـا ستجعل مركـز الأقليات أحسن وأقوى من مركز الأغلبـية نفسها، وأن مساوئ هذه الامتـيازات كانت ستظهر فيمـا بعد في مجالات القضـاء والاقتصاد والتعليم وغـيرها وتكون وبالا على الدولة نفسها وعلى الشعوب التابعة لها)[٢].

٣ ـ صور جديدة لوسائل قديمة:

إن قوانين الاضطهـاد الديني لبعض الرعايا، واتخاذها وسـيلة من وسائل تدخل الدول الكبرى في شؤون الآخرين ليست جديدة، كـما أن الوسائل الأخرى المصاحبة لهذه القوانين والتي تأخذ صورة اتفاقات أو معاهدات (الجات مثال على ذلك) ليست جديدة، فهل قرأت عن شـركة الهند الشرقية التي كانت بأسلوبهـا التجاري وتغلغلها الاقتصادي في الهند من أكبر الأسبـاب التي أدت إلى استعمار الهند في القرن التاسع عشـر؟ ثم هل جاءك نبأ قـرارات صندوق النقد الدولي؟ أليـست سياسـته هي نفس سياسة الديون القديمة التي كانت سببا مباشرا في احتلال مصر سنة ١٨٨٢م.

إنها سـياسـة واحدة ووسـائل واحدة تلبس ثيـابا عصـرية لتوافق الزمـان، أما الأهداف فواحدة، ترمي إلـى تحكم الدول الكبرى في غيرها من الدول. واسـتخدام بعض الرعايا أتباعا، وإعطائهم مزيدا من الامتياز عن غيرهم من مواطنيهم.

٤ ـ مشهد من الواقع:

وليس أدل على ذلك من الواقع الذي تشهد أحداثه بأن الأقلية المسلمة في عديد من بلدان العالم أصابها من الاضطهـاد والتقتيل والتشريد والتهجـير ما لم ينل غيرها من الناس. أليست كشمير يشهد واقعـها الأليم الذي تعرفه الدول الكبرى قبل غيرها أن سكانها المسلمين يلاقون الأهوال حينا وراء آخر، من أجل رغـبتهم في انضمامهم لإخوانهم في باكستان؟

ألم تنل البـوسنة والهرسك من الصـرب العذاب الأليـم، وقامت فـيها مـذابح

(١) تباشير النهضة في العالم الإسلامي ص ١١٧. (٢) المصدر السابق ص ١١٩.

جماعيــة للمسلمين، واستخدمت فــيها أسلحة بيولوجيــة لمنع المسلمين من الهجرة أو الفرار من القتل كما ذكرت الصحف أخيرا؟

ثم ماذا تقول في كوسوفا والدماء هناك ما تزال تنزف، والجراح الإسلامية تشكو إلى ربها ظلم البشرية وقسوتها؟!.

ولا أظن أن أحدا يجهل مأساة ٤,٥ مليون فلسطيني أغلبهم مسلمون شُرِّدوا في الأرض.

فماذا فعلت الدول الكبرى التي تتحدث عن الاضطهاد الديني وتسن قوانين داخلية لتـتعامـل بها في الخـارج إزاء هذه الحالات الصـارخة؟! ثم لماذا يضـيق على المسلمين وحدهم في الغـرب؟ ولماذا تضيق الولايات المتـحدة على المسلمين هـناك؟! ولو حدث انفجار في اليابان مـثلا لتخوف مسلمو أمريكا من أن يتهـموا به؟ ولماذا يثير منظر بضع طالبات محجبات المجتمع الفرنسي وتقف الهـيئة التعليمية ضدهن، فلا يدخلن المدرسة لولا حكم القضاء؟ من يـحمي هؤلاء؟ ومن يدافع عنهم؟ ومن يتبنى قضـيتهم من أمم الأرض؟ غير أن المسلمين في بلاد العالم لا مدافع عنهم ولا نصير لهم من بين الناس.

٥ـ قانون الدفاع عن الفساد:

قديما كان الحياء يدفع الناس إلى التستر والخفاء عند ارتكاب المحظورات، وكانت الحكومات تقاوم الفساد ولا تسمح بوجوده علانية، فضلا عن أن تدافع عنه، غير أن العصر الحديث سار الناس فيه في اتجاه مضاد، نتيجة المغالاة في الاستمتاع والتخلص من الضوابط الدينيــة الشرعية، والمبالـغة في استخدام الحـرية، واعتبار الإنســان سيد نفسه لا دين يوجـهه، ولا رقيب يحاسـبه، ولا وازع يردعه، فدفـعت هذه الأسباب الناس إلى العبّ من الشهوات عبا، والرتع في الملذات رتعا، وحاولت الحكومات في البلاد الغربية تيسـير سبل الاستمتاع، فسنت من القـوانين ما أتاح للناس هناك فرصا عديدة للانحلال الخلقي، فوافق (البرلمان) في إنجلترا منذ حين على الشذوذ الجنسي، فصار قانونا يسير عليه من يرغب من الناس، ووافقت عليه الكنيسة هناك. وانتشرت موجة الفساد في كل أرض غربية وتبنتها بعض الحكومات.

وأحدث حكومـة فعلت ذلك هي الحكومة الجـديدة في ألمانيا، إذ أعلنت وزيرة شؤون الأسـرة والمرأة والمسنين أن الوضع القـانوني للعاهرات ضـعيف «إذ لا يـوجد

لديهن ملجأ قانوني يكفل حصولهن على المقابل» وبدلا من أن تحاول الحكومة هناك إيجاد أعمال مناسبة لهذه الفئة وانتشالها من الفساد الواقعة فيه إذا بها (الحكومة) تبحث لهن عن ملجأ قانوني، ليأخذن المقابل المالي للعهر والفجور، ثم لا تكتفي الحكومة بإقرار هذا الفساد الخلقي ومحاولتها تقنينه والدفاع عنه، بل تتجاوز ذلك حين تعلن أنها ستدرس تقنين حيازة كميات صغيرة من المخدرات الخفيفة كالحشيش.

ولن يقف أمر الفساد عند هذا الحد، إذ سرعان ما تبادر الحكومات هناك إلى إتاحة كل لذة محرمة، وإباحة كل شهوة عارمة، ومساعدة الناس على أن يغرقوا في وحل المنكرات والمخدرات، وماذا تنتظر غير ذلك من أناس يشرّعون لأنفسهم ما يشتهون، ويسيرون في حياتهم وفق ما يريدون، لا يعرفون من الحرام إلا ما حرموه، لأنه لا يناسب أهواءهم؟، ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ...**﴾(١).

فالهوى هو المقياس، كان الهوى في الشذوذ فأباحوه، وساد عندهم العهر فأرادوا أن يقننوه، وانتشرت المخدرات فلا بأس بها إن كانت خفيفة.. فأين العقل المانع من التردي؟ إن ذلك كله يجعلنا نؤكد ما نؤمن به أن الإنسان بدون شرع الله الذي يضبط حركته في الحياة حيوان ضال، بل هو شر من الحيوان ﴿**أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**﴾ (٢).

٦ ـ هل هي سمة القرن القادم؟

السيطرة الاقتصادية المتخفية في ظل المكانة السياسية للدول الكبرى تكاد تكون من أبرز سمات النظام العالمي الجديد، إذ لا يسلم منها مكان ذو أهمية عالمية. فما بالك بدول الخليج التي تنفرد بميزة اقتصادية خاصة، إذ يقوم اقتصاد الدول الخليجية على «النفط» بصورة أساسية، مما يجعل ميزانية هذه الدول في مهب الريح إن نقصت أسعاره عن حد معين، ويؤثر ذلك في الحياة الاجتماعية وفي المقدرة السياسية، وفي الحركة الاقتصادية بطبيعة الحال، وقد يغير من طريقة حياة الأفراد والأسر، ويعمل على إدخال أنماط وسلوكيات جديدة في الحياة.

وقد بدأت بوادر الأزمة الاقتصادية مع حرب الخليج الأولى، ثم ظهرت مع حرب الخليج الثانية وتبلورت بوضوح بعدها، وما تزال الأزمة تتطور وتتضح، مما يؤكد أن آثار حرب الخليج الثانية ستظل قائمة طالما أن جار الشمال قابع فوق قبة نظامه صدام بتوجهاته البعثية، وحركاته اللولبية، وادعاءاته الكلامية. مما جعل الدول الخليجية عموما، والكويت من

(١) الجاثية: ٢٣.
(٢) الأعراف: ١٧٩.

بينها خصوصا تندفع في شراء صفقات أسلحة من هنا ومن هناك لتقف في وجه المعتدي صدام إن لزم الأمر. فأكلت هذه الصفقات قدرا كبيرا من الميزانية، كان من الممكن أن يختفي أثره لو أن أسعار النفط بقيت كما كانت من قبل.

لكن تدهور هذه الأسعار أدى إلى خفض اضطراري في الميزانية من ناحية الدخل، وأدى شراء الأسلحة إلى زيادة اضطرارية في الإنفاق، مما أوجد الحالة الراهنة التي تمر بها البلاد، وتستدعي استنفار المخلصين لمعرفة أقوم السبل لتجنب مشكلة قد لا تكون صغيرة أمام هذه الصفقات الكبيرة، وما يتعلق بها من ضياع أموال، وما يحيط بها من شكوك في أفضلية أنواعها ومراعاة مصالح البلاد التي أنتجتها على حساب اختيار أفضل الأنواع المعروضة.

وهذا نموذج للتعامل التجاري والنمو الاقتصادي المنتظر مع مطلع القرن القادم فيما يسمى العالم الثالث، حيث تنخفض فيه الميزانيات نتيجة تدني دخول الدولة من التجارة أو الصناعة أو الزراعة أو المواد الخام، وتكثر نفقاتها في شراء سلع عديدة من الدول الغربية، فتظل لتلك الدول الهيمنة الاقتصادية القوية التي تدعم مكانتها السياسية، بحيث تبقى هذه الدول مسيطرة على الآخرين ومستغلة لمواردهم، وقد مهدت الدول الكبرى لهذا الذي يتم الآن منذ بضع سنين، فتمَّ تحالف الدول السبع الصناعية الكبرى «أمريكا، اليابان، ألمانيا، بريطانيا، فرنسا، كندا، إيطاليا» وطرحت تلك الدول في مؤتمر القمة السابع عشر لها، طرحت فكرة مبادلة ديون الدولة النامية بالبيئة، بمعنى الهيمنة على الموارد الطبيعية من مياه وغابات، وعلى النشاط البشري بالدول النامية.

وفي محاولة قانونية مبدئية للسيطرة على البيئة، عقد مؤتمر قمة عالمي في ١٩٩٣م، في ريودي جانيرو، وكان من أهدافه ـ غير المعلنة ـ تحقيق مركزية السيطرة على البيئة العالمية، والحقيقة أن تحالف الدول الصناعية الكبرى ليس من أجل الحفاظ على البيئة، ولكنه من أجل فتح فرص عمل جديدة أمام شعوبها، وفتح أسواقنا أمام سلع وخدمات تحقق لهم المزيد من نهب الثروات، وجاءت اتفاقية الجات والتي تستهدف حرية حركة السلع وحركة رأس المال والخدمات، لتفتح الباب أمام القوى العظمى التصديرية ـ الولايات المتحدة ـ لتحقيق الهيمنة على الاقتصاد العالمي[١].

أفلا يحق لنا أن نعمل على الابتعاد عن هذا المصير؟

---

(١) مجلة المجتمع العدد (١٣٢٦).

المبحث السادس
الدور الذي ينتظر المسلمين

«الفراغ الروحي الهائل عند كثير من الأمم يفسح المجال أمام المسلمين ليبرهنوا على أنهم أمة نافعة لغيرهم من الأمم، وبالتالي يصبح بوسعهم أن يحرزوا تلك المكانة التي ضيعوها في هذه الحياة»[(١)].

إن عالم اليوم يعاني من الأزمات الأخلاقية الحادة، التي تبرز مظاهرها هنا وهناك، كحوادث الانتحار الجماعي، وعبادة الشيطان، واغتصاب المحارم، والقلق النفسي الذي تجسده مئات المصحات المنتشرة في البلاد المتقدمة، والعنف المدمر رغم انعدام كثير من أسبابه الظاهرة، التي يرده الناس إليها. وهذا وذاك يعبران عن قلق نفسي حاد، واضطراب شعوري لا يقف عند حد، تتجلى مظاهره في: عبوس الوجوه، وقساوة القلوب. عكس المطمئنين بما في قلوبهم من يقين؛ لأن اطمئنان الباطن يتبدى في السمات ويتضح على القسمات، ولا تطمئن القلوب إلا بما قاله الله لنا في كتابه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[(٢)]. وإن عالم اليوم يعاني كذلك من التفجر العلمي الخارج عن السيطرة، والذي يجعل الإنسان يشعر بالضياع وباليأس والخوف الذي يلاحقه، فلا يهدأ له خاطر ولا يستقر له فؤاد، ويكفي أن نُذكّر بحادث انفجار المفاعل النووي «تشرنوبل» في الاتحاد السوفيتي السابق منذ سنوات[(٣)]، والذي مايزال مثار رعب وفزع من أن يتجدد انفجاره ـ رغم كل الاحتياطات اللازمة ـ فيحدث آثاراً لا يمكن السيطرة عليها، أو تصور أضرارها لا في المنطقة المحيطة به وحدها، بل في الكرة الأرضية بأسرها، والقلق والخوف واليأس كلها تصيب الناس لا من انفجار هذا المفاعل أو أمثاله، بل مما هو أقل من ذلك بكثير؛ فالنفايات النووية ما يكاد يعلن عن أنها تدفن في بلد حتى تحدث بين الناس آثارها النفسية، وتجعل الإحباط يملأ جوانب حياة الإنسان، دع عنك تلوث البيئة، وانتشار كثير من الأمراض المستعصية، وكثرة الزلازل وثورة البراكين والعواصف والأعاصير والفيضانات، التي وإن ظهر أن بعضاً منها خارج عن إطار سلطة الإنسان وقدرته، فإن بعضها الآخر ناتج عن التقدم الهائل الذي قد يعجز العقل أحياناً عن حسبان عواقبه على المدى القريب أو البعيد، ولذا تجد الدول تثور وترفض وتأبى التجارب النووية القريبة منها في المحيطات أو في الصحراوات.

(١) الدين الكامل.. وحيد الدين خان.
(٢) الرعد: ٢٨.
(٣) كان هذا في ٢٦ نيسان (أبريل) ١٩٨٦م.

إن الانهيار الأخلاقي يمثل القلق الداخلي، والانفجار العلمي غير المحكوم تماماً يمثل الخوف الخارجي والإنسان الذي يقع بين شقي الرحا هذين يحتاج إلى من يمد له يدا لينقذه، ومن يعطيه بلسماً روحياً ليشفيه، ولا شفاء إلا بالنور الذي أنزله الله ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ**﴾[1] . فمن الذي يقدم هذا الشفاء؟ ويهيئ للناس هذا الدواء؟ وإنها لمهمة عظيمة إلا على من يسرها الله عليه، لأن المفترض فيمن يعالج الناس من أمراض القلوب أن يكون خالياً من أمراضهم، بعيداً عن أوهامهم، لا يخفى عليه أنه قدوة لهم في سلوكه وأقواله وأفكاره وتصوراته، ومن هنا يكتسبون منه الدواء في ثقة، ويتعاطونه عن يقين، فيحدث فيهم القوة الدافقة التي تقضي على القلق والخوف، والشفاء موجود ومتاح أمام كل إنسان، إنه الإسلام الذي هو شفاء من الخالق العظيم للإنسان الضعيف، ونعود فنقول: من يقدم هذا الترياق للناس؟ إنهم بالطبع المسلمون.

ولكن عليهم قبل أن يتجهوا بالدواء إلى غيرهم أن يتخلصوا به من أمراضهم الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، وغيرها من العلل التي تجعل الأمة تئن وتتوجع وتشكو وتتألم والدواء بين أيديها وما عليها إلا أن تتناوله، لتصح، ثم لتنشره بين الناس فيصحوا كذلك.

ولقد أثبتت السوابق التاريخية أن بعض المسلمين الذين حققوا تعاليم الإسلام في سلوكهم وتصرفاتهم كانوا هم ناشري الخير والنور، والآخذين بأيدي الأمم الأخرى نحو الفلاح، حيث قدموا لهذه الأمم ما يملأ أفئدتها من تعاليم السماء، التي هي شفاء للروح من أسقامها، وغذاء يزيل عنها ضمورها وينميها، هكذا فعل بعض التجار المسلمين الذين كانوا يخرجون للتجارة في جنوب شرق آسيا فنشروا هذا الدواء (الدين) بين الشعوب التي تزيد الآن على مئات الملايين.

وهكذا فعل آخرون من المسلمين وهم يجوبون أواسط أفريقيا ومجاهلها وينشرون الدين، في كثير من الأماكن حتى سميت هناك بلاد بأسماء إسلامية. كانت من بينها الحاضرة المسماة بدار السلام.

ومايزال هذا الدين شفاء للروح، وعلاجاً لأمراض العصر، من أخذه نجا، ومن حاد عنه كان له الشقاء والضلال ﴿**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى**﴾[2] . وتلك مهمة المسلمين، وعليهم أن يكونوا كما أراد لهم الدين ﴿**خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾[3] ، يقدمون هذا الدين للناس ليخرجوهم به من الظلمات إلى النور، فيأمن الناس حين

(١) الإسراء: ٨٢. (٢) طه: ١٢٣. (٣) آل عمران: ١١٠.

يستخدمون العلم في نفع الإنسان، فلا تُزالُ بالعلم مدن كانت قائمة فصارت ركاماً، وأناس كانوا يتحركون فصاروا أمواتاً، وسل مدينتي نجازاكي وهيروشيما يخبرانك عن آثار العلم المدمرة حين يكـون في خدمة المصالح والأهواء، وحـين يسخر ويستـخدم لإذلال الإنسان، وحين يقتلع من الحياة الأخضر واليابس ويترك الأرض قاعاً بلقعاً[١] تفر مـنها الوحوش والزواحـف والضواري، فإذا أضـيف إلى هذا العلم المدمـر فراغ النفوس من مـعاني الخير والحق والصـلاح، أو فراغها بالأحـرى من الإيمان الهادي، فمـاذا تنتظر للبشرية غـير العذاب والآلام؟، دين الإسلام هـو العلاج للعلتين، وهو العاصـم من الوقوع بين فكي هذين الداءين، اللذيـن يخفيـان خلفهـما العـديد من أسـباب التـوتر والقلق، التي لا يقـضي عليـها إلا إذا أشـربت القلوب حب الإيمان وخافت الله وراقبتـه في كل أعمالها، ولن يتحقق ذلك إلا بـإسلام صحيح. وتلك مهمة المسلمين، إن أرادوا لهم دوراً بارزاً بين أمم الأرض.

(١) بَلْقع البلد: أقْفَرَ. والبلقع: الخالى من كل شيء، المعجم الوسيط (بلق).

المبحث السابع

حتمية الصراع بين المسلمين والصهاينة المعتدين

يقوم التجمع الإسرائيلي على فلسفة التوسع والعدوان، الذي تنميه وتغذيه النزعة الصهيونية كأساس استراتيجي لا بديل عنه، وهذا ما يؤكده المسئولون في إسرائيل كل يوم بتصريحاتهم، وما يشهد به الواقع من تصرفاتهم، وكم كان العرب والمسلمون مخطئين حين ظن بعضهم أن الاتفاقات التي تمت بين ما يسمى بالسلطة الفلسطينية وبين إسرائيل في مدريد وأوسلو وما يلحقهما ويتبعهما بمباركة العديد من الدول كافية لإيقاف النزعة العدوانية التي قامت عليها الصهيونية، وذلك لأن لإسرائيل أهدافها المعلنة المعروفة، وهي منشورة بالخط الكبير فوق مدخل الكنيست «البرلمان» الإسرائيلي لمن يعرف القراءة، ويريد أن يقرأ «من النيل إلى الفرات» ثم ما يلحق بذلك من هيمنة دولية وسيطرة عالمية، فإن تحقق هذا الهدف بالحروب والعدوان فَنِعِمَّا هو، وإن حالت دون ذلك حوائل فليكن تحقيقه بالسلم والأمان، وهو أوفى لإسرائيل وأعظم، إذ يحقق لها حلمها دون أن يكلفها كثيراً ولا قليلاً.

«وهذا ما قاله وزير خارجية أمريكا السابق في احتفال ٤/ ٥/ ١٩٩٤م لتوقيع اتفاق تنفيذ إعلان المبادئ (غزة وأريحا) إذ قال: «نحن لن نصل إلى نهاية الصراع في الشرق الأوسط ولكننا نغير شكله، فنحن نتجه الآن إلى المنطقة التي كانت القوة هي العامل الأساسي، أما الآن فالكلمة هي العنصر»[(١)]، ومعنى ذلك أن مهمة النظام العالمي الجديد ليست في إنهاء الصراع في المنطقة، لأن الصراع لن ينتهي، وإنما هي هي في تحويل شكل الصراع من صراع بالأسلحة التي إن أحسن العرب استخدامها أصابت إسرائيل في مقتل برغم قوتها النووية، إلى صراع بالشعارات والشجب، تفعل إسرائيل ما تفعل، والعرب يتكلمون ويدينون.

وكلام (وارن كريستوفر) الذي قاله سنة ١٩٩٤م يعبر عن حقيقة واقعة الآن، فإن إسرائيل تفعل ما تريد في القدس وغيرها، دون أي اعتبار لاتفاقات مسبقة أو عقود وعهود مبرمة، فطبيعتها العدوانية لا تنفك عنها، على حين أن العرب يعتبرون الكلمة هي العنصر،

---

(١) صدام الحضارات ص ١١٨.

فيستصــرخون مجلس الأمن فيأتيهم «الفيتو» الأمريكــي، ويتحولون إلى هيئة الأمم التي تدين التصرف الإسرائيلي، فيـعتبرون قرارها نصراً، وإدانتها فتـحاً، ويرضون من الغنيمة بالإياب، وكفى الله المؤمنين القـتال. إن الصراع لم ينته ولكنه غيّــر شكله ـ الآن على الأقل ـ وبعد أن كان صراعاً مصـحوباً بالضجيج تحوّل اليوم إلى صراع «ساكن» إن صح التـعبير أو هو صراع نفسي في الجانب العربي وحده، وما ألذ هذا الصــراع لإسرائيل، التي يسرها أن تفعل ما تريد دون أن تراق لأحد أبنائهـا قطرة دم واحدة، وإن أصـيب العرب أجمـعون بالقهـر والضيق، واستنجدوا بالعالم كله لينجد السلام المهدور، ويستنقذ الشرف المقهور، ولن يدوم هذا الوضع طويلاً إذ «إن المجتمع العربي يتجه نحو تبني الفكر الإسلامي كـأساس لفلسفته الاجتماعية، وأن هذا المجـتمع يملك الكثـير من عـوامل الانسـجام، على الجـانب الآخر تتنامى النزعـة الصهيونية التوسعية العدوانية، ومن هنا فإن عوامل التباعد بين الطرفين ترجح عوامل التقارب، وتحاول الاتفاقيات معالجة الجوانب التربوية والإعلامية في المجتمعين لبناء الثقة والتعايش، لكن هذه الجهود لا تستطيع تغيير فلسفة هذه المجتمعات وأساسها المتجذر في التاريخ»[(١)].

ونحن ـ المسلمين ـ لانشك لحظة ولم نشك من قـبل في أن الصراع حتمي، تحـسمه الأيدي المتوضئـة، أيدي المجاهدين الذين يناديهم الحجر والشجر: يا عـبد الله هذا يهودي خلفي تعال فـاقتله[(٢)]. ولا عجب فلله جنود السـموات والأرض ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ**﴾[(٣)] . وإن تَغْـيّرَ شكل الصــراع لا يخدعنا عن أنفـسنا ولا يخدعنا عن عـدونا، وإن ساندته كثير من القوى، فإن قوة الله أعظم، وجنده هم الغالبون.

والصادقون من المسلمين الذين يحملون أعـباء المواجهة الحقيقية في مـواجهة الصهاينة لهم الدور الأساسي الذي ينبغي أن يعتبروه وسام شرف وفخار، لأنه قيام بموعود الله الذي وعد به الصادقين: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ**﴾ [(٤)]. ولكن متى يحين هذا الدور؟ ومتى يتحقق؟

إن هذا الدور ليس بعيداً وإن ظنه الناس كذلك، وتغيّرُ شكل الصراع اليوم على النحو الذي نراه لن يدوم طويلاً، لقـد طالت فتـرة الحرب عـقوداً، لأنها لم تـكن في معظمـها

(١) حصاد الفكر العدد ٣٥ نقلاً عن كتاب مستقبل السلام في الشرق الأوسط لـ: جواد الحمد.
(٢) رواه البخاري (٢٩٢٥)، ومسلم (٢٩٢١).
(٣) المدثر: ٣١.
(٤) التوبة: ١١١.

لصالح العرب، والحرب التي مالت كفتها للجانب العربي أعقبتها مباحثات علنية ومبعوثون لرؤساء قـاموا بوسـاطات، وسعى إليـها أناس كل همهـم إجهاض مـفعـول الحرب على الأرض، وإبطال أثرها في النفس، ومن يومها تغير شكل الصراع حتى وصل إلى ما وصل إليه مما تحاول الصهيونية أن تستثمره في القريب، ولعل تغيير شكل الصراع لصالح المسلمين إن أحسنوا العمل، وراقبوا الله وبعثوا في أبنائهم حب الجنة، التي شمَّ ريحَهَا من دون أُحُدٍ أنس بن النضر # فاستبسل في مواجـهة المشركين حتي استشهد[1]. ولسوف تبقى تربيةً أبناء المسلمين على مثـل هذه المعاني والقيم هي الذخـر المدَّخر قبل أي شيء آخر لمواجـهة هؤلاء الأعداء، يوم يتغير شكل الصراع فـلا يكون عنصره كلمة السلام، بل يكون عنصره صوت السلاح.

(١) أخرجه البخاري (٤٠٤٨)، ومسلم (١٩٠٣).

المبحث الثامن

خطورة مصطلح الشرق الأوسط

هي مصطلحات شائعة بيننا اليوم يعرفها كل الناس، ويرددونها ويكتبونها ويذيعونها في كل ناد، وربما لا يدري الكثيرون منهم خطورتها، إنها مصطلحات نشأت في ظل الاستعمار الغربي لبلاد الشرق، ومعظمها بلاد إسلامية وقد تمَّ إطلاق هذه المصطلحات عليها بناء على قربها أو بعدها المكاني من أوروبا خاصة والبلاد الغربية عامة.

فكان الشرق الأدنى من نصيب بلاد الشمال الإفريقي، لأنها أقرب مكاناً إلى أوروبا، ثم كان الشرق الأقصى من نصيب جنوب شرق آسيا، نظراً لبعدها عن أوروبا، وكان الشرق الأوسط من نصيب البلاد الإسلامية المتدة من مصر غرباً إلى باكستان وأفغانستان لأنه مكان وسط من حيث البعد أو القرب لأوروبا.

وخطورة هذه المصطلحات تكمن في تغييب هويّة هذه البلاد من حيث الدين والانتماء، فلا ذكر لدين، ولا ذكر لعروبة حين يردد الناس في هذه المنطقة كلمة الشرق الأوسط، ومشكلة الشرق الأوسط، والرحلات المكوكية إلى منطقة الشرق الأوسط، وغير ذلك من كل ما يحمل اسم الشرق الأوسط. فلا يتنبه الناس إلى ما يخفيه هذا المصطلح في ثناياه من غياب كل معنى وطني أو قومي أو ديني، يدفع الناس إلى مواجهة الأخطار التي تهدد حياتهم، لأنهم لا يسمعون ما يمس بلداً بعينه أو قيمة بذاتها.

وحتى لا نخوض في عموميات فإننا نقول: إن القضية التي أطلقوا عليها ـ زوراً وبهتاناً ـ «قضية الشرق الأوسط» هي قضية غرس الكيان الصهيوني بكل ما يمثله من انتهاكات واغتصاب في الأرض الإسلامية، وفي بقعة عزيزة على المسلمين منها، وهي أرض فلسطين التي تضم المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين، ومسرى رسول الله ﷺ، وتضم كذلك كثيراً من الأماكن التي عاش فيها الأنبياء والمرسلون منذ إبراهيم إلى عيسى عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه.

وهي قضية كل المسلمين في كل أرض، لأن هذه المقدسات ليست خاصة بفئة من

المسلمين دون أخرى ولا بطائفة دون الثانية، وكان هذا المفهوم الإسلامي للقضية يعطيها قوة عظيمة لأن المسلمين أجمعين يقفون من خلفها، ويعطيها امتداداً شاملاً للمواجهة مع العدو، لأن المسلمين يعيشون في رقعة واسعة من العالم، وعلى كلٍ منهم أن يقدم ما افترضه عليه الدين فرضاً عينياً أو كفائياً لاستخلاص هذه الأرض من أيدى اليهود الغاصبين، سواء بعد مكانه أو قرب، فإن عليه واجباً جهادياً يؤديه بقدر استطاعته، وتظل هذه المشكلة تؤرقه وتقلقه كلما قام بشعيرة من شعائر الدين، وذكر أن أرض المسلمين اغتصبها السفاكون، الذين لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة؛ لأنهم معتدون باغون. فهل يتيح الصهاينة وأذنابهم لمثل هذه المعاني أن تنتشر وأن تعمَّ وهي عليهم خطر موجود لا يأمنون أن ينتفض عليهم، وينقضّ عليهم في أي لحظة؟ وإذن فلتسكت أجهزة الإعلام عن إثارة هذه المعاني الدينية، ولتمنع كل ما يذكّر بها حتى لو كان كلمة جهاد تلك التي ينبغي أن تشطب من قواميس لغة المسلمين بعد أن شطبت من واقعهم وحياتهم، وإذن فلتأخذ القضية منحى آخر واتجاهاً أضيق؛ إنه الاتجاه الوطني، فلتسمَّ «قضية فلسطين»، بمعنى أنها لا تعني المسلمين بالدرجة الأولى لأنها بذلك ليست قضيتهم، إنها قضية مجموعة من الناس كانوا يعيشون فوق أرض فلسطين قبل اغتصابها، ومازال بعضهم يعيش فيها تحت الاحتلال، وقد أصبح على المسلمين بهذا التحول مجرد مساندة الفلسطينيين لا بحكم الدين ولكن بحكم الأعراف السياسية الشائعة، التي تدخل في إطار المساعدات الأدبية والمعنوية، والتأييد في المحافل الدولية إن تيسر ذلك، فإن ضعف الفلسطينيون عن تحمل الضغوط التي تأتي من كل ناحية، وارتضوا أسلوباً معيناً للتعامل مع المغتصب الصهيوني، فما دخل المسلمين؟ فكان القصد من قصر القضية على الفلسطينيين وحدهم هو تحييد أكبر عدد من المسلمين من أن يتدخلوا في قضية قائمة بين الصهيونيين والفلسطينيين، الذين عليهم أن يجلسوا معاً ليحلوا مشكلتهم بأنفسهم تحت وساطة دولية تذلل الصعب، وتيسر العسر بتنازل أصحاب القضية لصالح اليهود. وهو ما يحدث اليوم وسط جو من التعنت الإسرائيلي مشبع بالغطرسة والكبرياء، دون أن يملك الطرف الآخر حولاً أو طولاً، فقد عزل عن إخوانه في الدين وتقطعت الروابط بينه وبين المسلمين.

وفي هذا الجو يشاع ويذاع مصطلح قضية الشرق الأوسط، ليخفي وراءه التعاطف الأدبي الذي مازال قائماً في نفوس المسلمين نحو إخوانهم في الدين، وليخفي ذلك اسم فلسطين، فلا يكون هناك كيان بهذا الاسم، وإنما مجموعة من

الناس تعـيش في أرض مقـتطعـة على «جزء مـن الوطن» والوطن هنا «هو الأراضي الفلسطينية التي مـازالت محتلة والتي لن يخضع منها للفـلسطينيين غير **٥٠٪** وتقسم الـ**٥٠٪** الأخرى إلى قسمين **٢٠٪** منها قد تكثفت فيهـا المستوطنات إلى حد يبرر عدم إرجاعها على وجه الإطلاق، وضمها لإسرائيل، و**٣٠٪** منها مستوطنات ولكن ليست بالتركيز الذي يؤهل ضمها لإسرائيل نهـائياً. وتلك سوف تبقى ـ طول مرحلة اختبار حدها الأقصى ٢٠ سنة ـ تحت السيادة الإسرائيلية على أن تنتقل بعد ذلك إلى السلطة الفلسطينية شريطة عدم مطالبة مستوطنيها بالتخلي عن جنسيتهم الإسرائيلية»[١].

وبهذا العمل ـ إن صح ـ وهذه التسمية (الشرق الأوسط) التي تشيع، تكون التعمية عن الأهداف الحـقيـقيـة التي تعمل على طمس هذه القـضيـة ومحـوها من القـاموس السياسي لعالمنا العـربي والإسلامي، كقضية محددة لها مـغزاها الديني أو حتى القومي إلى شيء هلامي لا معنى له في الأذهان، وبالتالي لا يلقى من الناس أي اهتمام. وفي هذا تكمن خطورة مصطلح الشرق الأوسط الذي نردده الآن في كل مكان.

(١) الأهرام القاهرية في ٢٢/ ٥/ ١٩٩٧م، مقال عند مفترق طرق وثيقتين.

المبحث التاسع

أُمنية لا تقبل التحقيق

١ ـ غاية الإسلاميين أن تسود تعاليم الإسلام بلاد المسلمين:

«الأصولية راحت تفقد جاذبيتها، وتنزع إلى الانكفاء تدريجيا، وأنها محكومة بالزوال».

كانت هذه بعض توقعات «اللجنة القومية للسياسة الخارجية» الأمريكية في تقريرها الذي رفعته لإدارة الرئيس كلينتون.

وهذا التوقع أقرب لأن يكون أمنية بالمعنى الحقيقي لها في اللغة العربية، أي أنها مستحيلة الوقوع في عالم الواقع، فالخيال أطلقها، والشعور ارتضاها، ومالت إليها نفوس خبراء الاستراتيجية، بناء على بعض الظواهر غير السويّة الموجودة الآن في العالم الإسلامي. ونحب أولاً أن نذكر القراء الأكرمين بمفهوم الأصولية في الخبرة الحضارية الغربية، الذي يعني مجموعات متدينة، ترفض مظاهر الحضارة المعاصرة، وتسعى إلى العودة إلى ما قبل المدنية الحديثة، وتتسم بالتعصب الشديد، وتستشعر امتلاكها وحدها الحقيقة.

وهذا المفهوم يستعمله الغربيون حين يودون أن يتحدثوا عن الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي، ويظنون بهذا الفهم المعلول أن المنتمين إلى هذه الحركات الإسلامية شاذون ينبغي أن يجدوا من الناس من يقف في وجوههم، ويرصد حركاتهم، ويضع العراقيل في سبيل تطلعاتهم، لأن ذلك يجعل الصوت الإسلامي، الذي يحمله هؤلاء صوتاً بغير صدى، ونداء بغير إجابة.

٢ ـ الحقيقة مصدرها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ:

وظَنُّ الغربيين عموماً، وأصحاب الاستراتيجية خصوصاً ليس في موضعه ولا في موقعه، فما من أحد من المنتمين للصحوة الإسلامية ادّعى لنفسه ـ وحده ـ الحقيقة إذ ليس ذلك قاصراً على أحد بعينه من المسلمين، لأن الحقيقة مستقرة في كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ، وهما (الكتاب والسنة) بين يدي المسلمين أجمعين، فأين تلك الجماعة التي ادعت لنفسها ـ وحدها ـ الحقيقة؟

وبناء عليه فلم تدّع جماعة من الجماعات أنها ـ وحدها ـ تملك تفسير الإسلام، لأنها وحدها تملك الحقيقة، وإنما تتعدد أوجه الاجتهاد في محاولة فهم النصوص الشرعية، دون

أن يحاول أحد فرض وجهة نظره على الآخرين.

والجماعات الإسلامية في بلاد المسلمين، ليست جماعات منعزلة تعيش في الفضاء أو في الكهوف، إنها جماعات تعيش بين المسلمين وتعتبر المسلمين كل المسلمين رصيدها الذي لا ينفد وذخرها الباقي، ومجال حركتها ودعوتها إلى ما فهمته من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فليست الجماعات الإسلامية جزراً معزولة عن محيطها الإسلامي، إنها جزء منه، تتواصل معه في مد وجزر بحسب الظروف والأحوال.

٣ ـ الحركات الإسلامية ليست جزائر معزولة عن شعوب الإسلام:

وهذا المحيط الإسلامي من الشعوب الإسلامية يبقى هو الرافد لجميع الحركات الإسلامية يمدها بالقوة والنماء، ويجدد فيها الروح المتوثبة والمتطلعة لأن تسود تعاليم الإسلام الثابتة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولن تفقد هذه الحركات الإسلامية جاذبيتها إلا إذا تخلت عن تعاليم الإسلام التي تدعو إليها، ويومها لا تكون قد فقدت ـ فقط ـ جاذبيتها، بل تكون قد حفرت بيدها قبرها، وكفنت نفسها، وسيشيعها المسلمون غير آسفين أو نادمين، ولن ينفعها تهليل الغربيين لها، وإفساحهم المجال أمام أتباعها، فهل نفع دعم الغربيين القاديانية؟ وهل نفع دعم الغربيين البابية؟ أو غيرها من الفرق الضالة، المنحرفة عن تعاليم الإسلام. إن أمثال هذه الفرق الضالة هي التي تفقد جاذبيتها، بل تفقد وجودها ذاته، أما الحركات الإسلامية الجادة فإنها لن تفقد جاذبيتها، لأنها تدعو إلى الإسلام الحق ولن يفقد الإسلام بريقه يوماً من الأيام، ولن ينطفئ نور الله في الأرض وإن حاول ذلك الكافرون.

إن الحركة الدعائية الغربية التي تستند فيما تذيعه وتنشره عن الإسلام والمسلمين إلى غير الواقع لا تستطيع أن تخفي كيدها الذي تكيده للمسلمين، وحقدها على الإسلام وخوفها من انبعاثه في صدور رجال يعملون به وله، ولذا يطلقون آمالهم وأمنياتهم التي اغتروا بها بأن دعاة الإسلام فقدوا جاذبيتهم، وأن وجودهم محكوم عليه بالزوال.

إن بقاء الإسلام أبديٌّ، وتلك حقيقة شرعية، ألم يعد الله بحفظ كتابه؟ ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[1] فكما أن تنزيل القرآن حقيقة لا يماري فيها أحد، فحفظه كذلك حقيقة لا ينبغي أن يماري فيها أحد، وتتصل بهذه الحقيقة حقيقة أخرى هي بقاء

---

(١) الحجر: ٩.

طائفة متمسكة بهذا الحق لا تحيد عنه، «**لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**»[١].

بقاء الدين الإسلامي حقيقة، وبقاء جماعة متمسكة به، داعية إليه، مدافعة عنه حقيقة أيضاً، فلم يبق إلا أن نقول: إن الحكم على الجماعات الإسلامية بالزوال زيف ووهم يكشف عما في الصدور، أكثر مما يثبت من الواقع القائم أمام العيون.

٤. دراسات الغربيين عن الحركات الإسلامية تفتقر إلى الدقة والموضوعية:

ولئن كثرت المكائد أمام الإسلاميين في بلاد عديدة بتشجيع ومعاونة من أعداء الإسلام، فقللت من نشاط الحركات الإسلامية هنا وهناك، فليس ذلك دليلاً على الانكفاء والانعزال، فذلك ما يريده الذين لا يحبون الخير للمسلمين ولا يودون للصحوة الإسلامية أن يتسع أفقها وأن يدوم سعيها للدعوة إلى الإسلام، والدارسون للحركات الإسلامية من الغربيين أنفسهم أعلنوا أنهم يفاجأون بوجود حركات إسلامية في مناطق لم يكونوا يتوقعونها وفي زمان لم يكونوا يرصدونه، وذلك أمر لا غرابة فيه ـ عندنا ـ لأننا مؤمنون بقدر الله الغالب وقدرته التي لا يعجزها شيء، وما على المسلمين إلا أن يأخذوا بالأسباب وأن يعملوا ما يستطيعون، وهم يعلمون ويتحققون من قول الله: ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٢]. أما استناد خبراء الاستراتيجية في قولهم هذا إلى عدم وصول الإسلاميين إلى الحكم، فيدل على أنهم لا يعرفون المغزى الحقيقي لمعظم الحركات الإسلامية التي جعلت همها الأوحد أن يكون الإسلام بتعاليمه السمحة، ونظمه العادلة، وشرائعه الميسرة هو المرجعية الأولى في بلاد المسلمين لا يتقدم على شريعته غيرها، وأن يتقاضى إلى تلك الشريعة جميع المسلمين بغير استثناء، وليس بالضرورة أن يتم ذلك على يد حركة إسلامية بعينها، فقد يقوم بذلك نظام من النظم أو بعض المؤسسات في بعض البلاد، وحينئذ يجد القائمون على هذا الأمر من جميع الحركات الإسلامية كل عون وتأييد.

إن الحكم في ذاته ليس غاية الإسلاميين، وإنما تطبيق أحكام الإسلام هو الغاية

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٩٢٠) واللفظ له.
(٢) الروم: ٤٧.

فمن حقق هذه الغاية وسعى لها سعـيها، وأعلى فوق أرض المسلمين بنيانها، فله كل العون وله كل تأيـيد من جمـيع المنتمين إلى الصحـوة الإسلاميـة، بل ومن المسلمين عامة، ومن وقـف في وجه هذه الغاية رافضـاً لها، عاملاً على تقـويضها **فالله بيننا وبينه،** وهذا الموقف يبين خطأ الأحكام التي يســوقها من لا يعـرفون حقيـقة مطلب الحركات الإسلامية، التي لا تطلب لنفسها شيئاً، من حطام الحياة الدنيا، وإنما تطلب مرضاة الله.

فلماذا يعلن خبراء الاستراتيجية غير الحقيقة التي يعرفونها؟

المبحث العاشر
المستشرقون في بلاد الغرب
والمستغربون في بلاد الشرق

طبعت الدراسات الغربية عن الإسلام واللغة العربية آثاراً واضحة على جزء لا يستهان به من الفكر المعاصر في البلاد الإسلامية، سواء بين الذين درسوا علوم ومناهج المستشرقين ـ خاصة ـ والغربيين عامة، وتأثروا بأفكارهم، وسارعوا على دربهم، واقتبسوا من ثقافتهم، أو بين الذين انتقلت إليهم هذه الأفكار والآراء والنظريات دون أن يشاركوا في نقلها؛ لأنهم حاولوا التصدي لها، فكان لزاماً أن يطلعوا عليها، أو حتى على بعضها عن طريق الترجمة، إن تعذر عليهم الرجوع إلى المصادر الأصيلة التي تحمل طابع الاستشراق، وخاصة في القرنين التاسع عشر والعشرين، اللذين غير الاستشراق فيهما من مهمته، وأصبح يمثل طليعة يهتدى بها الاستعمار، وتكون له مرشداً، يعمل على إطالة أمده، وتقليل الثورة ضده، وقبول الشعوب الإسلامية به ولو إلى حين.

لقد كانت مهمة الاستشراق في مراحله الأولى هي: (تحصين الهوية الثقافية الأوروبية عن طريق تكوين المراجع العلمية الغربية، التي تستطيع أن تحدّث وتناقش بطريقة علمية لا تدع مجالاً للاختراق الثقافي من الخارج)[1]، ذلك الاختراق الثقافي الذي كان يوغل في أوروبا عن طريق الأندلس وصقلية، حتى اشتكى القساوسة هناك من اتقان الشباب للغة العربية والتفاخر بها، ودراسة كثير من العلوم بها وإهمال لغتهم ولغة آبائهم.

وقد كان احتكاك أوربا بالإسلام فترة الحروب الصليبية التي استمرت ما يزيد على قرنين من الزمان دافعاً آخر لدراسة الإسلام ومعرفة مكونات الشعوب الإسلامية، تلك التي تصدت للهجمة الصليبية، وأثرت في كثير من الصليبيين الذين عاشوا في الشرق الإسلامي، وقد كان الهدف من هذه الدراسات محاولة التخلص من الهيمنة الحضارية الإسلامية، التي تزحف علي أوروبا، والتي لم تهن أمام الحروب الصليبية، بل أوجدت لها معجبين من بين الصليبيين، وبمرور الزمن تحول هذا الهدف إلى جعل دراستهم (تمثل رأس الحربة في توجه سياسات الغرب الاستعمارية منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي وحتى الآن، حيث

(١) البيان، عدد (٧٦)، مقال الدكتور: أحمد بن محمد العيسى.

لايزال يمارس نفس الدور تقريباً من خلال مراكز الدراسات الإسلامية في الجامعات الغربية، ومن خلال مراكز الدراسات الاستراتيجية التي ترسم السياسات الغربية في مجالات متعددة)[١].

وقد كان بعض المستشرقين يمثلون بلادهم كقناصل، أو ضمن جهاز السفارة في البلاد المستعمَرة، وكان البعض آخر منهم يعملون مستشارين في وزارات الخارجية في بلادهم، وقدموا بحوثاً ودراسات تخدم الاستعمار قبل أن تخدم الفكر أو الثقافة، ومن ثم فقد أحيا الاستعمار ـ بدلالة الدراسات الاستشراقية ـ كثيراً من الأمور التي كان الإسلام قد أماتها، لقد أحيا العصبيات العرقية والمذهبية، وأوقد نار الطائفية، وصنع مشكلات الحدود بين البلاد الإسلامية، وسدد طعنات للغة العربية حين عمد إلى إحياء العامية، واهتم بدراسة اللهجات المختلفة وصنع في الجامعات كراسيّ لدراسة الأدب الشعبي، وكانت دراسات المستشرقين للاستعمار رائداً ودليلاً في إخماد جذوة النهضة، مع أن هذه الدراسات تحوي أوهاماً كثيرة، وخيالات عقيمة صنعها المستشرقون من عند أنفسهم، وليس بناء على دراسات صحيحة للإسلام، مما جعل الدكتور حسين مؤنس يقول: (إن محمداً ﷺ الذي يصوره المستشرقون، ليس هو محمداً الذي نؤمن به وبرسالته، وإنما هو شخص آخر من صنع خيالهم، والإسلام الذي يعرضونه في كتبهم ليس هو الإسلام الذي ندين به، وإنما هو إسلام من اختراعهم)[٢]، وقد كانت دراسة كثير من المستشرقين تتسم بالحقد الدفين على الإسلام وكتابه ونبيهﷺ، مما جعلهم يعتبرون الحركات الهدامة التي ظهرت في بلاد المسلمين قديماً أو حديثاً كالقديانية والبهائية وغيرها، حركات إصلاحية ثورية تحررية، من واجب المسلمين أن يحتفوا بها ويتبعوها، واعتبروا تصرفات الدراويش والمجاذيب في البلاد الإسلامية المصدر الذي يستقي منه الدين، لأن هذه التصرفات ـ في رأيهم ـ تمثل الإسلام الحيّ الواقع، أما إسلام الكتاب والسنة فإنه يمثل ـ في رأيهم ـ الإسلام الميت الجامد، ومن ثم فقد وجب إصلاح الإسلام، والإصلاح ـ في نظرهم أيضاً يعني (تفريغ الإسلام من مضمونه، بحيث يصير في عزلة تامة عن تنظيم أمور المجتمع وجعله مجرد تعاليم خلقية، شأنه في ذلك شأن الديانة المسيحية)[٣] .وقد أظهر فهمهم المنحرف والمختل للإسلام أفكاراً وتصورات منحرفة، أو أوهاماً لا صلة حقيقية لها بالإسلام ففصلوا بين الدين والدولة، وجعلوا العقل مهيمناً على كل أمر، حتى لو كان خارج إطاره كأمور العقيدة

(١) المصدر السابق.

(٢، ٣) الإسلام والاستشراق، د. محمود حمدى زقزوق.

وما يتصل بها، ولم يراعوا في دراستهم تقديراً أو توقيراً للرسول ﷺ وآله وصحبه، فوجهوا إليهم طعنات إثر طعنات، كان الدافع إليها الحقد الأسود والتعصب الأعمى، حتى اعتبروا الدين الإسلامي من وضع محمد ﷺ، وحاولوا تجريد الإسلام من كل ما له صلة بالحياة.

وانتقلت أصداء هذه الدراسات أو بالأحرى الافتراءات إلى بلاد المسلمين أو انتقل بعض المسلمين ـ كدارسين ـ إليها في بلاد الغرب، وأحدثت أثراً مؤيداً أوأثراً معارضاً، ومع ضلال كثير من الدراسات الاستشراقية إلا أن مؤيديها نشروها في بلاد الإسلام ومايزالون يدعون لها، فالدعوة لفصل الدين عن الدولة، ومقولة: لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة، والتهجم من حين لآخر على الرسول ﷺ وصحابته الأكرمين، وإبراز هالات إعلامية على كل مناوئ للدين، متصد لمهاجمته، والدعوة والدعاية لكل ما يخالف الدين، كعروض الأزياء والرقص، وإقامة مسابقات الجمال في بعض البلاد، وغير ذلك مما يسير في هذا الجو ويوافقه، كل هذا أثر من آثار الدراسة الاستشراقية، ولئن التمسنا بعض العذر للمستشرقين لجهلهم وسوء ظنهم، وقصور فهمهم للمعنى الصحيح للدين، فما عذر أبناء البلاد الإسلامية الذين يدعون إلى ما يدعو إليه المستشرقون، بل يزيدون؟ ما عذرهم وهم المسلمون الذين يفترض فيهم أن يكونوا عارفين بأسس هذا الدين وأصوله على الأقل، وملكاتهم العقلية ومكانتهم الثقافية ترشحهم إلى ذلك؟

ولسنا نضع بذلك كل المستشرقين موضع المتهم؛ لأن من بينهم أناساً حاولوا أن يكونوا منصفين، فجاءت هفواتهم معدودة، وأخطاؤهم محدودة، ومن واجبنا اليوم أن نعمل ـ في الجامعات ومراكز الدراسات ـ على استيعاب دراسات المستشرقين وأن نبين ما فيها من حق وباطل، وأن نستفيد مما هو حق، ونطرح عن أنفسنا وعن مجتمعنا ما هو غير الحق، أو على الأقل نحاول أن نضع مقابل باطلهم الحق الذي عندنا، بحيث يرى الناس الحقيقة فلا ينطلي عليهم التزييف، فتظل علاقتهم بدينهم وكتابهم ونبيهم قائمة على الإيمان والتعزير والتوقير، فنحمي بذلك عامة الناس من أن ينساقوا وراء شبهات مثارة، أو ضلالات مفتراة.

وبذلك نوفر على أنفسنا وعلى مجتمعنا كثيراً من الوقت والجهد الذي نوجهه لبناء البلاد وأمن العباد.

المبحث الحادي عشر
منع الأذان

مرَّ خبر تصـدي المستوطنين اليهود في الخليل لمنع الأذان في المسـجد الإبراهيمي يوم السبت ٦/٩/٩٧ بحجـة أنه يوم راحة لديهم ونجاحهم في ذلك، مـرّ هذا الخبر على المسلمين مـرور الكرام، وقرأه مـعظمهم وكـأنه يقرأ خبـراً من أخبـار سبـاقات السيارات، أو سبـاقات الخيل التي تجري بعيداً عن بلادنا، ولا يشارك فـيها أحد من فرساننا، فلماذا يهتم بها بعضنا؟

ويبدو أن أمر المسـاجد (بيوت الله) لدى بعض المسلمين أهون شـأناً من مباراة في كرة القدم أو مسابقة من مسابقات السباحـة، تهتم بها البلاد، وتنشر صور اللاعبين فيها الصحف والمجلات، وقد تنقلها الشاشة البيـضاء عبر الفضاء، أما بيوت الله حين تهدم كمـا حدث منذ حين في المسجـد البابري في الهند، حيث هدمـه المتعصـبون الهندوس ليقيموا مكانـه معبداً وثنياً[1]. وأما المسلمون حين يقتلون داخل المسـاجد كما حدث في المسـجد الإبراهيـمي، حيث جـرت المذبحـة لأكثـر من خمـسة وثلاثين من الراكـعين الساجـدين في فجـر يوم قريب من أيام رمـضان[2]، وأما منع الأذان يـوم السبت لأن السادة المستوطنين الجدد الذين اغتصـبوا المدينة يودون ألا يزعجهم أحد في يوم السبت. أما هذا كله فليس له حـساب عند المسلمين اليوم، يمر بهم فلا يحـرك لهم ساكناً، ولا يقيم لهم سـاعداً، اللهم إلا قلة من بينهم لا تملك إلا أن تحوقل بلسـانها (لا حول ولا قوة إلا بالله) وربما سالت بعض عبراتهـا على خدودها، غيرة على الدين الذي ينتهك، وعلى المساجد التي يمنع فيها ذكر الله، ولا يرفع فيها النداء الذي جعله أبو بكر الصديق رضي الله عنه شعار الإسـلام، وأمارة على إيمان فاعليه حين حارب المرتدين. أمـا غير هؤلاء الغيورين على الدين، فلا شأن لهم بما حدث ولا يعنيهم في شيء أن يمنع الأذان أو يذاع، فذلك ليس في خاطرهم ولا في وجدانهم ومشاعرهم.

ولقد سكت الساكتون من المسلمين وغيرهم على هذا الظلم الأثيم، ولم يعتبروا

---

(١) قام الهندوس بهدم المسجد البابري في ٦/١٢/١٩٩٢م.

(٢) وقعت أحداثها الرهيبة في ٢٥ فبراير١٩٩٤م.

فاعله إرهابياً يدخل في زمرة الإرهابيين، لأن الإرهاب وصف قاصر على الإسلاميين وحدهم في هذه الأيام، أما غيرهم من بني صهـيون فلا ينبغي أن يحمل (شرف هذه التسـمية) ولو قتلوا المصـلين، وهدموا البيوت على سـاكنيها، واعـتدوا على جنوب لبنان، وقامـوا بمذبحة (قـانا) وسرقوا مـياه الأنهـار، وتجسسـوا على بلاد المسلمين، وحرقـوا المسجد الأقـصى، وحفـروا تحته الأنفـاق ليزعزعـوا بنيانه، ويرفـعوا مكانه الهيكل المزعوم. لا يوصـفون بالإرهاب ولو اغتصبوا كل يوم أرضـاً جديدة، وأقاموا فيها مستوطنات، وشقوا طرقاً تربط هذه المستوطنات ببعضها ووضعوا قيوداً في أيدي المسلمين، الذين أثقلتهم القيود وأخافتهم وصمة الإرهاب التي تأتيهم من القريب قبل البـعيـد، أما اليـهود فـإنهم من وصمـة الإرهاب في حصـانة، ولهم أن يفعلـوا ما يرغبون، ولغيـرهم أن يستسلم لرغباتهم، وأن يخاف من إغـضابهم وعقابهم. ولكن زمن الاستكانة لن يدوم، والأيام دُوَل والدهر قُلَّب[١]، ونحن بحمـد الله أقوياء إن تماسكنا، أعزاء إن أخذنا بتعاليم ديننا وسنة نبيناﷺ، وعملنا ما يرضي ربنا، والله لا يرضى عنا إن تهـاونا حين تمنع بيوت الله أن يـذكر فيـها اسـمه، ويسـعى بعض الحاقـدين في خرابهـا لأننا بذلك نكون قـد ظلمنا أنفسنا، وبذرنا بـذور الخوف من الأعداء في نفـوسنا، وأتحنا لهم أن ينشروا إفكهم في أرضنا وأن يبذروا غـرسهم المرّ في منابتنا.

إن هذه الجـريمة الجديدة حلقـة في سلسلة اعتـداءاتهم المتكررة على بيـوت الله وسـوف تتـلاحق وتتـواصل مـا لم يدرك اليـهود أن المسـلمين يمكنهم الوقـوف في وجـوههم، وأن يسدوا الطريق في وجـوههم، وأنهم قـادرون على الوصول إليـهم ومعاقبتهم، والانتقام منهم وملاحقتهم.

ولا يتأتى ذلك الآن أو يتحقق إلا بالحركات الفدائية الاستشهادية التي تصل إلى قلب اليهـود وتبث في قلوبهم الرعب، وتجعلهم يتركون السطـو على الأرض وإقامة البيوت فـوقها، وأن يحذروا من كل ما يمسُّ الـقدس قبل غيرها. فـبالأمس القريب كانت المستـوطنة التي أقيمت في جبل أبي غنيم، والتي لقـيت من العرب ـ الشجب كل الشجب ـ والـتنديد ـ كل التنديد ـ واليوم تتـجه الأقلام لتكتب حـول مسـتوطنة

(١) قُلَّب: أي كثير التقلب، المعجم الوسيط (قلب).

رأس العمـود فتشـجبهـا، وتترك (جبل أبي غنـيم) فقد مـضى أوانه، وولت أيامه، وتشرف بالوجوه البهـية والهامات الذكية التي تختفي تحت (الطاقـية)، ونحن وجميع المسئولين في البلاد الإسـلامية نشجب الشجب الحزين، ونصبر الصـبر الجميل، على ما أصابنا ويصيبنا من (أبناء عمومتنا) الصـهاينة، ونعفو عن كثير مما يفعلون. . . إن نقضـوا العهود فنحن بهـا متمسـكون، وإن حاربوا في لبنان وغيـرها فنحن للحرب خاذلون لأننا مسالمون، وإن قـامت حركة فدائية بعملية جـريئة تبرأنا منها وأبرقنا إلى المسئولين في دولة صـهيون معلنين: ذلك إرهاب لا نرضاه، وجرم لا نـقره، واعتداء على الآمنين ندينه.

كل ذلك والصهاينة ينتـقلون من مستوطنة إلى أخرى، ويتخلصـون من معاهدة وراء الثانيـة ويتبادلون الألاعـيب، فوزير خارجـيتهم (ليـفي) على خلاف مع رئيس وزرائهم (نتنياهو) وهمـا معاً على خلاف مع (باراك) زعيم حـزب العمل الجديد!!! ونحن ـ المسلمين ـ لدغنا من الجـحر عـشرات المرات، بل مـئات المرات فـما وعـينا درساً، ولا رفعنا في وجه المتغطرسين رأسـاً، بل قبضنا ـ لهم ـ على بعضنا، ودفعنا إلى السجون في سبيل إرضائهم ـ بعض إخواننا، وفعلنا مع أبناء ديننا ما ينطبق علينا به قول الشاعر:

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي ٱلحُرُوبِ نَعَامَةٌ ... فَتْخَاءُ تَنْفِرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ

فهل لانت لنا منهم قناة، وهل سلم من بغيهم فتى أو فتاة؟!!

أَمَـا من غيـرة على الأعراض؟ أمـا من غيـرة على الدين؟ أمـا من غيـرة على المقدسات؟ أما من غيرة على انتهاك المحرمات؟ لقد ضاعت الأرض في زمن الهوان، فهل تضيع النخوة في نفوس الرجال حتى وهم لا يسمعون الأذان، ولا يلبون النداء، ولا يستشعرون تواصل الأرض بالسماء؟

المبحث الثاني عشر
الحل الإسلامي

(المشكلة التي تواجه الأمة الإسلامية في العصر الذي نعيش فيه، لا تتمثل في فقر الإمكانات المادية والروحية، وإنما في الافتقار إلى النظام الأقدر على توظيف وإعمال واستثمار ما لديها من إمكانات.

الأمة الإسلامية تمتلك الوحي الصحيح الوحيد بين الكتب السماوية، والعقيدة الواحدة التي وحدت الأمة، والحضارة الواحدة، وتراثاً غنياً تعلمت منه حضارات الدنيا، ووطنا واسع الأرجاء موصول الأقاليم والأقطار وأرضاً فوقها وفي باطنها أوفر وأثمن ثمرات الدنيا وثرواتها.

ومع هذا فالأمة الإسلامية ـ مالكة هذه الإمكانات ـ تعيش مشكلة الاستضعاف، حيث تَشلُّ طاقاتِها عواملُ التخلف الموروث، وتحديات الهيمنة الغربية المفروضة عليها، الأمر الذي زرع الوهن في القلوب بدلاً من العزة، فغدت الكثرة غثاء كغثاء السيل، وأصبحت الطاقة الروحية إمكانات محجوبة عن الفعل، تشهد علينا بدلاً من أن تحقق لنا الحضور والشهود على العالمين، وتحولت الثروات المادية إلى نزيف يجفف منابعنا ويصب في خزائن الآخرين)[1].

وهذا تشخيص دقيق لمقدرات الأمة الإسلامية المعطلة، وطاقاتها المهدرة، وسبب لتشرذم أبنائها، وبعثرة جهودها، بحيث تتنافر ولا تتوافق، فتكون المحصلة النهائية التعب والضياع واليأس من كل إصلاح.

وأظن أنه لا خلاف بين عامة المهتمين بشأن هذه الأمة على محاولة انتشالها مما هي فيه، وإخراجها من الهوة السحيقة التي وقعت فيها، وإنما الخلاف في الوسيلة التي تتبعها الأمة للنهوض واليقظة. أتسير خلف الغربيين في كل شيء وتأخذ منهم كل أمر، وتطرح عن نفسها تراثها وتستبدل به ثقافة غربية جديدة، وأفكاراً نظرية تختلف كل الاختلاف عما جاء به ديننا، وقامت عليه في كثير من بلاد المسلمين أعرافنا وتقاليدنا وعاداتنا، أم أنها تطرح عن نفسها ثوب التخلف وتأخذ من كل جديد ما يفيد وينفع. متمسكة بدينها ومنتفعة بتراثها الفكري والعقلي على مدى

(١) هل الإسلام هو الحل؟ كيف ولماذا؟، د. محمد عمارة.

القرون، بحيث توائم هذا التراث الناضج مع الفكر العقلي العلمي النافع، وتستخرج من مزيجهما شيئاً جديداً لا يخالف الدين ولا يشذ عن العصر، يكون هذا الشيء أداة ووسيلة النهضة واليقظة الجديدة؟

وليس هذا الخلاف ـ بين الفريقين ـ جديداً على الساحة، فقد كان موجوداً منذ قرابة قرنين من الزمان، وماتزال شعبتاه قائمتين في جميع بلدان العالم الإسلامي بغير استثناء، وإذا كانت الشعبة الثانية تتمثل في أصحاب المشروع الإسلامي، الذين تناصرهم جماهير المسلمين، فإن الشعبة الأولى يمثلها العلمانيون والليبراليون والشيوعيون وغير ذلك مما شئت من أسماء، تناصرهم السلطات في بعض البلاد، ويملكون أو يسيطرون على كثير من أجهزة الإعلام، فهم وإن قل عددهم يكثر صوتهم، ويظهرون في منتديات شتى، ويثيرون من حولهم دائماً هالات إعلامية ودعائية عديدة، تخدم أغراضهم، وتعمل على نبذ وطرح أفكار الآخرين، ولو كان في ذلك تجريح للأشخاص أو للهيئات والمؤسسات.

ولقد جربت بلدان إسلامية أن تسير على النظام الليبرالي فلم تفلح في سيرها ولم تنجح في سعيها، ثم جربت أن تسير على نظام «اشتراكي» فما حافظت على ما كان تحت يدها من أرض أو مال، ففقدت الرجال وخسرت المال، واستولى العدو (إسرائيل) وانتزع من بين أيديها أرضاً مديدة ما زال جزء كبير منها ـ بعد ثلاثين عاماً ـ تحت يده، يود العرب أن يصلوا إلى استعادته مقابل السلام، ولكن إسرائيل تأبى إلا أن يكون السلام مقابل السلام! بل إنها ترفض ـ بصلف ـ كل ما يخالف طموحاتها السياسية في السيطرة على مقدرات الأمور ـ حتى في بعض البلاد العربية ـ دون أن تتخلى عن شيء مما تحت يدها في القدس أو الجولان أو الضفة الغربية.

فكان من نتيجة تجارب الحكم غير الإسلامية ضياع الأرض، ووقوع كثير من البلاد الإسلامية في دائرة الاستدانة بمليارات من الدولارات، وظهور ثغرات اجتماعية تمثلت في البطالة، وافتقاد الشعور بالانتماء، وفقدان الثقة في الكوادر العاملة، واليأس من كل ترقيع فيما هو موجود.

جربت الأمة الحلول غير الإسلامية فكانت هذه ثمارها، أليس من الأجدر والأولى أن تجرب الأمة ـ وهي تبحث عن المخرج ـ الحل الإسلامي؟

نقول ذلك ونحن ندرك أن الصعوبات العديدة التي تراكمت خلال عقود مضت، لتثقل في الحاضر كاهل الأمة وتقيد حركتها، لا يمكن القضاء عليها بمجرد وصول أصحاب المشروع الإسلامي إلى تحمل المسئولية العامة لأن عوامل التخلف الموروث التي طال عليها الأمد وهي مستقرة في بلاد المسلمين جعلتهم في حالة من الركود العقلي، والهمود العاطفي، بحكم إلفهم لما هم فيه، وترديد ألسنتهم لمقولة: ليس في الإمكان أحسن مما كان، على حين كان العالم من حولهم في حالة من التوهج العقلي، والابتكار العلمي المادي الذي يثير الأفكار ويغير الأطوار، وإن لم يغير دخائل النفوس.

خمدت جذوة الدين في قلوب المسلمين قروناً، فانطفأ بريق العقل وانزوى العلم، وظلت حياتهم راكدة، وكثيرون منهم يظنون أن هذه هي الحياة، حتى سيطر عليهم الغربيون وتمكنوا من بلادهم، وظلت هذه الهيمنة الغربية قائمة، وإن تغير شكلها من استعمار بالجيوش والسلاح إلى أشكال جديدة تناسب المرحلة، ولا تثير المشاغبات أو الاعتراضات والتحولات. ولهذا فإن تجربة الحل الإسلامي ضرورة لا محيد عنها، ولكننا نقول مع هذا أيضاً: إن الوصول إلى هذا المستوى هو البداية الحقيقية لوقف التدهور أولاً، ثم محاولة الترميم والإصلاح في شعب الحياة ومناحيها الكثيرة، وقد تطول عملية الإصلاح أو تقصر هنا أو هناك بحسب القدرات والمهارات وتلافي العقبات الحقيقية أو المصطنعة، ويبقى أخيراً ألا يغيب عن بالنا أن (الحركة الإسلامية يجب النظر إليها على أنها حركة اجتماعية تسعى إلى التغيير، وأنها ذات طابع خاص، نابع من طبيعة المرجعية الإسلامية التي تستند إليها، بكل ما في ذلك من دلالات على الفكر والممارسات) [١].

فالحركة الإسلامية شريحة من شرائح المجتمع الإسلامي، تعرض أفكارها وتصوراتها لحل أزمة الأمة من خلال استلهام تعاليم الإسلام، مع استشعار ضرورة وجود كثير من المبتكرات العلمية النافعة التي لا غنى عنها، وإذا كانت التجارب السابقة قد فشلت وجرّت على الأمة الخراب والدمار والتأخر والبوار. فلماذا لا يكون للتجربة الإسلامية في تحمل المسئولية نصيب، ثم يحكم عليها بمقدار ما قدمت، كما يحكم على غيرها من التجارب؟

وتجربة الحل الإسلامي نجحت أيما نجاح في الماضي في عديد من المناطق كلما

---

(١) الأنشطة العربية والحركة الإسلامية، د. حامد عبد الماجد قويسي.

اقـتـرب المسلمـون من الإسـلام، فنجـحت على يد عـماد الـدين زنكي ونورالدين محـمود، وصـلاح الدين الأيوبي، نجحت في التـصدي للصليـبيين حتـى أزالتهم، ونجحت في وقف هجوم التـتار وهزمتهم، وهي ما زالت ـ بحـمد الله ـ قادرة على التـصدي لكيـد الأعداء، ومـحاولتـهم الدائمة للهـيمنة على هذه الأمـة. ونقولـها واثقين: إن التصدي لليهود والتـغلب عليهم لن يكون إلا على يد طائفة من المسلمين ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم.

من هنا فإننا ننادي أبناء المسلمين: هلمّ ـ يا أتباع محـمد عليه الصلاة والسلام ـ إلى هذا الدين من جديد، تحققون به ذاتيتكم، وتظهرون به هُويَّتكم، وتعملون به في أوطانكم وتحتكمون إليه في شئونكم، هلـمَّ أيها المسلمون إلى العودة إلى كتاب ربكم وسنة نبيكم ترشدوا في حياتكم، وتحبطـوا كيد أعدائكم، ويحقق الله لكم العزة في بلادكم ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

---

(١) المنافقون: ٨.

المبحث الثالث عشر

العمل الإغاثي الخيري

نظرة تحليلية لواقعه الغربي والعربي

إن مفهوم الخيرية عالمي النزعة، لا تستطيع أن تحتكره أمة من الأمم، أو جماعة من الجماعات، هذا من حيث المفهوم، أما من حيث الممارسات، والصور الواقعية والتاريخية فالأمر مختلف تماماً. وهذا ما سنتعرض له من خلال ربط العمل الخيري الإغاثي بمنطلقاته ووسائله وأهدافه.

من حيث الشكل فالأعمال الخيرية واضحة المعالم، وترمي جميعها إلى تنمية الفرد والمجتمع، من أجل إنسانية أكثر رخاءً وأقل بؤساً. ويتمحور جُل العمل الإغاثي الخيري بواقعه الغربي والعربي على السواء في عدة مجالات (صحية ـ وتربوية ـ وغذائية ـ وتعليمية ـ وإغاثية. . .) تبدو متشابهة في الأداء لكنها متناقضة في المنطلقات والأهداف.

١ ـ منطلقات العمل الخيري الغربي وأهدافه:

مع النصف الأخير من القرن التاسع عشر بدأ التغلغل الغربي يبرز شيئاً فشيئاً في العالم العربي، منتحلاً أشكالاً متنوعه ومختلفة، واشتد عوده مع انتهاء الحرب العالمية الأولى التي انعكست على العالم العربي تفتيتاً وتقسيماً من خلال معاهدة سايكس بيكو، التي مزقت أوصال العالم العربي وأحالته إلى مستعمرات للغرب. وكان الاستعمار والتبشير يسيران جنباً إلى جنب في هذه المرحلة التي شهدت حركة قوية تجاه إنشاء العديد من المؤسسات الغربية، التي دخلت مختلف الميادين التربوية والتعليمية والصحية والاقتصادية، بهدف تطبيع المجتمع العربي الإسلامي بالطابع الغربي، فكان من المستحيل الفصل بين الاستعمار والتبشير وبين الأعمال والمؤسسات التي أنشأها الغرب بِحُلَّتِها الإنسانية الخيرية العاملة على رفعة المجتمع. وقد ثبت مع الممارسة وبعد مرور الفترات التاريخية أن تلك المؤسسات الإنسانية والخيرية، لم تكن إلا وسائل لمنطلقات استعمارية تبشيرية محضة. «فمن الوسائل التي اعتمدها التبشير في العالم الإسلامي: إنشاء المستوصفات وتقديم الخدمات الطبية، ومن الوسائل التبشيرية: إنشاء المدارس والمعاهد الفنية والتقنية والجامعات والمكاتب وإصدار الكتب

والنشرات. . . ومن الوسائل كـذلك إنشاء المشروعات التعاونيـة والاقتصادية والأندية الرياضية ومؤسسات الرعاية الاجتماعية»[١].

وبالفعل فقد عُنى المبشـرون، أول ما عنوا، بالتطبيب على أنه واسطة إلى غاية، «إن اليسوعيين مـثلاً قد أسسوا أكثر أعـمالهم التبشيرية في سـوريا إلى جانب مراكز التطبيب، بل إن مراكز التبشـير قد بدأت عندهم للتطبيب في أول الأمر. ومع الأيام أخذت عناية اليسوعيين بالتطبيب تقل وقيامهم بالتبشير يزيد حتى حل التبشير المحض محل التـطبيب»[٢]. فقـد اعتـمد الغـربيون على الطب اعـتماداً كـبيـراً في اقتـحام المجتمعات العربيـة ـ الإسلامية، وكانت المستشفيات تقدم المعـالجة الطبية مع التعاليم المسيحية جنباً إلى جنب، حتى اعتبر الأمـريكيون الطب مشروعاً مسيحياً، وعلى هذا قال الطبيب هارسون: «إن المبشر لا يرضى عن إنشاء مستشفى ولو بلغت منافع ذلك المستـشفى منطقـة عُمان بأسـرها، لقد وُجِدنا نحن في بلاد الـعرب لنجعل رجـالها ونساءها نصارى»[٣]، وهكذا كان العمل الطبي الخيري ذا مـنطلق استعماري تسلطي يهدف لتـثبيت خطى وقـوائم الغرب في المنطقـة العربية ـ الإسـلامية، وإضـافة إلى العديد من مناطق وسط وجنوب أفريقية وكذلك الشرق الأوسط.

أما التعليم هذه الوظيـفة الإنسانية، فلقد اسـتغلها الغرب وأساء لهـا، وحوّلها من خلال منطلقـاته وأهدافه من عمل خـيري يسعى لتطوير الملكة الـذهنية عند الناس، من أجل التطور ومواكـبة العلم وإنجازاته، إلى عمـل يهدف إلى تحويل المجتـمع نحو الفكر والمبادئ الغـربية بكل معـاني الكلمة من خـلال إعادة تشكيل عقل المسـلم وبناء سلوكه وتصرفاته بناءً على النظرة الغـربية للإنسان والحياة والكون. لذلك نجـد أن المبشرين هم الذين كانوا وراء التعليم وشـجعوا عليه في مدارسهم وأضفـوا عليه الطابع الإغاثي من الجهل، وخاصة في بداية الأمر. «ولقد استـغل المبشرون التعليم لأن للتعليم أثراً فعالاً، بل هو أقوى وسائل التبشير، وعلى هذا الأساس بدأ المبشرون بإنشاء مدارسهم»[٤].

---

(١) فتحي يكن: العالم الإسلامي والمكائد الدولية. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط٨ . ١٤١١هـ ص٦٣ .

(٢) BLISS (R) 316F : JESSEY 802 , 804 .

(٣) بول هاورسون، الطبيب في بلاد العرب، ص٢٧٧ .

(٤) مصطفى الخالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية. المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٦، ص٧٧ .

هذه هي الصورة الأولى التي حاول الغرب أن يظهر بها بتـوجهات إنسانية خيرية إغاثية، ترفع المرض والجـهل عن كاهل الناس في مجتمـعنا العربي ـ الإسلامي، إلا أنها في الحقيـقة كانت تهدف على الدوام إلى المزيد من التبعـية والانكماش في دائرة الغرب المخـالف ـ إن لم نقل المعـادي ـ للأسس الفكرية والعقـائدية والسلوكيـة التي ترعرع عليها مجتمعنا، وسار عليها السلف الصالح وهي النابعة من الإسلام.

إلا أن الظهور بالصورة الخيـرية الإغاثية التي غالباً ما تلاقي اسـتحساناً من الرأي العام الدولي والشعـبي، أخد ينحو منحى أعم وأشمل من ذي قبل، سـاعياً إلى ربط الدول والشعوب العربـية قانونياً وأدبياً بإرادات الكبار من خـلال المساعدات والقروض المالية، التي أصبـحت تشكل العبء الأكبر على صدر المواطـن والحاكم على السواء. وكان محور المسـاعدات الغربية للمنطقة هو بلا شك تأكيـدًا للوجود الإسرائيلي الذي يجد فـيه الغرب امتـداداً لقيمه وحـارساً لمطامعـه ومصالحه. وبالفـعل «فإن الولايات المتحـدة قد أثارها النظام الإسرائيلـي بديمقراطيتـه النادرة وسط مجمـوعة من الأقطار العربية الناشئة، كما أثارتها القيم السائدة في المجتمع الإسرائيلي، وخاصة قيم الإنجاز والروح الوثابة والمغامـرة الجريئة، وكلها قيم تعـيد ذكرى شباب الـولايات المتحدة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية كافة»[1].

إذًا فالمنطلق هو الوجـود الإسرائيلي والهدف هو المصالح الغـربية، ومن خلال هذه الثوابت نسـتطيع أن نفهم البـعد الاستـغلالي للمسـاعدات والقروض الـتي تأخذ طابع الإغاثة من حيث الشكل، فبينما تصل المسـاعدات الأمريكية «لإسرائيل» إلى ٣ مليارات دولار موزعة بين عسكرية واقتصادية، لا تتعـدى المساعدات الأمريكية لمصر ٢,١ مليار دولار رغم أن عدد سكان مصر يعادل ١٢ مرة سكان إسـرائيل، ولقد بيَّن مساعد وزير الخارجية الأمريكية لشؤون الشـرق الأدنى أهداف المساعدات الأمريكية لمصر والأردن في خطاب ألقاه أمام الكونجـرس بقوله: «إن ذلك سيعزز من قدرة القـوات المسلحة الأردنية على الحفاظ على الأمن على طول الحـدود، ومساعدتها على منع التسلـل أو الهجمات عبـر الحدود من قبل مناوئي عمليـة السلام»، وعن أهداف المساعـدات للسلطة الوطنية الفلسطينية فمن بينها «مساعدة وتشجيع حكومة عرفات لمنع هجمات المتطرفين الفلسطينيين

(١) RALPHH. MAGNNS. CORP DO,UMENTS ON THE MIDDLE EAST (WASHINGTON D.C)

على أهداف إسرائيلية»، أما عن مساعدات مصر يقـول بليترو: «لقد قدمت مصر دعماً ضرورياً للوجود الـعسكري الأمريكي في الشرق»، أضف إلى ذلك أن إنفـاق أكثر من ٨٥٪ من المسـاعدات الاقـتـصادية لمصـر يذهب على سلـع وخدمـات داخل الولايات المتحدة، بهدف ربطها بالاقتصاد الأمريكي الغربي وما يتوجب عليه من تبعية سياسية.

وقد اسـتعـمل الغرب عـدة وسائل مـتطورة للإيحاء بالعـمل الخيـري والإغاثي والتنمـوي لنهضة الشـعوب الفـقيـرة أو ما يسمى بـالعالم الثالـث، وكان أهم هذه الوسـائل بلا شك البنك الدولي وصندوق النقـد الدولي، اللذين أصـبحـا يغدقـان القروض علـى الدول الفقيـرة لرفع الديون المتوجـبة عليـها أو لضمـان هذه الديون ودفع فوائدها، أي التحـويل الدائم إلى الدول الدائنة «الغربية» مع الفـوائد التي تحتم على الدولة المدينة الاسـتمرار في المديـونية. وتبعـاً لتلك النتـيجة انهـار القناع الإغاثي، وظـهر الدور الحقيقي لتلك المؤسسات، الذي يتجلى في الإمساك باقتصاديات الدول وتحويلها إلى اقتصاد السوق، ودمجها في السوق الرأسمالي العالمي الذي تسيطر عليه الدول الغربية، مما يترتب عليه تكوين قيم جديدة اقتصادية وثقافية وحياتية تخدم المشروع الغربي وتسوق له.

إن كل المحاولات الجديدة لمـساعدة حقيـقية غربيـة للدول والشعوب الفقـيرة قد باءت بالفشل نتـيجة الشُّح الغـربي، وعدم الرغبـة في رفع سيف الجوع والفـقر عن رقاب أبناء العـالم الثالث. وعلى سبـيل المثال نذكر فـشل مؤتمر بروكسل في فـبراير ١٩٩٥م، الذي جمع وزراء دول الاتحـاد الأوروبي و ٧٠ دولة من أفريقـيا والكاريبي والهادئ لمناقشـة زيادة مساعدات الدول الأوربيبة للدول النامـية، بسبب طلب بعض الدول الغربية تخفـيض حصصهم في صندوق المساعدات، كذلك فشل «قـمة التنمية الاجتمـاعية» التي عقدت في كـوبنهاجن في مارس ١٩٩٥م في المهمتين الأسـاسيتين وهما إلغاء الديون الخارجية لبلدان العالم الثالث، وزيادة مساعدات التنمية.

إذًا فالمسيرة التاريخية للعمل الإغاثي الخيري الغربي غالباً ما انطلقت من مكاسب مادية سياسية اقتصادية، وهدفت إلى ربط شديد لدول العالم المعُوْزةَ بالمنظومة الغربية ثقافة وفكراً وزيادة، من أجل مزيد من السيطرة الغربية، والتبعية من جهة الدول الأخرى.

٢ ـ منطلقات العمل الإغاثي العربي وأهدافه:

عند التحدث عن العـمل الإغاثي الخيري العربي لابد من التـحدث عن الإسلام،

ولابد من التعاطي مع مفهوم الأمة العربية كأمة مسلمة تطبعت بتعاليم الإسلام وتفاعلت معها، ولاتزال تستظل بظلالها الوارفة، ومهما طال الجفاء بين الأمة وتلك التعاليم إلا أن رسوخها في الجذور يدفعها إلى السطح مع كل حدث أو أمر يستدعي ذلك، ومفهوم الخيرية مفهوم أصيل في عمق الأمة العربية ارتبطت به عقدياً، لما تكرر في كلام الله سبحانه وتعالى واصفاً به هذه الأمة أو حاضاً إياها عليه. قال تعالى **﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾**[1] **﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**[2]. فكان المنطلق منطلقاً إيمانياً مرتبطاً برضى الله سبحانه وتعالى منفذاً لأوامره، ولم يبق مجرد شعور إنساني وأخلاقي مرهف، بل جسده الإسلام إلى عمل جدي من خلال ربطه بالعمل. والفعل الذي تحدثت عنه آيات كثيرة من كتاب الله العزيز قال تعالى: **﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾**[3] **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾**[4]**﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾** [5] **﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾** [6].

فالعمل الخيري الإغاثي انطلق أولاً من منطلقات إيمانية تهدف إلى رضى الله، وتعمل على تحقيق الرفعة لأبناء هذه الأمة عن طريق مساعدة الضعيف وإغاثة الفقير، لكي يصلح حال هذه الأمة وتقوى على حمل الرسالة، «وقد وضع الإسلام وحدة الأمة هدفاً له، وهيأ من التوجيهات والتشريعات ما يكفل التعاون بين أبناء الأمة الإسلامية مؤكداً على التعاون والتكافل»[7].

من هنا نجد ـ بعد المرحلة الاستعمارية التي جثمت على صدر هذه الأمة، ومع نيل دولها الاستقلال ـ حركة الإغاثة والأعمال الخيرية داخل كل قطر لمصلحة باقي الأقطار حيث يتواجد الإخوة في الدين، لذلك لم تتخذ هذه الأعمال الصفة التبشيرية لأنها موجهة فى معظمها لأبناء الدين عينه. واتجهت هذه الأعمال في معظم الاتجاهات الضرورية للمساهمة في الوصول إلى الحد المعقول، والحياة الكريمة التي يريدها الإسلام للناس، وكان أبرزها المنح الطبية والمنح التعليمية وكذلك المساعدات العينية والمادية،

(١) آل عمران: ١١٠. (٢) آل عمران: ١٠٤. (٣) الزلزلة: ٧.
(٤) الجاثية: ١٥. (٥) البقرة: ٢١٥. (٦) البقرة: ١٩٧.
(٧) أكرم ضياء العمري: قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي. كتاب الأمة، العدد (٣٩)، وزارة الأوقاف والشئون الدينية، قطر، جـ١، ص: ١٣١ .

أضف إلى ذلك رعاية الشؤون الاجتماعية فـيما يتعلق بالأرامل والأيتام، هذا فضلاً عن المشاريع ذات النفع العـام مثل حفر الآبار للشـرب والري والمساهمة في كل احتـياجات الأفراد والجماعات. وقد انبرى لذلك مجـموعات هامة من أهل الخير وتأطر هذا العمل ضمن مؤسسات ترعى شئون الفقراء والمحتاجين في شتى بقاع الأرض، والرابط الوحيد هو الدين والإنسانية الجامعـة، عملاً بقوله تعالى: ﴿**لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**﴾ [(١)] . ذلك أن الإنفاق فـي سبيل الله قـربة إلى رضوان الله، وهو ما يسعى إليه كل مسلم لتـحسين رصيده في الآخرة التي تشكل يقيناً تاماً عند أبناء الأمة. قال تعالى ﴿**وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ**﴾[(٢)].

إنه العمل الإغاثي الخيري الذي لا يمكن أن يعـرف الاستغلال ولا حتى المنّ، وإلا خرج عن ذلك الإطار وعافه الإسلام بناءً لما جاء في القرآن الكريم عن كيفية الإنفاق في سبيل الله ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى**﴾[(٣)] . إنه الأمر الذي يتسـابق ويجب أن يتسابق إليه المسلمـون، ويصدق ذلك فيهم كلمـا اقتربوا أكثر من دينهم وتعاليمه، حيث شهد الجيل الأول من الصحابة الكرام ـ والصالحين على منوالهم ـ منافسة في عـمل الخير والإنفاق في سبـيل الله، وكان يحسد بعضـهم بعضاً على ذلك حتى قال فيهم رسول الله ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلـطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه اللـه الحكمة فهـو يقضي بـها ويعلمـها**»[(٤)]. إذاً نستطيع القول بأن العمل الإغاثي الخيري ما بين الغرب والعرب مختلف تماماً، من حيث المنطلقات أو من حـيث الأهداف، فالأول منطلقاته وأهدافـه مادية ومصلحيـة تسلطية، تهدف إلى مزيد من تبعـية الدول والشعوب الفقيرة لإرادته ونمطه. بينـما الثاني منطلقاته هي الإيمان بالله وهدفه الـفوز بالجنة في الآخرة، إذاً فـعمل الخير عـنده لا ينقطع حتى يلقى وجه الـله. وقد بين لنا رسول اللـه ﷺ ذلك في قوله: «**من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنـيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القـيامة، ومن يسّر على مـعسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة. ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه**»[(٥)] . ولاشك في أن الدعوة والاستمرار في العمل

(١) النساء: ١١٤. (٢) البقرة: ٢٧٢. (٣) البقرة: ٢٦٢.
(٤) أخرجه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٦). (٥) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

الخيري وتوسعته سوف يحقق، فضلاً عن الأهداف الإنسـانية، أهدافاً اقتصادية وسياسية تتجلى في إفشاء المحبة بين الناس وانتشالـهم من مستنقع الجوع والجهل، وإشاعة الألفة والتقارب نحو وحدة حقيقية بين الشعوب العربية ـ والإسلامية.

ولكن يبقى أن نشيـر إلى أن الكثير من تلك الأعمال الخيرية الإغـاثية تقوم على كاهل الجمـعيات ـ الأهلية ولا تـتبناها الجهات الرسـمية مما يبقـيها محـصورة ضمن إمكانات محددة ومجالات مُـعَيَّنة، لذلك أرى من الأهمية الضرورية بمكان أن تدخل الجهـات الرسمية هذا المعـترك لمزيد من العطاء تأكيـداً للطابع الإنساني الخيـري لهذه الأمة، ومـصداقاً لقـوله تعالى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (١).

ولما كان للعمل الخيري العربي نتائج إيجابية في العديد من الأماكن والمراحل الزمنية كان لابد لليـد السوداء أن تمتد لتَحُـدَّ من انتشاره وتوسيـعه، فكان التضييـق والحصار، لدرجة أصبح العمل في ظلها لا يطاق، وأبرز أشكال التضييق كانت التالية:

أ ـ منع الوسائل الإعلامية العامة والخاصة من دعم العمل الخيري التطوعي غير الرسمي.

ب ـ شن حملات إعلامية مضادة للجمعيات الخيرية تحت غطاء أنها ذات أهداف سياسية.

جـ ـ تدخل بعض الدول الخارجية للضغط على الحـكومات المحلية لشل عمليات دعم هذه الجمعيات.

د ـ تجمـيد أرصدة الجـمعيـات في معظم العواصم الأجنبـية، ومنعهـا من إقامة حـملات تبرعات.

إن هذه السياسـة المتبعة والهادفـة إلى تجفيف ينابيع المساعـدات والتكافل الخيري القائم بين أبناء المجتمع العربي الإسلامي ـ ورغم ضغطها الهائل ومخاطرها المتوقعة ـ تصطدم بطبيعـة البنية الاجتماعـية التي يقوم عليها مـجتمعنا تاريخاً وفكراً وعـقيدةً، لذلك كان من الضروري لمواجهـة حملات التشكيك والتضيـيق أن نعمل على إحياء

---

(١) آل عمران: ١٠٤.

العلاقات التكافلية في المجتمع، وحض الأفراد والجـماعات عليها من خلال بث المعاني السامية للعـمل الخيري وماله من نفاذ في الدنيا والآخـرة، وتلك هي الروح العالية التي سادت في سلفنا الصالح، فكان لـهم ما كان من مجد ورفعـة، قال رجل: كنت أمشي مع سفيان بن عيينة إذ أتاه سائل فلم يكن معـه ما يعطيه، فبكى. فقلت: يا أبا محمد، ما الذي أبكاك؟ قال: أي مصيبة أعظم من أن يأمل فيك رجل خيراً فلا يصيبه؟

انطلاقاً من هذا النموذج نستطيع القول بأن هناك فرصـاً لامتصاص تلك الهجمة على العمل الخيري ويمكن تحديدها في النقاط الآتية:

أ ـ التفاعل مع طبيعـة الشعوب العربية - الإسلامية المحبـة لعمل الخير والبذل، التي تعتـبره مرتبطاً بكمال إسـلامها وإيمانهـا. هذه الطبيعة هي التي دفـعت المحسن الكبير الكويتي/ حـمد الخالد ـ في فترة الأزمـة الاقتصادية ـ أن يتصـدى لنكبة أسرة غرقت سفينتهـا ومصدر رزقها، «فقام بنفسه وجاهه ونسـبه يدور على الأسواق ومعه ورقة الاكتتاب ويحث الناس بقوله: اكتتبوا ولله عليّ عهد أن أضع مثل كلكم»[١].

ب ـ عدم التصـادم مع الحكومات، وتبيان أن حقيـقة وطبيعة عـملنا هو خيري إيماني غير مرتبط بالسياسة كـما تريد الدوائر الغربية أن تصوره لتخلق الخلاف والنزاع بين الحكومات والجمعيات الخيرية.

جـ ـ الاستمرارية في واجب العمل الخيري الإنساني مهما كانت الظروف ومهما تقلصت الإمكانات؛ لأنه أمر شرعي «**فخير الناس أنفعهم للناس**»[٢]، «**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله**»[٣].

د ـ العـمل على إيجاد هيكل إداري وتـنظيمي واضح يسـيّر عـمل الجـمعيـات الخيرية، وكذلك مدّها بالعناصر والطاقات المؤهلة والمدربة على هذا العمل.

هـ ـ السعي الدؤوب للتنسـيق بين الجمعيات الخـيرية والابتعاد عن المنافسـة غير المقبولة، والتي قد تصل إلى حـد التشهير والهجوم المتبادل وهـذا ما يضعف الجميع،

---

(١) مجلة كويت الخير، العدد السادس. (٢) الحديث في مسند الشهاب (١٢٣٤) من حديث جابررضي الله عنها.
(٣) رواه البخاري (٥٣٥٣)، ومسلم (٢٩٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويضعف بدوره المردود الخيري للعمل.

إنها معالم أساسية لمستقبل العــمل الضروري والهام على مستوى أمتنا الإسلامية التي لا تزال تحتاج للكثير من الدعم والاستنهــاض والعمران للخروج من دائرة الفقر والعوز والتخلف.

المبحث الرابع عشر

الإطار الذي يعصم الحضارة من الانهيار

الخط الصاعـد في انتفاع الإنســان منذ هبوطه من الجنة بما ســخره الله له مما في السموات والأرض، ومـحاولة تغييـر واقعه المعيش بـاستغلال الموجودات المـتاحة له بحـسب قدرته الفكرية والمعنـوية، وقدرته المادية الحـسيـة، والانطلاق في هذا الخط الصاعد هـو ما يعنيه كثـير من الناس من كلمة (الحضـارة) التي تدور بها الألسنة في كثير من المحافل، وتكتبها الأقلام في كثير من السجلات.

ويستوي عند هؤلاء أن يكون المرجع الفكـري لهذه الحضارة مستمـداً من مصادر أرضية وراءها الـعقل المفكر، المستخلص للتـجارب من الواقع الذي تمارسه الجـماعة وترتضي أعرافه وتقـاليده وعاداته، أو يكون مستـمداً من مصادر سمـاوية جاءت بها الرسالات وبعث بها الأنبياء والمرسلون، فهي تجتهـد في أن ترد واقعها إلى شريعتها، وأن تبني وتعمر وتنتج وتصنع في ضوء القـيم والآداب التي قررتها الشريعة، دون أن تفرض واقعها على شريعتها أو إن شئت فقل: دون أن تفرض الماديات على المعنويات وتطوع هذه المعنويات وتخضعها للماديات وسط سحابة كثيفة من المبررات.

وهذا هو الخط الفاصل بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى قديماً وحديثاً على السواء.

إن مفهوم الحضارة في الإسلام يعني الحضور والشهادة التي ينتج عنها نموذج إنساني يستبطن قيم التوحيد والربـوبية، وينطلق منها كبعد غيبي يتـعلق بوحدانية الله خالق هذا الكون، ومن ثم فإن دور الإنسان ورسالته هي تحقيق الخلافة عن خالق الـكون، في تعمير أرضه وتحسينها وتزجية معاش الناس فيها، وتحـقيق تمام التمكين عليها والانتفاع بخيراتها وحـسن التعامل مع المسخرات في الكون، وبناء علاقة سلام معها، وكذلك إقامة علاقة مع بني الإنسان في كل مكان، أساسها الأخوة والألفة وحب الخير والدعوة إلى سعادة الدنيا والآخرة.

والحضـارات الأخرى القديمة مـثل الفرعونيـة والآشورية والبابليـة والحضارة اليـمنية والصينية والفارسية، واليونانية والرومانيـة وكذلك الحضارة الأوروبية الحديثة، كلها حققت أو تحقق حضوراً في الكون، قد يكون قوياً ظاهراً يبقى عقوداً أو قروناً، وقد لا يكون بمثل

هذه القوة، فلا يبقى إلا قليلاً. ولكنها كلها إنما كانت تستمد من واقعها أو واقع غيرها هذا الحضور الكوني المتمثل في التقدم المادي، وأحياناً الثقافي الذي تشوبه لوثات العقل وضلالات الفكر، بحيث يرتضي العقل الحضاري أن يُلقي بإنسان وسط ساحة الذئاب والوحوش ليصارعها والناس يشاهدون ويصفقون ويضحكون، أو يرتضي أن يسبغ على فئة من الناس هالة من القداسة، بحيث تستبيح لنفسها ما لا يباح لغيرها، لأنهم أصحاب دماء زرقاء، يوهمون الناس أن من التشريف لهم أن تختلط بدمائهم وإن لوثوا أعراضهم، أو يرتضي أن تصدر القوانين التي تنظم الأسرة على أنها لقاء شخصين، وأن تقرر ذلك القوانين ويرتضي كثير من الناس ذلك في غير بلاد المسلمين، ويرتضي أن يحتفل بالشاذين والشاذات في أماكن عامة تقام خصيصاً لهذا الغرض، ويغازل هؤلاء الشاذين الرؤساءُ وأصحابُ السلطان طمعاً في صوت انتخابي وتداس الفضيلة، وتنتشر الرذيلة، وتعم الجريمة ويمسي الناس وهم لا يأمنون على أنفسهم ولا على أبنائهم ولا على أموالهم.

إن الحضارات غير الإسلامية حين استمدت قيمها من الواقع وحده، وأقامت بنيانها على الجانب الماديّ وحده، وأغفلت كل ما وراء عالم الشهادة والحواس ضلَّت وأضلت، وطغت وتجبرت في الأرض، وتكبرت بغير الحق، (والحضارة الحديثة جرت فلسفتها وعلومها وأخلاقها واقتصادها واجتماعها وسياستها من نقطة انطلاق منحرفة وبقيت ترتقي في وجهة غير صحيحة. إنهم انطلقوا من نقطة الإلحاد والمادية، واتخذوا العلوم التجريبية (science) آلة لتدمير الإنسان، وصبت الأخلاق في قوالب الأثرة والرياء والخلاعة والمجون، وسلطت على الاقتصاد شياطين الاستبداد والظلم والحرمان، ونفذت في نواحي الاجتماع كلها سموم الأثرة وحب الترف، وأفسدت السياسة بمفاسد القومية الضيقة والوطنية ومفارقات اللون والجنس)[١].

وهذه كلها علامات وأمارات على طريق الهلاك الذي قبرت في نهايته الحضارات القديمة، وهو مآل الحضارة الحديثة التي يظن أصحابها أن الهلاك عنهم بعيد، وما هو ببعيد. ﴿**إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا**﴾[٢]، ولكنهم لا يشعرون ﴿**أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[٣] (وإذا كان الأوروبي استقى أفكاره ونظرياته ونظمه من واقعه فحسب فإن

(١) نحن والحضارة الغربية: المودودي بتصرف ص ٣٩، ٤٠.
(٢) المعارج: ٦، ٧. (٣) محمد: ٢٤.

المجتمع المسلم على عكس ذلك يحاول دائماً (أقلمة) واقعه وتكييفه طبقاً لتصوره العَقَدِي النابع من شريعته الموحى بها من الله)[١].

وهذه الشريعة الحاكمة هي العاصم من الانحرافات التي وقعت فيها حضارات الآخرين بغير استثناء، ونحن اليوم وغداً أحوج ما نكون إلى السير في طريق الابتكار والاختراع واقتحام علوم الآخرين، ومواكبة العصر حتى تكون لنا راية بين رايات العصر، بحيث تعبر عن هويتنا الإسلامية المستظلة بالكتاب والسنة.

ومما يؤسف له أننا قد فرطنا كثيراً في حق الدنيا وفرطنا كثيراً في حق الدين، وحريّ بنا أن نعود إلى الاستمساك بعلوم الدنيا تحت مرجعية الدين الإسلامي لتقف الأمة المسلمة على قدمين وتطير بجناحين فتحمي أبناءها من الهلاك ومن التأخر والجمود، وتسير بهم نحو النافع المفيد في الدنيا والآخرة.

(١) حصاد الفكر، العدد: ٣٣، وانظر بتفصيل أكثر كتاب« الحضارة ـ الثقافة ـ المدنية ـ دراسة لسيرة المصطلح ودلالته».

المبحث الخامس عشر

الأمة التي تريد أن تنتصر

تود أمة الإسلام أن تحقق لها مكانا بارزا على محور الدول ذات الكيان الحي، التي بيدها مقاليد الأمور وتصريف الأحوال، يدفع أمة الإسلام لذلك السباق وتحقيق السبق فيه على غيرها من الأمم دينها، الذي أوجب عليها العمل الصالح في مجال الدنيا والآخرة، لتتمكن في الأرض فتستطيع أن تقوم بكل تعاليم الدين وشعائره **﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾** [(١)]. وأساس التمكن يكون بإرساء قواعد الحق والعدل، التي أمر الله بها أن تكون، دون تدخل لأهواء عنصرية أو نزعات عرقية، أو تحزبات مذهبية، أو تناحرات طائفية، أو غير ذلك من كل ما يغير ميزان العدل أو ينحرف عن طريق الحق **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ. .﴾** [(٢)]، **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾**[(٣)] . ولا تقوم هذه القواعد إلا إذا تحققت أمور ثلاثة:

١ـ النية الحسنة أو قل نية الإصلاح التي يبتغى بها وجه الله سبحانه، بحيث تكون هذه النية هي المحرك والدافع إلى العمل، توقظ الهمة إن فترت، وتشعلها إن خمدت، فلا يدخر صاحبها جهدا، ولا يبالي ما قد يلحقه من أذى أو مشقة في سبيل تحقيق ما يريد، لأنه يطلب بإصلاحه لأمته مرضاة الله، ولذا يبذل أقصى ما يستطيع من جهد أو وقت أو مال، ليصلح ما فسد، ويعدل ما اعوج، ويقيم ما انحرف، ولا يتأتى ذلك إلا لرجل تعمق في قلبه الإيمان فأصلح به نفسه، ويصلح به غيره فيصدق عليه قول الله: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾** [(٤)] ، وقوله سبحانه: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**[(٥)]

٢ـ اتخاذ الوسائل اللازمة للإصلاح ومحاولة الوصول إليها بكل طريق ممكن، ووسائل الإصلاح مادية ومعنوية على السواء، وكلتاهما لا غنى عنها لتنهض الأمة

(١) الحج: ٤١ . (٢) النحل: ٩٠ . (٣) النساء: ٥٨ .
(٤) الرعد: ١١ . (٥) الأنفال: ٥٣ .

المسلمة وفي يمينها تعـاليم الإسلام وقيمه، وفي يسارها كل مـا أفرز العصر وأبرز من تقنيات مادية مصنوعة بيد أبنائها غـير مجلوبة من غيرهم، وفي هذا فتح لباب العلم على مصراعـيه وبذل الأموال في سبيل إيجاد مـبتكراته على أرض الإسلام. . وليس في هذا المطلب إعجاز أو تعجيز فـمن أراد العلم وسعى إليه بوسائله المتاحة ـ الآن ـ عند المسلمين حقق منه مـا أراد، أو اقترب من تحـقيقه على الأقل، والأقـدمون من المسلمين حين سـعوا سعـيهم نحـو العلم حققـوا منه ما كـان سائدا في عـصرهم، وأضافوا إليـه كثيرا مما انتفع به غيـرهم وبنى عليه نهضته المعـاصرة، فلا أقل من أن نفعل كما فعلوا ونبني كما بنوا.

٣ـ إيجاد هيـئة شعبيـة من ذوي الاختصاصـات المختلفة ترعى ـ بين الناس ـ مـسيرة الإصلاح والبناء، ولا يعنينا في شيء تحديد اسم لها ما دامت تقوم بمهـمتها فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتشير بفعل الخير حيث تراه.

وهذه الأمور التي بيناها أمور معروفة عند أصحـاب النهضات وصانعي الانتصارات أخذ بها الحصيفون من الأقدمين فحقـقوا نهضة استطاعت أن تكسر قيود أعدائهم، ولن نضرب لك مثـلا من عهد الخلفاء الراشدين ولا من عهـد الأقوياء في الدولتين الأموية والعبـاسية، وإنما أنتـقل معك إلى القرن السـادس الهجري مع المـلك العادل نور الدين محمود الذي أخذ بهذه الأمور ما استطاع فحقق لنفسه مجدا، ولأمته عزا.

وإليك هذا الخبـر الذي سجله ابن الأثير حـيث قال: (وكان ـ رحمـه الله ـ لا يفعل فعلا إلا بنية حسنة، كان بالجزيرة رجل من الصـالحين كثير العبادة والورع، شديد الانقطاع عن الناس، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله، ويرجع إلـى قوله ويعتقد فيه اعـتقادا حسنا، فبلغـه أن نور الدين يدمن اللعب بالكرة، فكتب إليـه يقول: ما كنت أظنك تـلهو وتلعب وتعذب الخـيل لغير فائدة دينيـة، فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول: والله مـا يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، وإنما نحن في ثغر، العدو قريب منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب، ولا يمكننا أيضا ملازمة الجهـاد ليلا ونهارا شتاء وصيفا، إذ لا بد من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها أيضا بسرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب، فهذا والله الذي بعثني على اللعب بالكرة)[١].

(١) انظر: مختصر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: للدكتور محمد بن حسن بن عقيل موسى .

لقد أخذ نور الـدين نفسه بالأمور التي ذكـرنا فاستطاع أن يحقق النصـر لأمته، ومهد السبـيل لصلاح الدين ليحقق النصر الأكبر على الصليـبيين فيزيل خطرهم عن بلاد المسلمين.

ولقد عاد الخطر من جديد في ثياب الصهاينة ووجب على كل قادر ـ في موقعه ـ أن يعمل على زوال الخطر عن بلاد المسلمين.

المبحث السادس عشر

بداية السقوط

«**إذا وُسِّدَ**[١] **الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»[٢]. . فتوسيد الأمر لغير أهله إيذان بخراب العمران، وإهمال لمرافق البلاد، وانشغال عن تربية الرجال، وإيثار للمصلحة الذاتية أو الطائفية أو القومية العنصرية وإغفال للصالح العام، وغض للنظر عن المنكرات، وإظهار بعض الليونة في مقاومة الموبقات، وشدة في مواضع اللين، ولين في موضع الشدة، وتهاون وتخاذل أمام اليهود والأعداء، وغلظة وقسوة أمام المسلمين.

توسيد الأمر إلى غير أهله يؤدي إلى فوضى في الاقتصاد فيؤخر ما حقه التقديم، ويقدم ما حقه التأخير، ويرتبط التقديم أو التأخير بمصلحة القائمين على الأمر، الآخذين من السلطة بنصيب، ويبعد عن دائرة القرار والتأثير كل ذي رأي سديد وعمل رشيد، فلا يتقدم غير أصحاب الأهواء، الذين يملكون لسانا طويلا، وقلما سيالا، وقلبا منافقا، لا يعرف حقا ولا ينكر باطلاً.

توسيد الأمر إلى غير أهله يؤدي إلى خلل اجتماعي، فلا يسمح لمؤسسة تعمل وهي تخالف الاستبداد، وتنادي بحرية العباد، ولا يسمح لشخص يعلو إن لم يذل نفسه، ويرغم أنفه لصاحب الهيلمان، ويدفع أصحاب الآراء الحرة والكرامة الإنسانية إلى الانعزال بعيدا عن المجتمع الذي انقلب حاله وانفلت معياره، ولم يقر قراره، فلا يتقدم الركب غير العمي الذين لا يبصرون، والبكم الذين لا ينطقون والصم الذين لا يسمعون.

وهل في هذا الجو يزداد إنتاج أو يزدهر اقتصاد، أو تقوى أمة، أو تعلو دولة؟ وهل في هذا الجو يتم الحفاظ على موروثات ومكتسبات؟ وهل في هذا الجو ترهب الدولة أعداءها أو تحفظ أمة حدودها؟ وتاريخنا مليء بتوسيد الأمر إلى غير أهله في نواح عديدة من أهمها وأولاها بالدراسة ما نطلق عليه الولاية العامة، لما تتمتع به من قدرة في تصريف الحياة، بحيث لا تترك مجالا إلا ولها فيه تأثير، وفي تاريخ الدولة

---

(١) وُسِّدَ الأمر إلى فلان: أي أسنده إليه، المعجم الوسيط (وسد).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩).

الأموية والعباسية وفي تاريخ العثمانيين أمـثلة عديدة لتوسيد الأمر إلى غير أهله، إما بتولية صغار لم يبلغوا الحلم وإما بتحكم نساء القصور في الأولياء أو الأوصياء، وإما بقلة الكفـاءة مع إقـامة حـاجـز من بطانة الأشـرار بين الولاة وبين الأخـيار، وإمـا بالاستبداد وترك المشـورة، وإما باللهو والغفلة، ومجالس الأنس والمتـعة، والانشغال عن تدبير شأن الرعية وتجديد الثغـور، وتقوية الحصون، وتدريب الجنود، وقد كانت عجلة الدولة أو الأمة تسير بقوة الدفع التي يعـمل العلماء على استمرارها، والخيرون من الرجال والحكام على إبرازها، ودفع العوائق عن طريقهـا، ولكن سرعان ما تعود الأمور إلى مـا كانت عليـه إلى أن يأذن الله بمجدد للإسـلام يحيي دولتـه، ويسعف أمته، وقد يكون هذا المجدد من بين الحكام أو قد يكون من بين الدعاة والعلماء.

والأدلة على ما نقـول كثـيرة، نذكر منهـا: أن نور الدين محـمود الذي له باع طويل في جمع صفوف المسلمين ومجاهدة الصليـبيين حين قضى نحبه، ووري قبره، جلس ابنه الصالح إسماعيل في الملك وخلفه، أتدري كم كان عمر الصالح إسماعيل حينئذ؟ كان صـبيا لما يبلغ الحلم، وماذا حدث بعد ذلك؟ يقـول الإمام أبو شامة: لما مات نور الدين اجتمع أمراء دولته، واتفـقوا على أن يكونوا في خدمة الملك الصالح ابن نور الدين وكان يومئـذ صبيا، وأجمعـوا على منابذة الملك الناصر (صلاح الدين الأيوبي) وقبض أصحـابه الذين بالشام، ومصالحة الإفـرنج على يد ابن المقدم شمس الدين مقدم العسـاكر، وتم ذلك واستقر[١]. ففيم إذن كانت جهود نور الدين التي شغلت دولا، واستمرت على الدهر زمنا؟ ولكن..ماذا تنتظر بعد أن وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله وأحـاطت بطانة السوء بابنه؟ وتاريخنا الإسلامي مليء بأمـثال هذا النموذج وأضرابه من الذين يسيئون ولا يحسنون، ويفـسدون ولا يصلحون، مما يستدعي وقفة من الغيورين المصلحين من عقلاء الأمة حكـاما كانوا أم محكومين؛ ليصلحوا الخلل، ويعملوا على إصلاح ما فسد، وكل قادر في مؤسسة من المؤسسات أو هيئة أو دولة، عليه واجب كبـير في هذا الإصلاح بالتوجيه والإرشـاد، أو بسن القوانين التي تحمي من الانحراف، أو بحـسن تربية الأبناء، أو بنشر روح العدل والإنصـاف، أو بالأخذ

(١) انظر : مختصر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: للدكتور محمد بن حسن بن عقيل موسى .

بالشورى من المخلصين الأوفياء، الذين يخافون يوم الحساب.

إن الأمر اليوم لا يوسد لغير أهله بتولية الصغار، ولكنه يوسد لغير أهله حين يولى في المناصب غير الأكفاء من حيث الخبرة أو من حيث المعرفة أو من حيث الألمعية والذكاء، أو من حيث الاستبداد والكبرياء، أو من حيث... إلخ.

وأبناء الصحوة الإسلامية قبل غيرهم أحق الناس بتطبيق هذا المبدأ في مؤسساتهم وأعمالهم، ليكونوا للناس قدوة، وفي الخير أمة، فيجنبوا أنفسهم وغيرهم عثرات السقوط، ويرتفعوا بأمتهم إلى أن تضع كل إنسان في موضعه، الذي يحسن فيه.

﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١)

(١) البقرة: ١٩٥.

المبحث السابع عشر
في رحاب القدس
اللواء المرفوع بالسلام الموضوع

إن المؤسسات الشرعـية القائمة الآن في المجتمعـات الإسلامية لا تؤدي دورها الكامل على النحو المطلوب؛ إذ يتطرق القـصور لبعض أدائها لأسباب عـديدة، يمكن السيطرة على بعضها وعلاجـها من قِبل المؤسسة وقد لا يمكن السيطرة على بعضـها الآخر؛ لأنها خارج نطاق المؤسسة، إذ تتعلق بغيرها من المؤسسات ويتوقف تنفيذها على عديد من الجهات.

ولا لوم ولا تثريب على المؤسسة الشرعية فـيما يتعلق بالمعوقات التي تقع خارج سيطرتها، وإنما التثريب واللوم في المعـوقات التي تنبع من داخلها إذ ينبغي أن تسارع إلي إزالتها ليظهر دورها وعـملها أمام الناس، فلا يوجهون إليهـا سهام الاتهام، ولا يسلقونها بألسنة حداد.

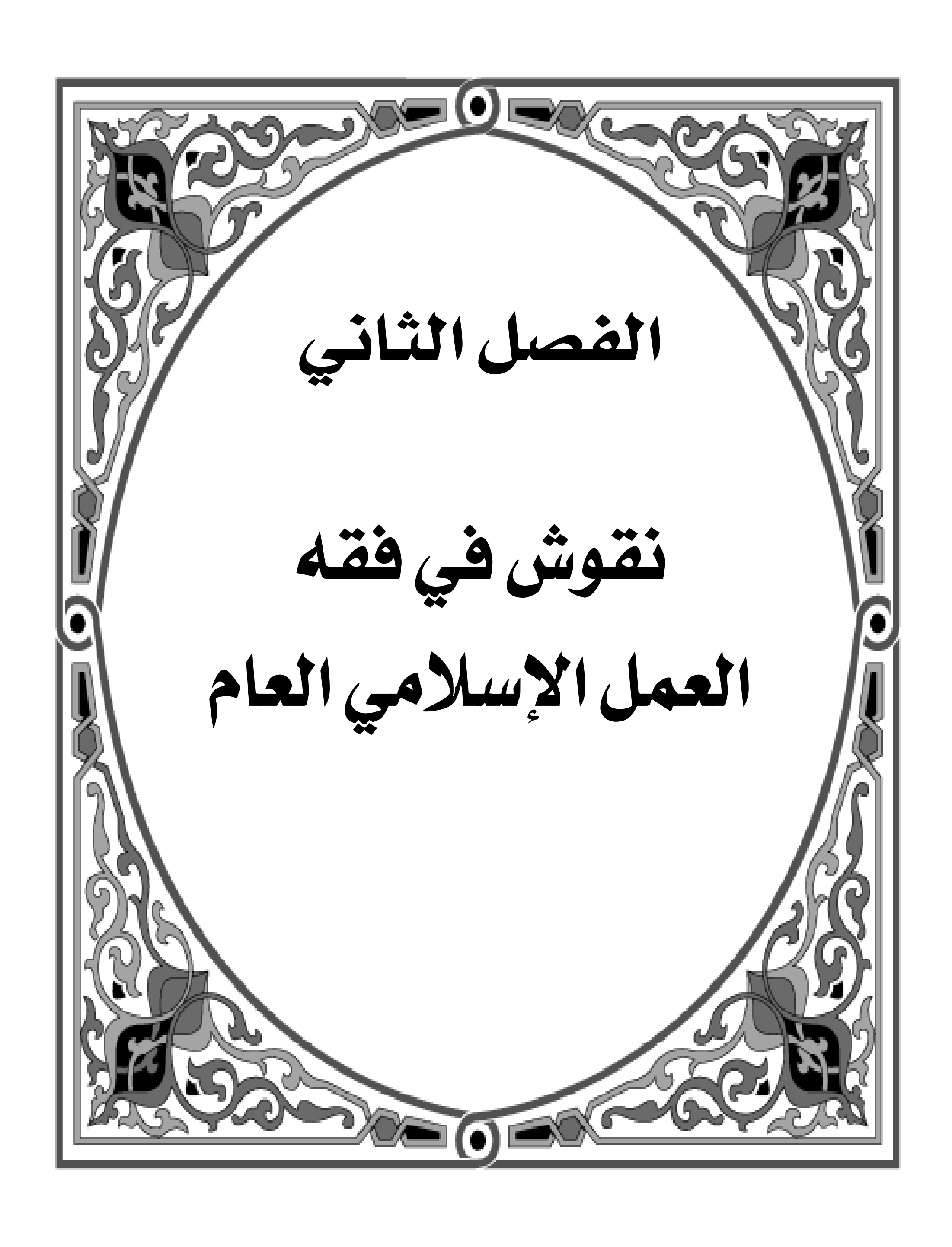
ومن أهم الأعمال التي ينبـغي أن تقوم بها هذه المؤسسات التـأصيل الشرعي لما يحتاج إليـه المجتمع المسلم في شئـون حياته ودنياه، ونشر هذا الـتأصيل بين الناس، بحيث لا يخفى على كل ذي لب ورأي وجـهة النظر الشرعية البعـيدة عن الخلاف، المستندة إلى النصوص المأخـوذة من كتاب الله وسنة رسولهﷺ، غيـر المتأثرة بهوى فرد من الأفراد أو فئة من الفئات، أو طائفـة من الطوائف، وفي ضوئها، تتم مراقبة الأحداث الجـارية المتصلة بالـنواحي الاجتمـاعيـة أو الاقتـصادية أو غيـرها مما يمس المجتمع، ويؤثر في حركة الناس فيـه، فالانعزال عن أي حدث داخل المجتمع المسلم والامـتناع عن إبداء الرأي الشرعي ينتـج عنه أوخم العواقب على المدى القـصيـر أو الطويل، ولا نود في حديثنا هذا أن نطنب ونطيل في أثر غيـاب الرؤية الشرعية على الأحداث المستجدة بين الناس، لأن الناس يلمسون هذه الآثار ويعرفونها ، ويكفينا أن نؤكد أن غـياب الرؤية الشرعـية عن عامة النـاس يضر بالمؤسسات الشـرعية القـائمة والعاملـة بل ويضر الأمة كلهـا، وقد يُحـدث فيهـا جروحـاً وندوباً يطول علاجـها ويصعب برؤها، وهذا يجعل جهد القائمين على أي مؤسـسة شرعية يتضاعف مرات ومرات، منذ وضع أول لبنة في بنائهـا إلى أن تقف على قدميها وتعـمل على تحقيق أهدافها وأداء رسالتها، وتلك سنة الأنبياء في دعـوتهم لأقوامهم وبناء مجتمعاتهم لم

يدخروا وسعاً، ولم يألوا جهداً في سبيل أن ينشروا دين الله في الأرض، ومن بعد الأنبياء وعلى منهجهم سار المصلحون يحاولون ـ بقدر استطاعتهم ـ أن يقدموا ما في استطاعتهم من جهد، ليحولوا بين الناس وبين الشَّر، وليفتحوا منافذ للخير والهدى والرشاد.

والمصلحون في عصرنا يسيرون كذلك على نهج السابقين، وقد يواجهون عوائق أكثر، ويبذلون جهداً أكبر ممن سبقهم نظراً لظروف العصر وتطور آلياته وكثرة مستجداته، التي لا تتيح لأحد من العاملين، الذين يحملون هموم الأمة أن يلتقط أنفاسه، أو يتباطأ في حركته الدعوية وقد يكون جهد بعض الأفراد عظيماً، ولكن هذا الجهد لا تبلوره المؤسسة الشرعية التي ينتمي إليها هذا الداعية أو غيره، فتضيع جهود الأفراد نظراً لضعف المؤسسات وعدم نهضتها بتبعاتها كاملة.

والمواقف المختلفة للدعاة والعاملين تجاه عديد من قضايا الأمة الإسلامية وفي مقدمتها أزمة الخليج وقضية فلسطين والقدس، والحرب الأفغانية، وكثير من البؤر المتأزمة فوق خريطة الأمة الإسلامية، كل ذلك يكشف عن ضعف المؤسسات الشرعية، والحاجة إلى تجديد دورها في الأمة، بحيث يصبح لقراراتها التي تتخذها قوةٌ في النفوس وأثرٌ في القلوب، واحترامٌ بين عامة الناس.

وهذا يستوجب منا تفعيل دور المؤسسات الشرعية وتقريب وجهات النظر بينها وإعلاء شأنها وشأن العاملين فيها على السواء، ويدفع بهذه المؤسسات إلى أن تقوم بدور أكبر تظهر فيه إمكاناتها في العمل الدعوي والسياسي على مستوى أشمل وأعمّ، ويعطيها القدرة على تخطي العقبات التي تعترض طريقها، وتمنعها من إبراز دورها في خدمة الإسلام والمسلمين.



الفصل الثاني

نقوش في فقه العمل الإسلامي العام

مدخـــل

قراءة الواقع قراءة واعية، والإفادة منه دعـوة قرآنية نبوية قال تعالى: ﴿ أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[١].

فهي دعوة لعـلماء الأمة ومفكريهـا إلى إحسان التعامل مـع الوقائع والأحداث قـراءة واستنتـاجًا، وتحليـلاً، وتركـيبًـا، فالنظر الواعي يـقود إلى الفـهم الصحـيح والتخطيط البصير والعبور للمستقبل بخطى واثقة وعزم متين.

والواقع الذي تحياه الأمة والمشكلات التى تعـترض طريقها، والتي تصل إلى حد التعقيـد أحيانًا مع هذه الثورة التقنية التي تسود العـالم والتي تسيطر على الرأي العام من إذاعة وتلفاز وانتـرنت وأصبحت في كل بيت وناد، تفرض علينا مواجـهة واعية ويقظة دائبـة انطلاقًا من المسـئولية المؤمـنة عن الأمة المستـهدفـة، كمـا في الحديث: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**»[٢].

كما تفرض علينا أن نلتـقى جميعًا لصد هذه الهجمـة، فلا شك أن العالم اليوم يتجـه نحو التكتلات الكبـيرة اقتـصاديًا وسيـاسيًا، بهـدف القدرة على الاستـمرارية والحفاظ على الكيان حاضره ومستقبله.

فهذه مسئـوليتنا جميعًا ورسالتنا في نفس الوقت، وفي الإسـلام السبيل الوحيد للنهوض بالأمة وإحيائها لنستأنف المسير ونعاود الشهود الحضاري من جديد.

---

(١) التوبة: ١٢٦.

(٢) أخرجه البخاري (٨٩٣)، و مسلم (١٨٢٩).

المبحث الأول
الطوفان القادم على الدول النامية

١ ـ استعمار جديد:

تخلصت الدول الإسلامية من كارثة الاستعمار بمعناه التقليدي القديم، لكنها لم تتخلص من كوارث أخرى كثيرة، صنعها الاستعمار لنا، وقبلناها منه، لسوء فهمنا وقلة علمنا، وضعف قوتنا، وكثرة ما لديه من سلاح، أو بضائع، أو مصنوعات، أو خبرات ولسوء تصرف البعض عندنا، ومحاولة ظلم بعضنا بعضا، وقد زرع الاستعمار ألغامًا يمكن أن تنفجر في أي وقت، فتعطل كل حركة للتقدم، وكل محاولة للتخلص من الهيمنة الاستعمارية، زرع الخلافات الحدودية بين كثير من بلادنا، وزرع النعرات القومية للأقليات التي عاشت مئات السنين في البلاد الإسلامية دون النظر إلى هذا الأمر، وأجَّجَ نيران العصبية المذهبية، وأوجد بعض أناس يعملون على خدمة مصالحه، ويدعون لاتباع مناهجه، ويخضعون ويدعون لكل ما يصدر عنه، وقد أثمر هذا الغرس تبعية معنوية للبلاد الاستعمارية القديمة، بعد أن تخلت عن الأسلوب القديم المثير للمقاومة، واستحدثت أساليب أخرى تحقق لها أغراضها من غير إثارة أو ضجيج، لقد كان القيد قديمًا من الحديد، فصار الآن من الحرير.

وقد كان من أهداف الاستعمار القديم الهيمنة على مقدرات الدول المستعمَرة (بفتح الميم) وامتصاص خيراتها، وجعلها سوقًا لتصريف منتجات الدولة المستعمِرة (بكسر الميم) أي أن الدافع الاقتصادي كان المحرك الرئيسى قديما، وما يزال هو المحرك الأساسى حديثًا، فالهدف واحد، وما تغير، هو الشكل وحده، ولذلك تتسرب أموال دول العالم الثالث أو كثير منها إلى البلاد الأخرى ذات السيطرة في صورة صفقات لأسلحة، أو إنشاء شركات أجنبية لاستغلال الخامات الوطنية، أو الدخول في معاهدات معينة أو تحالفات تقوم على المصلحة، أو تَبَنِّي دولة كبيرة قضية دولة صغيرة، كما تتبنى روسيا قضية العراق أو غير ذلك من الصور.

وكلما انكشفت حقيقة صورة من الصور ابتكرت صورة أخرى جديدة، تتفق عليها الدول الكبرى؛ لتصبح سارية المفعول على بقية الدول، حتى إذا لم تكن شاركت في صنعها، ولكنها لا تستطيع مسايرة النظام العالمي الجديد أن تمتنع عن التوقيع عليها والقبول بها ولو خالفت مصلحتها، وأثرت على حياة شعبها.

٢ ـ إلغاء الجمارك ضربة قوية للصناعات الوطنية:

ومن هذه الاتفاقات الأخيرة ما يمكن أن نسميه «اتفاقية تحسين الجودة» التي تمت بين عديد من الدول المتقدمة؛ لتكون سارية المفعول عن بقية الدول وفق مراحل متدرجة، بحيث تعفي في نهايتها جميع الجمارك على السلع، ويبقى الإقبال على سلعة معينة مرتبطًا بجودتها فقط دون أي اعتبار آخر.

ولما كانت الجمارك تعتبر في كثير من البلاد النامية حماية لبعض الصناعات الناشئة من أن تقضي عليها صناعات الدول المتقدمة ذات الجودة العالية، نظرًا لقدرة الدولة، وتمكن الصناعة فيها من سنين عديدة، واستخدام جميع الوسائل التكنولوجية لخدمة الصناعات، وتشجيع المخترعين والمبتكرين من إضافة جديد إلى الصناعة في كل يوم، وهذه العوامل كلها إما معدومة في الدول النامية، وإما قليلة غير ميسورة في كل حال، لا عجب إذًا في تغلب صناعة الدول المتقدمة على الدول النامية. ولما كانت الجمارك أحد الحواجز الحامية للصناعة في الدول الناشئة فإن هذا الحاجز سيسقط بالتدريج حتى يزول تمامًا على النحو الذي أقرته الاتفاقية على مراحل ثلاث:

(أ): في سنة ٢٠٠٥ يتم فتح الجمارك أمام بعض البضائع والسلع، لتدخل بدون رسوم.

(ب): = = ٢٠١٠ = = = = = = = = إضافة إلى السلع السابقة.

(جـ): = = ٢٠١٣ تلغى الجمارك تمامًا وتتحرك البضائع بين البلاد، بدون أي قيود، مما يجعل كثيرًا من الصناعات في البلاد النامية تتوقف؛ لعدم قدرتها على المنافسة. إذ العبرة بالجودة وحدها، فلننظر في عدد الشركات والصناعات التي حازت مقياس الجودة في عالمنا الإسلامي، ولنقارنها ببعض الدول من حولنا، لنرى حجم المشكلة القادمة وأثرها.

٣ ـ الجودة والمشكلة:

نقصد بالجودة هنا في عالمنا الإسلامي بعض الصناعات ذات المواصفات العالمية المحددة، التي يمكن أن تنافس الصناعات الأجنبية، أو تقف إلى جانبها حتى وإن تأخرت قليلاً. فكم من هذه الصناعات قادرة على ذلك؟

نأتي لمصر كمثال باعتبارها من أعرق الدول، ومن أكثرها سكانًا في الشرق

الأوسط، ولها ثقلها السياسي والاقتصادي، نرى كم عدد الشركات التي حازت على مقياس حتى ديسمبر سنة ١٩٩٧م، إنه ٣٤٤ شركة ومؤسسة، فكم شركة ومؤسسة في مصر؟ إن فيها بضعة آلاف لا تقل عن ٥٠٠٠ أو ٤٠٠٠ شركة على أقل تقدير.

فكم النسبة بين الصناعات والشركات التي حازت صفة الجودة (٣٤٤) وبين غيرها ٥٠٠٠ أو ٤٠٠٠؟ وأين تذهب بقية الشركات والمؤسسات التي هي خارج نطاق الجودة؟ بالطبع حين لا تصرِّف إنتاجها ستغلق أبوابها.

وما مصير العاملين فيها؟ إن مصيرهم هو البطالة والمعاناة أو التقاعد المبكر والمعاناة أيضا، وإذا كان العاملون الآن يعانون وهم يعملون من ارتفاع الأسعار، ومن عجز الأجور عن القيام بمتطلبات الحياة الضرورية في بعض الحالات، فكيف إذا قعدوا عن أعمالهم بعد أن أغلقت شركاتهم أبوابها؟ وما المشكلات التي تنجم عن ذلك؟ من المعروف أن البطالة والفراغ والحرمان والجوع دوافع قوية لكثير من الجرائم والانحرافات الخلقية والاتجار في المخدرات، والاتجاه نحو الإرهاب، إلى جانب السطو المسلح أحيانًا والسرقات، ودفع الناس نحو اتجاهات فكرية مضادة أو مناقضة للإسلام، وتدني مستوى التعليم والعلاج والتساهل في تجاوز القانون، وبالأعم، فإن الفوضى تعم وتسود بين أغلبية المواطنين الذين لا يجدون عملاً وهم في هذه الحالة أكثرية، وما ظنك بدولة تكون أكثريتها على هذا المنوال والطريقة؟ وما الحل بعد أن تجد ملايين الأسر أن دخلها المحدود قد انقطع؟

إننا سنتكلم عن الحل بعد أن نستكمل المقارنة بين بعض الدول. لقد قدمنا لك مصر كنموذج لدول إسلامية، فلنقدم لك الآن إسرائيل كدولة قائمة في المنطقة وإن كنا لا نقر وجودها ولا نعترف بها.

في إسرائيل تبعًا لنفس الإحصائية التي أخذنا أرقام مصر منها نجد أن بها في نهاية سنة١٩٩٧م (٢٣٠٣) شركات ومؤسسات حائزة على درجة الجودة (تذكر أن في مصر ٣٤٤) مع ملاحظة الفارق الضخم بين عدد سكان مصر وعدد سكان إسرائيل.

فكم شركة في إسرائيل خارج نطاق الجودة؟ قد لا يكون في إسرائيل شركة خارج نطاق الجودة، وإن وجدت فعددها قليل، وبهذا تسلم إسرائيل من جميع المشاكل المتوقع حدوثها بعد سنة ٢٠١٣م، ولن نكتفي بالمقارنة بين مصر وإسرائيل في هذا المجال، بل سنذكر دولتين أخريين كذلك، هما: الهند وباكستان.

ففي الهند ٢٨٦٥ شركة ومؤسسة حائزة على الجودة.

وفي باكستان ٥٦ شركة ومؤسسة فقط.

فهل هناك مجال للمقارنة؟ وهل المشاكل القادمة هينة لدرجة ألا يثيرها الخبراء، ولا يفكر فيها الحكماء، ولا يبحثها السياسيون؟

وفي الكويت حازت ٢٨ مؤسسة وشركة على هذه الجودة. ومصير بقية الشركات والمؤسسات هو نفس مصير الشركات في أي دولة أخرى. إنه إغلاق الأبواب وطرد العمال وما يتبع ذلك من جرائم وانحرافات.

٤ ـ الحل:

ليس الحل في قدرة الراصدين للأحداث، وليس من مهمتهم، إذ يكفي أنهم يتنبهون للمشكلة قبل وقوعها، ويحذرون من شرورها ونتائجها الضارة على الناس وعلى الدولة، إنما الحل الحقيقي في يد الحكومات؛ لأنها ـ وحدها ـ القادرة على حل هذه المشكلة التي تهدف في النهاية إلى إفقار البلاد والعباد، وزعزعة الأمن والأمان، وإطلاق عناصر الفوضى والاضطراب. والحكومات من واجبها أن تتصدى لمثل هذه المشكلات لتحمي الشعوب من آثارها الضارة. فهل تفعل الحكومات ذلك؟

على أننا نستطيع أن نقدم تصورًا قد يساعد على الحل.

ونتصور أن تأخذ البلاد النامية بطلب من حكوماتها أمدًا أطول من ذلك للتغلب على هذه المشكلة. فما المانع أن يطبق هذا القرار سنة ٢٠٣٠م مثلاً بدلاً من ٢٠١٣م؟ وفي هذه السنوات تعمل الحكومات بصفة مستمرة، وجهد كبير على إكساب كثير من الشركات والمؤسسات صفة الجودة، بحيث تثبت بعد ذلك في المواجهة ولا تتقهقر في المنافسة القادمة.

والأمر محتاج إلى كثير من المال والجهد ومحتاج إلى العقول المفكرة، والخبرة المناسبة، والتدريب الواعي المستمر، فهل يصلح هذا التصور؟ أعود لأقرر أن الحكومات وحدها هي القادرة على التصدي للمشكلة القادمة. فهل تفعل؟

المبحث الثاني

القرن القادم .. نظرة ودعوة

يوشك أن يظهر فجـر القرن الجديد عن قريب. . فعلام يتكشف نـوره؟ وما مسار النظام العـالمي الجديد فيـه؟ وماذا تكون شكل العـلاقات الدولية؟ ومـا موقف الحـركة الإسلامية مـن التطورات واستشرافها الجـارية مستقبلاً؟ وحـديثنا لا يبدأ من فراغ؛ لأن الواقع يمهد للمستقبل وكلاهما ثمرة لغرس مضى منذ حين، وإذا كانت المقدمات تُوَصِّلُ إلى النتائج، فإن ملامح القرن المقبل، أو العقـود الأولى منه على الأقل يمكن استشفافها والحديث عنها من خلال جذورها التي وضعت في مغارسها في القرن العشرين.

ففي عالم السياسة قامت في القرن الماضي حربان عالميتان، لا يفصل بينهما غير عقدين من الزمان، وانتـهت ثانيتهما بنهاية مـأساوية حين ألقيت أول قنبلة ذرية على مدينتي نجازاكي وهيروشيما اليابانيتين.

ومن يومـهـا دخل العـالم مـرحلة الردع النووي التي تُرهب ولا تضـرب، وتحـقق لأصحابها ما يريدون من غير أن يخسروا كثيرًا من الأسلحة والمعدات والرجال، واستُبْدِلَت بالحروب الكبيـرة حروب محدودة في داخل بعض البلاد أو على حدودها مع جـيرانها مع دعم بعض القـوى الكبرى لهـذا الفريق أو ذاك (الصـومال ـ لبنان ـ الصـحراء الكـبرى ـ البوسنة والهرسك، وكـوسوفا) إلخ، وقد تدخل أطراف كبـرى في هذه الحروب المحدودة بقوتها العسكرية كما حدث في تحرير الكويت، وتخليص كوسوفا من براثن الصرب.

ويتجه هذا النظام الأخير لفرض سيطرته على الساحة العالمية مع تهيئة الظروف الإعلامية واختيار الأماكن المناسبة، وفرض العداء لبعـض الدول بتهمة أنها داعمة للإرهاب، أو مفرخة له، أو عاملة على حمايته، مع إبراز عنصر جديد كذريعة للتدخل هو حماية الأقليات العرقية أو الدينية في كل مكان من العالم، وفـرض المقاطعة الاقتصادية، وضـرب من يظن فيه أنه لا يقف معهم أو يؤيدهم. (مصنع الشفاء في السودان).

وبهذه الطريقة سـيدخل النظام العالمي الجديد القرن القـادم. فهل يدوم له الحال طويلاً؟ لا أظن ذلك؛ لأن هناك منغصات، وهناك نار تبدو خلال الرماد، وتأتي هذه المنغصات من المشـرق من الصين، ومن الهند. أو من الهند أولاً والصين ثانيًا، ذلك

أن الخبراء يقدرون أن تصبح الهند ـ نعم الهند ـ أكبر دولة في العالم من حيث تعداد السكان سنة ٢٠٥٠م، وأن تصبح الصين الدولة الثانية، وقد انضمت الهند ومعها باكستان إلى النادي النووي مؤخرًا وسبقتهما الصين، التي ما تزال الولايات المتحدة تخطب ودها منذ عهد نيكسون إلى عهد كلينتون إلى عهود قادمة.

ولا شك أن دولاً أخرى ستسير في خط الهند والصين، وستكون معبأة بموروثها حيال الاستعمار القديم مما يجعل التحفز قائمًا، وستتعدد المصالح وقد تتضارب خاصة حول البترول الذي سيتوارى مع مطلع القرن الجديد احتياطي البلاد الغربية منه، أو انخفاض نسبته هناك انخفاضًا كبيرًا مما يزيد المنافسة والتطلع للأماكن البترولية ويجعلها نهبة للصراع بين هذه القوى، وستتعدد المصالح بين الدول الكبرى مما يعكر على النظام العالمي الجديد وضعه، ويجعله يتراجع أو يتغير أو يعدل في نظامه، فتقوده دول الاتحاد الأوربي مثلاً أو غيرها، بعد أن تتكامل بعض مظاهر وحدتها وتتراجع أمريكا إلى مرتبة ثانية أو ثالثة أو غير ذلك، وربما لا يتأخر ذلك غير عقد أو عقدين من الزمان على أكثر تقدير.

وفي عالم السياسة كذلك قامت دول كبرى وتفككت دول أخرى، وظهرت أيدلوجيات ومذاهب أثرت في الناحية السياسية، فقد قامت الثورة البلشفية في روسيا سنة ١٩١٧م على الفكر الشيوعي، وجعلته همها، وعملت على تثبيت أركانه في روسيا أولاً وفي البلاد المجاورة، وفي كل مكان في العالم تستطيع أن تصنع فيه من يؤيد فكرها، ويسير سيرها ابتداء من كوبا في الغرب إلى اليمن الجنوبي في الجزيرة العربية، وامتدت هذه الثورة البلشفية كالأخطبوط لتبتلع الدول الإسلامية في وسط آسيا سنة ١٩٢٤م، ثم تحاول بعد ذلك أن تسيح في الأرض فتجتاح أفغانستان التي ما انفكت تقاتل حتى أخرجت الجنود الزاحفين من الاتحاد السوفييتي من أراضيها.

ولكن هذا الاتحاد السوفييتي الذي كان يمثل القطب الثاني في عالم ثنائي القطبية بعد الحرب العالمية الثانية، لم يمكث غير ستة عقود حتى ترنح وانهار وتفككت دوله، وصارت دويلات عدة، ففقد قوته، وبقيت روسيا قلبه القديم تحاول إثبات وجودها بعد أن تأخرت مرتبتها ومكانتها في النظام العالمي الجديد، وأثبتت بعض الدول التي كانت جزءًا من الاتحاد السوفييتي القديم أنها قادرة على الاستقلال التام عن روسيا، بل وعلى التصدي لها وحربها (جمهورية الشيشان).

وكان انهيار الاتحاد السوفييتي السريع غير المتوقع، إعلانًا بأن النظم التي تخالف فطرة الله التي أوجدها في الإنسان مصيرها الانهيار ثم الدمار السريع.

ومن الدول التي تفككت: شبه القارة الهندية التي انقسمت إلى الهند وباكستان، ثم انقسمت باكستان إلى بنجلاديش وباكستان.

وفي عالمنا العربي تحررت دول من الاستعمار، وبقيت مفككة الأوصال، وحتى البلاد التي كانت موحدة من قبل، مثل بلاد الشام تجزأت بعد الحرب الأولى إلى أربع دول. وقامت إسرائيل بعد ذلك في فلسطين المحتلة وتوالت هزائم العرب في حروبهم معها حتى سنة ١٩٧٣م، حيث سجلوا أول انتصار عسكري لهم عليها، لم يتبعه عمل سياسي مناسب، مما جعل أثر الهزيمة الإسرائيلية باهتًا فاترًا، ثم كان احتلال الكويت الذي أحدث شرخًا عميقًا في العلاقات العربية ما زال باديًا للعيان.

هذه هي الصورة التي يدخل بها العالم إلى القرن الجديد، فهل تبقى أو تتغير؟ وإلى أي اتجاه؟ أما توحُّد الدول وقيام كيانات كبرى كما حدث مع الاتحاد السوفييتي سابقًا فأمر شبه مستبعد وكل ما يمكن في هذا الباب أن توحِّدَ بعض الدول سياستها تجاه أمر بعينه فترة من الوقت مع احتفاظ كل منها بمعالمها الجغرافية ومقدراتها الاقتصادية وارتباطاتها الدولية، وقد ينطبق هذا على الدول العربية، حينًا من الدهر في بعض الحالات والمواقف أو قد ينطبق على بعضها على الأقل، وهناك فرصة لتفتت دول قائمة الآن عن طريقة إثارة نزعات التفرد على أساس عرقي أو ديني، أو طائفي أو غير ذلك من المسميات الكثيرة التي تتخذ ذريعة لقيام كيانات مستقلة عن الدولة الأم، أو زعزعة وضع الحكومة في هذه الدولة، وتشتيت جهودها، وهز اقتصادها، والمؤشرات على هذا حدثت في السودان، وفي أندونيسيا (تيمور الشرقية) وفي إيران من قبل، وفي ليبيا كذلك، وفي الحروب الطاحنة التي حدثت بين التوتسي والهوتو في أفريقيا. ولعل هذه كلها (بروفات) ومقدمات لأعمال أكبر تتم على هذا المنوال في بعض البلاد في مطالع القرن القادم.

١ ـ الحركة الإسلامية:

بدأت الحركة الإسلامية المعاصرة بستة نفر في مدينة صغيرة (الإسماعيلية) إحدى المدن المصرية في نهاية العقد الثالث من القرن العشرين، واستمرت تتدرج في الصعود والانتشار بفضل الله ومنّته، ثم بجهود المخلصين من الرجال الأوفياء لهذا الدين، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وقد بدأ انتشار الحركة في مصر أولاً ثم

في العالم العربي شرقًا وغربًا، ثم في العالم كله بعد ذلك، بغير مبالغة في التعبير، فما من دولة في الشرق أو الغرب تخلو الآن من آثار هذه الحركة، التي أثبتت صدقها حين امتحن رجالها فصبروا، ووقعوا بين الترغيب والترهيب فثبتوا، وخوِّفوا، فقالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[1].

وقد حملت الحركة الإسلامية -بصدق- على عاتقها منذ بدء ثلاثينيات القرن العشرين عبء النهوض بالمسلمين، بناء على أسس إسلامية راسخة، وأسس عصرية متينة، وحاولت جهدها أن يتجاوز المسلمون مرحلة الركود والجمود التي لفت حياتهم وأحاطت بهم قرونًا من السنين نتيجة عوامل شتى، ليس هنا مكان إحصائها أو الخوض فيها، وقد استطاعت الحركة أن ترفع راية الدعوة بين الناس؛ وأن تثبت وجودها، وأن تتغلب على أمرين سادا حياة المسلمين قبل ظهورها، إذ كان الناس أو معظمهم أحد رجلين: جاهل بتعاليم الدين، فهو يأخذ منها بقدر ما علم ويترك منها ما لم يعلم، وقد يكون ما علمه قليلاً وما جهله كثيرًا، مما يترتب عليه ضياع جزء أو أجزاء من الدين من حياة هؤلاء، وآخر قد تثقف ثقافة غربية، فهو بعيد عن الفهم الديني الصحيح وقد يكون متأثرًا بثقافته الغربية تأثرًا شديدًا فيعلو بها عن الدين، ويعتز بها عن غيرها ويبالغ في محاولة نشرها ظنًا منه أن هذا هو طريق الرقي، وقد يهاجم الدين وتعاليمه والمتدينين وسلوكهم.

وجاءت الحركة الإسلامية لتقول لهؤلاء: إن الأمة العربية أحياها الإسلام في الماضي وجعلها رائدة بين الأمم فترة غير قليلة من الزمن، وهو الذي سيبعثها من مرقدها، ويزيل السبات عن عينيها كي تنهض من جديد.

ونال الحركة الأذى، ووضعت العقبات في طريقها، وسجن كثير من رجالها، بل وقتل بعضهم، ولكنها لم تتحول ولم تتنكر لمبادئها، وكان هذا من أسباب لفت الأنظار إليها، ودخول كثيرين فيها وانتشارها في بلاد بعيدة من الشرق الإسلامي أو قريبة منه، ويكاد القرن العشرون ينتهي بعد مرور ما يزيد على سبعين عامًا على مولدها، وهي لها صوت مسموع وحضور على الساحة غير منكور وامتداد في الشرق والغرب. فهل تستمر في الصعود والامتداد في القرن القادم؟ وإلى أي مدى؟

---

(١) آل عمران: ١٧٣.

والإجابة عن هذا السؤال تقتضي أن ننظر إلى المعوقات التي تحيط بالحركة، وهي معوقات من خارجها ومعوقات من داخلها، وقد أثبتت الأحداث أن المعوقات الخارجية وإن أثرت في المسيرة الحركية حينًا من الدهر، فإنها لا توقف زحفها ولا تعطل سيرها، وأما المعوقات الداخلية، فهي التي تشكل خطورة كبيرة؛ لأنها تؤدي إلى التناحر والتآكل الداخلي، الذي يجعل البناء هَشّاً وإن بدا ضخمًا، ولا بد من القضاء على هذه المعوقات الداخلية واجتثاثها من جذورها في أسرع وقت.

وبديهي أننا لن نتناول جميع المعوقات الداخلية بالحديث، لكننا سنشير إلى بعضها:

أ ـ الاهتمام بالكم على حساب الكيف:

أو الاهتمام بالتجميع والتكثير على حساب التربية العميقة التي تجعل من الفرد أمة، فهو يغني بذاته عن جماعة ﴿**إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾[1]. وقد كانت هذه التربية الإيمانية العميقة هي التي اتبعها رسول الله ﷺ مع أصحابه، حتى كان أحدهم لا يبالي وقع الموت عليه أم وقع هو على الموت، وحتى كان أحدهم يأتي بماله كله في سبيل الله، وحتى كان أحدهم يخرج للجهاد وليس معه من زاد غير تمرات قليلة، وحتى كان أحدهم يلقى الجحفل اللجب بلا تردد ولا خوف، ولقد استنجد عمرو بن العاص ـ أثناء فتحه لمصر ـ بعمر بن الخطاب، فأنجده بأربعة رجال، وقال له: إن كل واحد من هؤلاء الرجال بألف. ففتح الله عليه. وكان هؤلاء الرجال الذين رباهم الرسول ﷺ هم عمد الإسلام وسناده في امتداده العظيم في الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية، فلما كثر المسلمون بعد ذلك، وقل الاهتمام بالتربية وقعت الفتن بينهم، وحارب بعضهم بعضًا، وقد سارت الحركة الإسلامية في بداياتها على نهج رسول الله ﷺ في التربية العميقة فكان رجالها هم الرجال، وكانت مواقفها من الأحداث تشد الإعجاب، وتأخذ بالألباب.

ومن واجب الحركة اليوم أن تُولي جُلَّ اهتمامها للتربية مع اهتمامها كذلك بالتجميع والتكثير، وفي هذا ضمان لاستمرار الانتشار والامتداد بعد الرسوخ والبقاء.

---

(١) الأنفال: ٦٥.

ب ـ تعدد فصائل الحركة الإسلامية:

تتعدد فصائل الحركة الإسلامية، ويتخذ كل فريق لنفسه وجهة هو موليها، وقد يحدث عداء بين بعض الفصائل، مما يجعل كل فريق مهيأ للانقضاض على الآخر إن أتيحت له الفرصة، ولذا فإن الجهود موزعة، لا من أجل الحذر من الأعداء المتربصين، ولكن من أجل الحذر من إخوان الصف الحانقين. وليت الجميع -إن تعذر جمعهم تحت لواء واحد واتجاه واحد- أن يوحدوا جهودهم في الأصول التي لا خلاف عليها، وأن يتركوا الفروع، كل يختار من بينها ما يستطيع أن ينهض به، ولكن هذا الأمل المحدود غير موجود الآن، ولا أظن أنه موجود في الأفق القريب. ودون أن ندخل في بيان أسباب هذا التعدد نقول: إن الاختلاف آثاره معروفة للجميع، وإن ذوي الاتجاه الإسلامي كلهم عليهم أن ينظروا لمصلحة الدين أولاً الذي هم في خدمته، قبل أن ينظروا لزعامة جماعة أو طائفة، وقبل أن يكتسبوا من ورائه مغنمًا، فذلك ليس طبع العاملين في ميدان الدين.

إننا إن استطعنا أن نقضي على هذين الداءين الوبيلين، فإن امتداد الحركة وثباتها في القرن القادم لا شك فيه. وإلا فالله أعلم بما سيكون.

وبعد:

فلسنا ندعي أن التصور الذي قدمناه أشبه بالتعريف الجامع المانع، لا. لا ندعي ذلك. وإنما نقول: إنه تصور استخلصنا مفرداته وأجزائه من أحداث القرن الماضي، ونظرنا من خلالها إلى الأحداث التي يمكن أن تقع في القرن القادم، دون أن ندعي لأنفسنا ولا لغيرنا أننا ألممنا بجميع الجوانب التي يتطلع إليها الإنسان المعاصر في استشفافه لرؤية مستقبلية؛ لأن مثل هذه الأمور التي بحثنا بعضها ـ والتي تحويها ورقة العمل القادمة ـ تحتاج إلى مراكز دراسات وإلى باحثين متفرغين، يدلون فيها بآرائهم ويضعون أمام المسئولين تصوراتهم للمستقبل في صدق وموضوعية، لتكون عاملاً مساعدًا في اتخاذ القرار المناسب، وفي جذب الناس نحو المشاركة الفعالة في الاستعداد لخوض غمار القرن القادم. وأملي أن تعنى بها مراكز الدراسات والبحوث وأن يهتم بها الدارسون، لتعم الفائدة.

٢ ـ ورقة عمل (رؤية العالم عام ٢٠٢٥):

نود من كل باحث قادر أن يضع منظاراً يخترق به حاجز الزمن من خلال قراءة التاريخ والسنن الكونية والشرعية وربطها بالواقع؛ لنرى ملامح المستقبل. لذا نرجو التفضل بإبداء الرأي حول المحاور التالية:

- المحور الأول: العالم وواقع البشرية:

١ـ هل ستستمر القطبية الواحدة في إدارة العالم عسكريًا واقتصاديًا؟

٢ـ ما مصير الوحدة الأوربية وعملتها الموحدة (اليورو)؟

٣ـ أين مركز المعسكر الشرقي والشيوعي بقيادة الاتحاد السوفيتي وكيف سيكون في القرن القادم؟

٤ـ هل ستستمر الخارطة الجغرافية والمالية والتقسيمات البشرية والعرقية عليها؟

٥ـ كم عدد البشر في العالم؟ وأين تقسيمهم؟ وكم نسبة المسلمين؟ وأين تواجدهم؟ وكم سيكونون عام ٢٠٢٥؟

- المحور الثاني: الاقتصاد:

١ـ أين قوة البترول الاقتصادية في العالم؟

٢ـ ما هي مصادر الطاقة الجديدة؟ وأين تتواجد؟

٣ـ ما هو المخزون كمواد خام في العالم؟ وأين يتواجد؟

٤ـ السوق المنتجة والسوق المستهلكة أين تقسيمها في العالم؟

٥ـ ما مصير مديونيات العالم على البنك الدولي؟ وهل ستستمر نفس الدول الدائنة والمدينة؟

٦ـ ما هى الدول التي سينهار اقتصادها؟ وما هي تلك التي ستحافظ على اقتصادها؟ وما هي الدول الاقتصادية الجديدة التي ستظهر على السطح؟

- المحور الثالث: العالم العربي:

١ـ ما مصير الجامعة العربية ككيان عربي جمعي؟

٢ـ ما مصير مجلس التعاون الخليجي وإلى أين سينتهي؟

٣- هل ستستمر نفس الخريطة ونفس الدول ونفس الأنظمة الموجودة؟

٤- أين العالم العربي من مشوار تطبيع العلاقات مع إسرائيل؟

٥- ما هي علاقة العالم العربي من التحالفات العالمية الجديدة؟

٦- هل سيستمر البترول المادة الخام المطلوبة للعالم في تحريك آلاته؟

- المحور الرابع: عسكريا:

هل يمكن أن تتغير القوة العسكرية والسيطرة العسكرية في العالم؟

- المحول الخامس: حركيًا؟

ما هي الرؤية المستقبلية للحركة الإسلامية؟

وأقدم سلفًا شكري وتقديري لكل عون في هذا السبيل من أي طرف من الأطراف المعنية. وأسأل الله أن ينفع المؤمنين بجهود المخلصين من الباحثين والخبراء المعنيين.

المبحث الثالث
العولمة هي الاستعمار بأشكال جديدة

لقد شاع في العقد الأخير من القرن العشرين استخدام الباحثين والمحللين في عالمنا العربي والإسلامي لمصطلح العولمة «Globalization» وكثر حوله الجدل العلمي والخلط الشديدين في منتجاتهم الفكرية والثقافية وبعضهم أفرط في تمجيده والإطراء عليه والتبشير به إلى حد تصويره على أنه المنقذ والمهدي المنتظر، والبعض الآخر رفضه تمامًا وتعامل معه على أنه رجس من عمل الشيطان، وفريق ثالث رأى أن العولمة أصبحت واقعًا ولا فكاك منها والأمر يقتضي إعداد برامج مقاومتها والتحصن بمصدات واقية إلى جانب الاستفادة من حسناتها إن وجدت.

وفي هذا الصدد يمكن القول بأن ظاهرة العولمة ليست نظرية طارئة أو مجرد فكرة ولدت بشكل عفوي في رحم الفكر الغربي وإنما هي فلسفة منظمة ومنهج علمي يستهدف تحقيق استراتيجيات محددة على صُعد شتى في المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية والثقافية والاجتماعية، إذ بعد اندحار الخطر الأحمر في مطلع التسعينات وانتهاء الحرب الباردة التي دامت قرابة نصف قرن انفردت الولايات المتحدة الأمريكية بالأحادية القطبية، وراحت تكرس وجودها وحضورها المباشر عبر التدخل في شؤون بعض الدول وخاصة الدول العربية والإسلامية، ولا أدل على ذلك من تدبيرها لحرب الخليج الأولى وقيامها بالثانية إعدادًا وتنفيذًا بعد أن وجدت ضالتها المنشودة في ديكتاتورية النظام العراقي الغاشم، وحصارها لليبيا والسودان واستفزازها المستمر لسوريا وإيران، وعلى الوجه الآخر تحالفها السياسي والعسكري والاقتصادي والاستراتيجي مع الكيان الصهيوني، لكي تضمن له التفوق على خصومه من العرب والمسلمين.

وقد اعتقدت الولايات المتحدة الأمريكية أنه بعد انتهاء الشيوعية لم يعد أمامها أية عقبة لفرض هيمنتها على العالم، والقيام بدور الشرطي المنظم لحركة إيقاعاته، لكنها تنبهت إلى ما أطلق عليه في الكتابات الغربية بالخطر الأخضر (الصحوة الإسلامية) الذي بدأ يتململ في مرقده. وهذا ما تحدث عنه ريتشارد نيكسون في كتابه (الفرصة السانحة)، وهنتنجتون في مؤلفه «صراع الحضارات»، ومن ثَمَّ اعتبر المعسكر الغربي بزعامة أمريكا المد الإسلامي هو العدو الأول الذي يهدد مصالحه، وهنا بدأ خطر العولمة يتعاظم وتتفاقم حدته ووصلت العولمة إلى أن أصبحت ظاهرة ملموسة بعد أن

صار العالم أشبه بالقرية الصغيرة بفضل الثورة الاتصالية الهائلة التي تملكها أمريكا وتعمل من خلالها على عولمة كل مجالات الحياة المادية والأدبية وتذويبها في سراديبها.

هذه الكوكبية أو ما يسمى بالكونية ليست وليدة اليوم ولكنها نتاج لعصور سابقة وإن حملت أشكالاً مختلفة وحلقات متباينة ومن هنا نستطيع أن نقول: **إنه إذا كانت السياسة هي الحرب بوسائل أخرى، فإن العولمة هي الاستعمار بأطياف جديدة** من أجل تحقيق البراجماتية الأمريكية وقد عضد هذا المعنى اللورد بالميرستون عام ١٨٤٨ بقوله «لا يوجد عندنا صداقات دائمة ولا عداوات دائمة، وإن مصالحنا هي الباقية والدائمة ومن واجبنا الحفاظ على تلك المصالح».

إذًا لا مشاحة في المصطلح ـ كما يقولون ـ فالمقاصد واضحة والأهداف محددة والاستراتيجيات مرسومة، فهناك محاولات تهميشية واضحة للفكر العربي والإسلامي أمام التهديدات العولمية من خلال فرض اتجاهات الأسواق المفتوحة دون دراسة لواقع الاقتصاديات العربية فضلاً عن فرض إصلاحات اقتصادية غير ملائمة للظرف الحالي، وإشاعة قيم الاستهلاك والنفعية والربح السريع عبر آلياتها الخطيرة الممثلة في: اتفاقية الجات وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي والشركات متعددة الجنسيات، وقد انتقد التقرير السنوي الأخير لبرنامج الأمم المتحدة بشدة مخاطر ظاهرة العولمة، مؤكدًا أنها تخدم مصالح الدول الغنية وأرباح الشركات المتعددة الجنسيات ولا تخدم مصالح الشعوب لا سيما في الدول النامية، كما أنها لا تخدم مستقبل البشرية بشكل عام.

أ ـ مشروع استحواذ وسيطرة:

وتتعاظم خطورة العولمة بإصرارها على فرض ثقافة عالمية واحدة عبر الآلة الإعلامية الضخمة التي تتمثل في استغلال مبتكرات الاتصالات والمواصلات والفيديو والكمبيوتر والإنترنت وغيرها في نشر الثقافة الوافدة. ومما يؤسف أن إعلامنا العربي يردد ما تبثه أبواق الغرب دون تمييز بين غث وسمين وقد وجد بين ظهرانينا من ينكر حقنا في احتفاظ أمتنا بخصوصيتها الحضارية والثقافية والاجتماعية إلى درجة التأثر بالأجواء الغربية والدعوة إلى الفكر الليبرالي الغربي، ومن بين هؤلاء: رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك، وأحمد لطفي السيد، وطه حسين، وغيرهم من تلامذتهم المعاصرين مثل: فؤاد زكريا، ووجيه كوثراني، والسيد ياسين، وسعيد العشماوي، وحسين أمين، وغيرهم.

وبهدف تطويع إرادة المسلمين وتشكيل عقولهم ومسخ هويتهم وعولمة القيم الأسرية دون مراعاة لخصوصيات المجتمعات نظمت الولايات المتحدة الأمريكية مؤتمرات السكان الدولية التي عقدت بالقاهرة(١) وبكين(٢)، وأسفرت فعالياتها عن توصيات أقل ما توصف به أنها تصطدم بالمشاعر الإنسانية فضلاً عن الإسلامية؛ إذ تحدثت عن النوع الواحد وزواج المثليين، وإباحة الإجهاض وأفرطت في توسيع دائرة الحرية إلى حد الفوضى والإباحية والانفلات الأخلاقي ضاربة بالمعتقدات الدينية عرض الحائط.

هذا الفكر الهيكلي الذي يسعى الغرب بزعامة أمريكا إلى تجذيره في أوساطنا ما هو إلا محاولات تنميطية ترفض قيام المجتمع الإنساني على أساس التعدد والتنوع وهذا ما يصطدم بالسنن الإلهية القائمة على التنوع والتعدد ويؤكد أن العولمة مشروع استحواذ وسيطرة وإشاعة فكر عالمي واحد.

ب ـ وسائل مقاومة:

ولما كانت ظاهرة العولمة الجديدة في مفهومها القديمة في جوهرها أصبحت أمرًا واقعًا وملموسًا، فإن مصلحتنا بل ووجودنا يقتضي إعادة صياغة المنظومة العربية والإسلامية بما يقيم لها وزنًا ذا شأن في الميزان الدولي الاستراتيجي، خاصة أنها تمتلك المعطيات التي تجعلها ذات قوة لا يستهان بها، ومن ثم لا بد أن يُعمل الباحثون والمنظرون أقلامهم وأفكارهم في الدعوة إلى استثمار فكرة العولمة على صَعِيدَي الاستفادة من محاسنها المتصلة بالإنجازات العلمية خاصة أن البحث العلمي والتقني في عالمنا العربي يحتاج إلى جهود كبيرة، لعل أهمها محاولة تهيئة الأجواء لإعادة الأدمغة العربية المهاجرة والتي تشكل **٣٠٪** من العقول الأمريكية حسب آخر إحصاء، الأمر الثاني أن وجود العولمة في حد ذاته والحذر من مخاطرها يستوجبان استنهاض عزيمة الأمة وهمتها ولن يتأتى ذلك إلا من خلال تدشين مجموعة وسائل مقاومة لعل أهمها:

أنه في إطار فن الممكن لا بد من تفعيل التجمعات والكيانات والتكتلات والمنظمات العربية والإسلامية أمثال (منظمة المؤتمر الإسلامي، وجامعة الدول العربية،

---

(١) كان ذلك في المدة بين الخامس والثالث عشر من شهر سبتمبر عام ١٩٩٤م

(٢) كان ذلك في عام ١٩٩٥م.

ومنظمة الـوحدة الأفريقـية، وتجمع الدول الـثمانيـة الاقتصـادي، ومجلس التـعاون الخليجي) إلى درجة أنه لا بأس من تغيير الدساتير والقوانين الحاكمة لبعض المنظمات بهدف تفعيلها، فـضلاً عن الدعوة المستمرة إلى السوق العربية والإسلامـية المشتركة، وتنمية الاتحادات والتجمعات المهنية العربية والإسلامية، وتعميق الاهتمامات المشتركة بينها، وتوحيد الأجهزة الإعلامية لتكوين رأي عام موحد إزاء مخاطر العولمة، وإنشاء جيش عـربي وإسلامي قوي، وصبغ التـعليم في جميع درجاته ومـستوياته بالصـبغة الإسلامية لصد الغزوة الثقافية الـشرسة التي تروج لها العولمة، والتنسيق بين جامعاتنا بهدف أسلمة العلوم الإنسانية.

تأسيس مـشروع عربي وإسلامي مـواز ومغاير للمـشروع الأمريكي الصهـيوني والصليبي بات أمـرًا حتمـيًا وضرورة ملحـة تفرضهـا الخبرة التاريخـية والاقتـصادية والاجتماعيــة والسياسية للأفكار العربية لمواجـهة برامج العولمة، وهذا لن يحدث إلا من خلال حوار شـوري وديمقراطي نزيه داخل الدولة الواحدة أولاً لاستثـمار طاقات القوى الحية وتوحيد الجهود الداخلية، ثم ننتقل بهذا الحوار إلى الحوار العربي العربي أو ما يعرف بالتطبيع العربي الإسلامي حتى نستطيع إقامـة مصالحة عربية فعلية تستند إلى وحدة العقيدة والشريعة أو تجسد في النهاية منظمة دولية ـ كما دعا د. عبدالرزاق السنهوري ـ لتتولى المهام التي كانت من وظائف الخلافة الإسلامية وهي المحافظة على مقومات وحدة الأمة.

هذه الأخطار العـولمية ينبـغي أن تفرض علـى حكام العرب والمسلمين اللـياذ[١] بشعـوبها والتحـصن بها عبـر تحسين سـجلات حقـوق الإنسان والالتزام العـقائدي بالخصوصيـات الدينية والحضارية حتى لا نغرق في طوفان الغربنـة والأمركة، كما أن التمسك بهويتنا الدينية والثقافية يسهم في حفظ ذاتنا وحمايتنا من هذه الأخطار.

لا بد من التأكيد على أن العـولمة بمعنى العالمية هي فكرة إسلامية صـميمة نادت بها الأديان السماوية نظريًا وعـمليًا، وتجلت بمصداقيتها الأخـاذة في دعوة الناس كافة إلى الإسـلام، وبالتالي فنحن أولى بعـولمة قيـمنا وأدبياتنا الإسـلاميـة السابقـة التي

---

(١) لاذ بالشيء لوذًا، ولياذًا: لجأ إليه واستتر به وتحصن، المعجم الوسيط (لوذ).

تستهدف تحقيق الخيرية والسعادة للإنسان في الدنيا والآخرة، ومعروف أن الإسلام دين عالمي يلائم الفطرة التي فطر الله سبحانه وتعالى الناس عليها دون حرج أو مشقة، ومن الأدلة القرآنية لعالمية الإسلام ﴿**ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً**﴾[١]، ﴿**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . . .**﴾[٢]، ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ . . .**﴾[٣]، ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[٤]، وقال النبي ﷺ: «**لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى**»[٥].

جـ. هيمنة قوة واحدة أمر مستحيل:

والأمر الذي نحب أن نختم به ونطمئن الخائفين على ثقافتنا وهويتنا من هذه العولمة بل ونهدئ من روعهم أن الخبرة البشرية تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أنه من المستحيل الهيمنة على العالم بواسطة قوة واحدة، فقد فشلت من قبل الإمبراطورية الرومانية في تحقيق هذا الهدف، كما سقط الاستعمار الغاشم وخرج مهزومًا مدحوراً وانهزمت الشيوعية في عقر دارها معلنة الرحيل، بل سقطت كل قوى الظلم والبغي. هذه الأيديولوجيات والتيارات الاستعمارية بشرت بقيم الهيمنة، وها هي الرأسمالية التي ادعى منظروها أنها المثالية كما قال فرنسيس فوكوياما المؤرخ الياباني الأمريكي في كتابه «نهاية التاريخ» هذه الرأسمالية الآن تحمل في طياتها بذور انهيارها، فانتشار الانحلال والتفسخ الاجتماعي والانفلات الأخلاقي مؤشر قوي على هذا الانهيار، وهناك أرقام وإحصائيات مرعبة ولا تخطئ التقويم في هذا الشأن، وعلى الجانب الآخر يبقى الإسلام حصنًا منيعًا بقوته الذاتية وحفظ الله له ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[٦]. ولكي يسود في الأرض لا بد أن تفرز هذه الأمة من بين أبنائها من يستحقون النصر ويأخذون بأسبابه، فيتحقق التغيير ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[٧].

---

(١) البقرة: ٢٠٨. (٢) الحجرات: ١٣. (٣) النساء: ١.
(٤) الحجرات: ١٣. (٥) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٤١١)، وصحح إسناده الأرناؤوط.
(٦) الحجر: ٩. (٧) الرعد: ١١.

المبحث الرابع
المؤسسات الدولية والدينية

إن الظلام الدامس الذي يخيّم على قضـية الشيشان في أروقة الأمم المتـحدة، والصمت التام الذي يمارسه مسؤولوها تجاه الصرب الروسي المـتفجر بالدماء والأشلاء، يجعلنا لا نشك للحظة واحدة بأن المنـظمة الدولية، قد تحـولت إلى هيكل وَرَقِيٍّ بعد أن ترسـخت قَدَمُ نظام العولمة في أرض الواقع. لقـد أصبحت المنظمة الدوليـة مقودة بعد أن كـانت قائدة، وصارت تتأثر بآراء الأقوياء، بعد أن كـانت في فترة من الفترات مؤثرة، وبات واضـحًا أنها تظهر على المسرح العالمي، حين يراد لها أن تظهـر، وتختفي خلف الكواليس، أو تدخل السراديب حين يراد لها ذلك، وهذا ما جعل كثـيرًا من شعوب العالم الثالث وحكامه لا يعولون كـثيرًا عليها حين يقع عليهم ظلم أو قـهر من أي جهة؛ لمعـرفتهم بأن مفـاتيح حل المشكلات ليست في أيدي هذه المنظمة وأن حركتها مبرمجـة على ما يريده الآخرون، وصار اللجوء إليها في معظم الحالات (تحصيل حاصل، أو إثبات حـالة لا أكثر ولا أقل) أما رفع الظلم ودفع الجور والبغي فله طرق أخرى، في مقـدمتها مدى مـصلحة الشركات الكبرى من حـل المشكلة أو بقائها، ومدى ملاءمة ذلك لاستراتيجية «العولمة» أو مخالفتها، ومدى ما تتمتع به الدولة الظالمة الجائرة من تأثيـر في صنع القرار الدولي أو بـعدها عنه، ومـدى ما يتـحقق من وراء ظلم دولة مـا واستنزاف مواردها وإفقارها حتى لا تشاكس الكبار، أو تقف في وجههم.

ولربما كـانت هذه العوامل كلهـا وراء استمـرار الحملة العـسكرية الروسـية في الشيشان، التي يقدر الخبراء تكلفتها حتى الآن بـ ١/٢ مليار دولار. فمن أين لروسيا بهـذا المبلغ وهي مدينة لصندوق النـقد الدولي وللبنك الدولي، والانهـيار ينخـر في عظامـها وسوء الإدارة مـلازم لرجالهـا؟ من أين لها هذا المبلغ إن لم يكـن الأقوياء يمدونهـا به، ثم لا يقفـون في وجهـها، ولا يدينون عـدوانها ولا يوجـهون لـها إلا كلمات عتاب قد تكون رقيقة، إظهارًا لمواساة المقتول، وذرًا للرماد في العيون؟

وكل هذا يتم والمنظمة الدولية عيـونها شاخصة ولسانها أبكم، وحركـتها منعدمة، وحيرتها ودهشتها بادية، لقد صارت خلقًا مشوهًا مبتوت الصلة بأهدافه، مقطوع الجذور بالعالم الثالث، ممدود الظلال في عالم الأقوياء. فهل آن للمـستضعفين أن يدركوا أنهم

يعيشون بغير ظهير، وأن عليهم أن يدفعوا ضريبة تخلفهم وتأخرهم من دمائهم وأشلائهم وقوت أبنائهم للسادة الأقوياء دون أن يظهروا امتعاضًا أو يبدوا ضيقًا؟

ومع هذا التقلص الواضح في دور المنظمة الدولية، يبدو هناك امتداد كاسح لمؤسسة دينية تمد رواقها على الشرق والغرب والجنوب والشمال (إنها مؤسسة البابوية) التي يتحرك قائدها (البابا أو الحبر الأعظم) رغم كبر سنه في جميع القارات وكثير من الدول، وحركته تقوم لها الدنيا ولا تقعد، وهو في كل زيارة يقوم بها لدولة من الدول يثير الإعلام حول زيارته وتصريحاته الكثير من الأقوال والتعليقات، بحيث تأخذ أمثال هذه الزيارات بعدًا دوليًا وزخمًا إعلاميًا، خاصة وهو يلقى كبار المسئولين، الذين يحرصون على إظهار الودّ له، وتهيئة كل ما يرضيه، ويعتبرون أقواله أحكامًا وقوانين، حتى وإن خالفت ما عليه أغلب المواطنين، وفي زيارته التي انتهت منذ أيام للهند قرر أن من حق كل إنسان أن يختار الدين الذي يرتضيه، ومغزى هذا القول واضح تمامًا على طريقة: إياك أعني واسمعي يا جارة، ولم يكتف بهذا القول المغلف، وإنما أعلن بوضوح أن المسيحية ينبغي أن تسود آسيا في العقود القادمة، وأن هذا يتم بجهود القساوسة الذين هيئت لهم الوسائل المناسبة لأداء هذا الدور الكبير.

ولا نستطيع أن ننكر الدور الذي يقوم به البابا في خدمة أبناء ديانته، وسعيه في المحافل الدولية ومن خلال العلاقات الدولية لإرساء دعائمها، وجذب أنصار جدد لها، وتحقيق ما يريده أبناؤها لأنفسهم في منطقة من المناطق أو بيئة من البيئات.

لقد أصدر نداء للأمم المتحدة قبل إجراء الاستفتاء في تيمور الشرقية، يحثها على أن تعمل على سرعة الاستجابة لمطالب السكان هناك، وأن تعمل بكل سبيل لإجراء الاستفتاء، وبالفعل سارعت الأمم المتحدة وحققت هذا النداء وأجرت الاستفتاء، وكان من نتيجته ما كان من استقلال تيمور عن إندونيسيا.

وأذكر أن الوقت الذي كانت فيه مشكلة تيمور معروضة على بساط البحث الدولي كانت مشكلة «كارجيل» في كشمير تفرض نفسها فرضا تحت ضغط المواجهة المسلحة بين المطالبين باستقلال كشمير، وبين القوات الهندية، التي تأبى بشدة القبول بما قررته الأمم المتحدة منذ سنوات بإجراء استفتاء حول مصير كشمير، وما كان من هذه القوات إلا أن استخدمت كل وسائل أسلحة القهر الحديثة للقضاء على الثائرين،

وإبقاء وضع كشمير على ما هو عليه، فهل تحركت مؤسسة إسلامية واحدة لتنكر هذا الموقف التعسفي؟!

إن الأزهر - وهو من أقدم المؤسسات الإسلامية وأعرقها وأكثرها كفاحًا ومواجهة للاستعمار عبر قرون خلت- لم يصدر أي بيان في هذا الشأن، لا لأنه يجهل ما يحدث للمسلمين حوله في العالم، ولكن لأنه كان مشغولاً بتعديل فتوى كان قد أصدرها قبل نصف قرن، تحرم على الفنانين والفنانات القيام بأي دور تمثيلي يمثل شخصية أحد الصحابة الكرام.

إن الفاتيكان ترسل إلى الأمم المتحدة باستعجال حق الاستفتاء في تيمور، فيتحرك الجميع ويجري الاستفتاء وتأتي القوات الدولية، وتنسحب من الإقليم القوات الإندونيسية، ويعيش شعب تيمور آمنًا مطمئنًا، والأزهر يصدر فتواه الجديدة بجواز تمثيل شخصيات جميع الصحابة ما عدا **العشرة المبشرين بالجنة**. فهل يعتبر التمثيل الآن لأدوار الصحابة مقدمًا على إنكار الظلم الواقع على المسلمين؟ وهل هذه الفتوى من الضرورات التي لا يمكن السكوت عنها؟ وليت أزهرنا المعمور -الذي طلب منا أمير الشعراء أن نخشع في ساحته مليًا حين قال:

وَاخْشَعْ مَلِيًا وَاقْضِ حَقَّ أَئِمَّة ... طَلَعُوا به زُهْرًا وَمَاجُوا أَبْحُرَا

كَانُوا أَجَلَّ مِنَ الْـمُلُوكِ جَلالَةً ... وَأَعَزَّ سُلْطَانًا وَأَعْظَمَ مَظْهَرَا

ليت أزهرنا يقوم ببعض ما يجب نحو المسلمين، كما تقوم مؤسسة البابوية بأزيد مما يجب نحو المسيحيين.

فهل آن لنا أن نقلد غيرنا؟ أو أننا يجب علينا أن نتمنى أجمعين، وندعو خاشعين أن يكون للمسلمين بابا؟؟

هل من جديد في بدء الألفية الثالثة؟

يتقدم العالم الإسلامي نحو الألفية الثالثة بخطى متثاقلة، أرهقتها الطعنات، وأوهنتها الكوارث والأزمات، التي تتابعت على الأمة منذ سيطر الاستعمار على ديارها، وتحكم في منافذها وممراتها، واستنزف كثيرًا من مقدراتها، وأثار بين أبنائها جذور القوميات العرقية، وخلق الصراعات الحدودية، وضرب بعض الأمة ببعضها، وكلما لاحت بوادر الخروج من

أزمة أدخل الأمــة في أزمة جــديدة، وقد كــان القرن الأخــير من الألفــية الثانيــة ذا طابع مأساوي، استغل أعظم الاستغــلال للعمل ضد الإسلام وتدبير المكايد للمسلمين، بدءًا من انفصال القــيادة العربية للشريف حــسين عن تأييدها للسلطان العثماني، بل وعــملها ضده ومحــاربتهــا لجنده، مؤيدة في ذلك للاســتعــمار البريطانــي الفرنسي، الذي اســتغل ثورة الشريف حسين ضد المسلمين العــثمانيين وحصد ثمارها لنفسه، وقــسم العالم العربي عدة أقســام حسبمــا ورد في اتفاقيــة (سايكس بيكو). ثم أتبع ذلك بإصدار «وعــد بلفور» سنة ١٩١٧م وكان العــمل قد بدأ بالفــعل في فلسطين لتكثيف هجــرة اليهود إليــها ومضــايقة الفلسطينيين، مع استعداد اليهود للحرب، وتنافر الــقيادات العربية، بل وإعلان بعضها ألاَّ شأن له بفلسطين، ثم كانت حرب سنة ١٩٤٨م التي كرست قــيام الدولة العبرية، وما كان لليهــود أن يحققــوا شيئًــا من ذلك، لولا انشغال بعض الأنظمــة العربية بالكيــد لبعضــها ومحاولة السيطرة على آخرين، بحجة أن هذا نظام ثوري وهذا غير ثوري؛ مما جعل حروبًا تقوم في المنطقة العربية كحرب اليمن التي اســتنزفت اقتصاد عدة دول عربية وأثارت قضايا نزاعية، وأبرزت توجهات علمــانية أو اشتراكية بين بعض الأنظمة العربيــة، وجعلت كثيرا من الأطراف منشغلاً بقضايا فرعيــة، فمكن ذلك لدولة اليهود من أن تقتطف ثمار الخلاف بين البلاد العربية، وأن تخرج بعد حرب سنة ١٩٦٧م بحصيلة عظيمة من المساحة الأرضية العربية فاقت المســاحة التي قامت فوقها من قبل الدولة اليــهودية، ثم كانت حرب ١٩٧٣ التي أثمرت (كــامب ديفيد) التــي صارت أساسًا لــكل تحرك في الشرق العــربي في أواخر القرن العــشرين، ونكَّست رايات الحــرب بين إسرائيل وجيــرانها، ورفــعت رايات السلام مقابل الأرض ـ كــما يقولون ـ فلا الأرض عادت ولا الحــرب قامت. وإنما سكت السلاح إلا بين العــرب أنفــسهم؛حــيث قــام النظام العــراقي بغــزو الكويت في فــجر الخــمــيس ٢/٨/ ١٩٩٠م ليشق الأمة العــربية ويشغل أبناءها ويدفعــها دفعًا لأن تســتعين بالآخرين، وليغطي بذلك على صــفقة أخرى كــبرى تقوم بها كــبرى المنظمات الفلسطينيــة (فتح) عن طريق المحادثات الســرية التي أُعلن عنها فيــما بعد، وتنضم الأردن ثم يلهث الجمــيع نحو العدو الصهيوني فــيقيم الأردن علاقات مع إسرائيل، ثم تقدم على ذلك مــوريتانيا أخيرًا. والأمر يدبر الآن لتدخل عدد من الدول في هذه الدائرة التي تتوسطها إسرائيل.

وصاحَبَ هذه الحركة السياسية على مدى القرن حركة ثقافية فكرية تستأصل من

نفوس المسلمين مظاهر الدين، وتعمل على إبعادهم عن السلوك الاجتماعي الإسلامي، وتغرس في نفوسهم مقولة: إن الغرب خرج من العصور الوسطى بعد أن فصل المظاهر الدينية عن جوانب الحياة، وأن على المسلمين إن أرادوا التقدم أن يسيروا على الدرب ذاته، مما جعل كثيرين من المبعوثين في القرن العشرين إلى البلاد غير الإسلامية يعودون مزودين بأفكار وثقافات مناقضة للإسلام، أو بعيدة عن هديه، لينشروها بين المسلمين، وهذا ما جعلهم يحاولون طمس معالم الدين، ويحاولون فصلها عن مظاهر الحياة، حتى وجد المسلم الذي يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض وهو يظن أنه ناجٍ عند ربه، وسرت كثير من عادات غير المسلمين وتقاليدهم ونظمهم في بلاد المسلمين، وساعد هذا الجانب الثقافي الفكري مع الجانب السياسي في إلحاق كثير من الأضرار والنكسات بالمسلمين.

ومع دخول العرب نحو الألفية الثالثة يكون الانبطاح العربي أمام إسرائيل قد وصل إلى حدٍ قياسي، ويكون الضعف العربي والتمزق العربي قد وصل كذلك إلى مستوى قياسيٍ، فهل كان العرب قديمًا محقين في قولهم: اليأس إحدى الراحتين؟!

إن المقدمات تُوَصِّلَ إلى النتائج، والعَقْد الأول من الألفية الثالثة، ربما أظهر شدائد أعظم مما سبقها، يقع فيها العرب ويكتوون بنارها. حين تمتد أيدي كثير من الأنظمة العربية لتطلب ود إسرائيل، وحين يكتمل الانبطاح أمامها، وحين يطوي بساط القضية الفلسطينية ولو إلى حين، لتعيش إسرائيل في جوٍّ من الأمن والأمان ثم تعبث بمن شاءت من البلاد المجاورة، والأنظمة المتعددة وتُنسى من واقع الحكومات قضية فلسطين بعدما كانت هي المحور الذي تدور من حوله الأحداث في العالم العربي طيلة قرن من الزمان، قامت فيه ثورات وماتت أنظمة، وذهب عملاء، وظهر زعماء، وأعيد رسم خريطة الشرق غير مرة، فهل تتغير كذلك خريطة الشرق في العقد القادم في إسرائيل، أو العراق أو السودان، أو غير ذلك من البلاد؟

وإذا كنا قد استعرضنا سريعًا بعض الجوانب المُعتِمة في حياة الأمة العربية، فإننا نقول: إن الأمل لا يغيب في تحقيق نصر للإسلام والمسلمين، وقد ظهرت مقومات هذا الأمل في الصحوة الإسلامية التي ولدت بعد مرور ثلاثة عقود تقريبًا من القرن العشرين، ثم نمت في تدرج حتى بلغت مع نهايته مبلغًا لا بأس به من

الامتداد والاتساع، ونأمل أن يظل امتدادها واتساعها لتقوم بواجبها نحو الإسلام والمسلمين في العقود الأولى من الألفية الثالثة رغم شدة المضايقات والمتابعات. والله هو المستعان.

المؤسسات الاقتصادية:

المؤسسات الاقتصادية المنتجة هي روافد الاقتصاد الوطني، تمده بالقوة والحيوية والتجديد والنشاط إن قويت، وتكون عبئًا عليه وثقلاً إن تأخرت في إنتاجها، أو ضعفت عن القيام بأعبائها، وسواء كانت هذه المؤسسات حكومية أو شعبية، فإنها كلها أجزاء من الاقتصاد الوطني، الذي تقاس به بعض الشعوب الآن، فالشعب الياباني لا يملك قوة عسكرية تجعله مؤثرًا في الساحة الدولية، ولكنه يملك قوة اقتصادية هائلة تمكنه من التأثير القوي حتى على الدول العسكرية الكبيرة، وحين غزت قوة الاقتصاد الياباني ممثلة في آلاف السيارات الصغيرة التي تخترق شوارع وطرقات ومسالك الولايات المتحدة الأمريكية لم تملك الولايات المتحدة إلا أن تتباحث مع اليابان من أجل حل هذه المشكلة.

والشعب الماليزي ـ الآن ـ يمتلك من المؤسسات الاقتصادية القوية ما به استطاعت الحكومة الماليزية أن تقدم ملايين الدنانير للمشاريع الإندونيسية في صورة قروض، مع أن الشعب الإندونيسي يبلغ في تعداده أضعاف الشعب الماليزي.

الأمر إذًا لا يتوقف على كثرة العدد البشري أو قلته، وإنما يتوقف على قوة وزيادة الإنتاج أو ضعفه.

ومن هنا فإن أملنا قوي في أن تبقى قوة الاقتصاد الوطني الكويتي مستمرة، وأن تتعدد روافد هذا الاقتصاد فلا يقتصر على سلعة واحدة هي «النفط» بل يمتد ويتسع ليشمل كل ما يخدم الإنسان ويسد حاجة من حاجاته صغيرة كانت أو كبيرة.

وشركة نايف للدواجن إحدى المؤسسات المنتجة التي تخدم الاقتصاد الوطني، وتقدم للإنسان في الكويت بعض ما يحتاج إليه في حياته اليومية، وقد بدأت مشوار إنتاجها صغيرة، ثم اتسعت وامتدت لتصل إلى كل ناحية من أرض الكويت تقريبًا، ومعنى ذلك أنها تتقدم بنجاح وثبات على طريق الإنتاج، وهذا النجاح الثابت المتدرج يستحق التشجيع لا التقويض، ويستحق التقدير والإشادة لا التعويق والإبادة، وإذا

كانت للنجاح ضريبة مفروضة كما يقولون، فهل لا بد أن تكون الضريبة لطمة قاسية أو لكمة قاضية؟

ولماذا تشجع الحكومات في الدول القوية المؤسسات، بل والأفراد على أن يضيفوا إلى نجاحاتهم نجاحا؟

ثم إن أمر القضية المرفوعة ضدها تذبذبت فيها أقوال صاحبها حول الأسباب الحقيقية التي كانت السبب في رفع القضية سنة ١٩٩٧م مما حدا صاحبها إلى التنازل عن شكواه، وجعل النيابة تحفظ القضية إداريًا في ٨/ ٩/ ٩٧. وإذا كان هناك حكم ابتدائي قد صدر ضد الشركة بعدما أثيرت القضية من جديد، فإن الشركة قد اتخذت الإجراءات القانونية لاستئناف الحكم، فلماذا هذه الضجة المفتعلة، مع أننا في انتظار حكم نهائي يحسم الأمر ويرد الحق إلى أصحابه إن شاء الله؟

إننا نود من كل ناجح في هذا البلد في أي مجال أن يستمر على نجاحه، وألا توضع العقبات في طريقه وأن يزداد عملا وقوة وإنتاجًا ونجاحًا فهذا ـ في النهاية ـ يؤدي إلى قوة الكويت ونجاحها.

سَلامٌ عَلَى مَنْ هُوَ لِلْحَقِّ عَارِفُ ... وَمَنْ هُوَ عِنْدَ الشَّرْعِ بِالْحَزْمِ وَاقِفُ

عَرَفْنَاكَ مَشْهُورَ الْعَدَالَةِ مرْضِيًا ... وَمَا جَاهِلٌ شَيْئًا كَمَنْ هُوَ عَارِفُ

بَرِئْنَا إِلَى الرَّحْمَنِ مِمَّا يَقُولُهُ ... فَرِيقٌ عَلَى قَوْلِ الْخَنَا مُتَحَالِفُ

رَمَوْكَ بِبُهْتَانٍ مِنَ الْقَوْلِ مُفْتَرًى ... وَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الْبَرِيئَةُ (نَايِفُ)

تَعَاوَرَكَ الْحُسَّادُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ... بِزُورٍ لَهُ الذَّوْقُ السَّلِيمُ يُخَالِفُ

فَكُلُّ حَسُودٍ عَنْ مَدَاكَ مُقَصِّرٌ ... يُلَفِّقُ تَلْفِيقًا بِهِ لَكَ قَاذِفُ

فَلَيْسَ يَضُرُّ (الْبَدْرَ) بَعْدَ تَمَامِهِ ... إِذَا مِنْهُ يَوْمًا حَاوَلَ النَّيْلَ كَاسِفُ

فَلا زِلْتَ فِي أَمْنٍ وَعِزٍّ وَمَنْعَةٍ ... يُظِلُّكَ مِنْ فَضْلِ الْمُهَيْمِنِ وَارِفُ

وَوُقِيتَ كَيْدَ الْحَاسِدِينَ وَشَرَّهُمْ ... وَأَبْعَدَ مِنْكَ السُّوءَ مَنْ هُوَ صَارِفُ

وَخَيْرُ صَلاةٍ مَعَ سَلامٍ مُتَمَّمٍ ... عَلَى الْمُصْطَفَى مَا طَافَ بِالْبَيْتِ طَائِفُ

قال المتنبي:

كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْبًا فَيَعْجِزُكُمْ   وَيَكْرَهُ اللَّهُ مَا تَأْتُونَ وَالْكَرَمُ
مَا أَبْعَدَ الْعَيْبَ وَالنُّقْصَانَ عَنْ شَرَفِي   أَنَا الثُّرَيَّا وَذَانِ الشَّيْبُ وَالْهَرَمُ

وقال أيضا:

يُرِيدُ بِكَ الْحُسَّادُ مَا اللَّهُ دَافِعٌ   وَسُمْرُ الْعَوَالِي وَالْحَدِيدُ الْمُذَرَّبُ

وقال آخر:

حَسَدُوا الْفَتَى إِذْ لَمْ يَنَالُوا سَعْيَهُ   فَالْقَوْمُ أَعْدَاءٌ لَهُ وَخُصُومُ

همسات:

أ- حق العمل:

إن حاجة الإنسان إلى أوقات من الراحة يُرفه فيها عن نفسه ويخفف فيها من إعياء العمل والجهد، أمر فطري وضروري، إذ إن لكل عامل مرحلة فتور، وإن القلوب يصيبها الكلل في العمل المستمر وإذا كلّت عميت، بل إن الإسلام اعتبر أن المسلم ـ حتى في أوقات العبادة وما فيها من لذة القرب بين العبد وربه ـ قد يصيبه التعب والكلل في النوافل. فإذا وجد ذلك فعليه أن يستريح ليجدد طاقته ونشاطه ويعود أكثر إقبالاً وحضوراً، فقد جاء في الحديث الشريف عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا نعس أحدكم وهو يصلي (صلاة التهجد) فليرقد، حتى يذهب عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه**»[(١)].

إلا أن سنة الراحة ينبغي أن تعقبها سنة العمل والاستئناف، وهذه سنة الكون كله. فالحياة تسير في دورات متعاقبة بين النهار والليل، بين الضياء والظلام، بين البرد والحر .. وبذلك تظل في حركة وتجدد دائم.

وبما أننا قد استرحنا يومي الخميس والجمعة، واعتبرنا ذلك حقًا من حقوق الإنسان، فإن سنة الحياة توجب علينا القيام بالشق الآخر ألا وهو العمل، والعمل

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٢١٢)، ومسلم (٧٨٦).

المقبول ليس هو التواجد في مكان العمــل، وإنما هو بذل الجهد في القيام بحق العمل وإتقانه وإحسانه وتيــسير خدماته للناس، كل الناس دون أن يقتــصر ذلك على فئة أو طائفة بعينها، وإنما من حق الناس أجمعين أن يتمــتعوا بثمرة العمل في وزارة معينة، أو مؤســسة من المؤســسات. . والذين يتــواجدون في مكان عملهــم دون أن ينجزوا شيــئًا، أو يخــدموا عــملاً، أو يحــسنوا أداءً، أو ييســروا مصلحــة للناس، هم إلى المعوقات أقرب منهم إلى أي شيء آخر . . وهل يسلم أحد منا من الوقوع تحت وطأة المقولة الشهيــرة «فوت باكر»؟! وهل تجد غير قلة من بين العــاملين هم الذين يقدمون للناس ما يستطيــعون من خدمات وتسهيلات، وهم الذين يتــقنون أعمالهم، ويميلون إلى الإحسان في وظائفهم؟!.

وهؤلاء هم الذين يتــوافقــون مع سنة الحــياة في الراحــة والعمل، فــيســتريحــون ويعملون، وأما غيرهم ممن لم يعملوا شيئًا ويودون الراحة التي لا يعقبها عمل ولا يتبعها تعب، فإنهم مخالفون للدين ولطبيعة الحياة وسنتها، وللفطرة البشرية السوية وطريقتها.

وليت كل الذين يســتمــتعــون بالراحة يعــودون إلى العمل بنفس روح الــشوق والحب لخدمة الناس وتيسير الأمور لتستقيم الحياة وينعم الأحياء.

ب. دموع وقبلات الرئيس عرفات:

قال الرئيس عــرفات عن «لينا» أرملة رابين التي شــاركت في الاحتفــال التأبيني الذي أقيم في أوسلو بمناســبة مرور أربع سنوات على قتله: إن هذه الســيدة جعلتني أنفعل وأتأثر حتى أدمعت عيناي، وإن حديثهــا وأقوالها مسًّا قلبي وعقلي فلم أستطع أن أتمالك نفسي فقمت وَقَبَّلْتُ وجْنَتَيْهَا عن قصد أمام أبصار العالم كله.

وليس لنا تعليق على هــذا الكلام وذاك التصــرف إلا أن ننقل للقارئ بعــض ما كتبه الأســتاذ: «غسان الإمام» بجريدة الشرق الأوســط العدد ٧٦٤٨، قال على لسان عرفات يخاطب «لينا»:

سيدتي، سمعت خطابك في أوسلو.

سلوا قلبي . . أوسلو نقطة ضعفي

لا أتمالك نفسي

هاي قبلة على خدك

أنت أرملة عظيمة

سيدتي،

يعيرني أعدائي بشؤم قبلاتي

مجرد قضاء وقدر

قبّلت عبدالناصر

قبلت الخميني

قبلت الغالي بطرس

قبلت الغالي بيريز

قبلت الحسين

بوسة لصدام

وبوسة لأم المعارك

لم أقبل زوجك

ربت على ظهره

فاخترق رصاصهم مكان أصابعي

لا تتشاءمي، سيدتي،

هات خدك الأيسر

وهاي بوسة لأم الشجعان

جـ- الرئيس (واحد) المسلم:

قامت مظاهرات طلابية في إندونيسيا أكبر الدول الإسلامية (٢٢٠ مليون نسمة) تعلن رفضهـا للخطوة التي أعلن الرئيس عبد الرحمن واحـد الإزماع على اتخاذها، وهي إقامة علاقـات تجارية مع إسرائيل بحجة دعم الاقتـصاد الإندونيسي، والرئيس

الإندونيسي الجديد يثبت بذلك ما قاله عنه الأستاذ: «فهمي هويدي» من أنه علماني خرج من تحت العمامة وتولى قبل رئاسة الدولة الإندونيسية رئاسة هيئة العلماء، وزار إسرائيل عدة مرات، ويحاول أن يطبق الفكر العلماني بحذافيره، ومن أوائل هذا الفكر تنحية الجانب الديني عند المسلمين في معاملة الناس، مع أن الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي يجعل كل حركة المسلم في يقظته ونومه وملبسه ومأكله ومشربه وقوله وفعله، بل ونيته وسلوكه كل هذا داخل في إطار الدين ولا يمكن فصله عنه إلا إذا فصلنا بين الرأس والجسد، أو الروح والبدن.

فكيف لفرد مسلم أن يغفل الجانب الديني في حركته؟ وكيف يمكن قبول إبعاد الدين عن مسائل العلاقات بين الأفراد أو بين الأمم والشعوب؟ ولماذا تظهر ذلك إسرائيل ولا تخشى شيئًا، بل ويحسن العالم الخارجي كله إليها؟ ولماذا لا يتعامل الرئيس (واحد) المسلم مع اليهود بالمثل؟ ولماذا يصرون هم على يهوديتهم في محادثاتهم ومعاهداتهم وعملهم وراحتهم، ونخالف نحن ونحذر ونتوارى؟

وأين نحن من قول الله ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾[(١)]. فهل يقول أحد ـ الآن ـ في مؤسسة دولية أو محادثات رسمية، أو علاقات دولية: إنني من المسلمين؟

وهل إقامة علاقات تجارية مع إسرائيل مقدمة عند الرئيس (واحد) على كثير من قضايا الشعب الإندونيسي العاجلة؟

(١) فصلت: ٣٣.

المبحث الخامس

أرقام وكلمات

الأرقام جزء متميز من الألفاظ المنطوقة أو المكتوبة للدلالة على شيء معين، من حيث الكمية أو المقدار أو الوزن أو المساحة، إنها جزء من اللغة العالمية يتحد فيها المعنى ويختلف اللفظ، فالرقم (١) مثلاً لا يخرج في معناه في أي لغة من لغات العالم عن المعنى الذي نريده نحن حين ننطق كلمة (واحد)، وإن تعددت ألفاظه واختلفت حروفه من لغة إلى أخرى.

والموازنات الدولية الصحيحة، ومقياس التقدم أو التأخر في عالم الماديات أو الإنسانيات أو غيرهما، يقاس بالأرقام؛ لأنها تعد لغة عالمية، ولأنها دقيقة لا تحتمل أكثر من معنى، ولأنها مقياس صادق عند جميع الأمم والبلاد، والاحتراز المطلوب عند تحديد الرقم، هو أن يعبر عن شيء واقعي، لا مجال فيه للظن أو الوهم، أو الحدس والتخمين، أو الكذب والتزييف. وإذا أمكن تحقيق هذه الأمور قبل وضع الأرقام الدالة على شيء ما، جاء الرقم ليقطع كل قول آخر ويقضي على كل شك، وكأنما هو جَهِيزَة التي ضرب بها المثل في قولهم: «قطعت جهيزة قول كل خطيب».

وها هي ذي بعض الأرقام في مجالات مختلفة وتعقيبات عليها.

أولا: التقدم العلمي: كم يصرف العالم سنويًا على البحث العلمي؟ كم يصرف العرب وكم تصرف إسرائيل؟!

تصرف	بليون دولار	النسبة «مقربة»
الولايات المتحدة	١٧٦	٤٠٪
أوروبا	١٣٢	٣٠٪
اليابان وشرق آسيا	٨٧	٢٠٪
الصين	٢٣	٥٪
أمريكا اللاتينية	٩,٢	٢٪
أفريقيا «جنوب الصحراء»	٢,٣	٠,٥٪
الدول العربية	١,٨	٠,٤٪

كم تنفق إسرائيل؟؟

تصرف بليون دولار أو نصف العالم العربي، ومعنى ذلك أن:

حصة الفرد الأمريكي ٧٠٠ دولار

حصة الفرد الإسرائيلي ٢٥٠ دولارًا

حصة الفرد العربي ٦ دولارات فقط

أهم من ذلك أن حصة الفرد العربي كانت ٨ دولارات قبل ١٠ سنوات ثم انخفضت. وهذه الأرقام لا تخلو من الألم ولكنها تعكس واقعنا.

التسارع العلمي:

- احتاج الراديو ٣٠ عامًا ليصل ٥٠ مليونًا.
- واحتاج التلفزيون ١٣ عامًا ليصل ٥٠ مليونًا.
- واحتاج الإنترنت ٣ أعوام ليصل ٥٠ مليونًا[١].

وبملاحظة هذه الأرقام نجد أن أقل الدول في ميزانية البحث العلمي هي الدول العربية ٤ ,٠٪.

وأن حصة الفرد الإسرائيلي تزيد أكثر من واحد وأربعين ضعفًا عن حصة الفرد العربي.

وأن حصة الفرد الأمريكي تزيد أكثر من ١١٦ ضعفًا عن حصة الفرد العربي.

فهل نحن في عالمنا العربي مستغنون عن البحث العلمي الذي هو من أهم سمات العصر الحاضر؟!

إن من اكتسب العلم اكتسب احترام العالم وتقديره، واكتسب القوة اللازمة لردع الآخرين، واكتسب القدرة على المحافظة على ما عنده من خيرات، وعرف الطريق الصحيح لتنميتها، واكتسب بعدًا عن الخرافات والأوهام والأساطير، وعاش مستريحًا في دنياه .. وكم كان سلفنا الصالح مدركًا لهذه المعاني ولما هو أكثر منها، حتى شاع

(١) الوطن في ١٩٩٩/٦/٣م، الأستاذ يوسف الشيراوي.

بين الناس قولهم: «إن أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإن أردت الآخرة فعليك بالعلم».

والعلم الذي أقصده لا يقتصر على علم الدين الذي يجب على كل مسلم، قارئًا كان أو غير قارئ أن يحصل قدرًا منه، تصح به عبادته ومعاملاته في الحياة. فهذا العلم الديني جزء من العلم بمعناه العام. وعلوم الدنيا الكثيرة ينبغي أن نأخذ منها كما يأخذ الآخرون، وأن نهتم بها كما يهتمون، إذ لا نستطيع أن نقيم في حياتنا دينًا صحيحًا في دنيا خربة؛ لأن الدين عمران للقلوب وعمران للأرض، وإقامة للحياة فيها على أسس من دعائم الاستخلاف الذي أوكله الله للناس ﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾[١]. وعمارة الأرض بدون الاهتمام بعلوم الدنيا ضرب من العبث في عالم اليوم، الذي يتقدم فيه الناس في المغرب والمشرق باستثناء العالم الإسلامي الذي يحافظ على التخلف العلمي المناقض للدين الإسلامي الذي يدين به.

والنصوص الحاثة في القرآن والسنة على العلم والتعلم كثيرة، ولكن المسلمين ـ اليوم ـ يرددونها في مؤتمراتهم ومجامعهم، ثم يكتفون منها بهذا القدر .. وكأنهم نسوا أن النصوص الشرعية جاءت لتوجيه حياة الناس الوجهة الصحيحة التي تستقيم بها أمورهم، وترتقي في ضوئها شئونهم، إن طبقوها فعلاً لا قولاً وحَسْب، وعملوا على تحقيقها بكل جهد مستطاع ولم يدخروا وقتًا أو جهدًا أو مالاً في سبيل تحقيقها، وهذا ما لا يعمله المسلمون الآن، والعجيب الغريب أن الذين لا دين لهم، أو لا دين صحيحًا لهم يقتحمون ميدان العلم بكل قوة، بينما نحن نصد عنه ونبتعد بكل قوة.

فكيف نتقدم، وكيف نحيي أنفسنا، وكيف نحافظ على أرضنا وأموالنا .. وكيف وكيف؟

وأسئلة عديدة تدفعنا دفعًا لأن نحاول أن نتجه إلى طريق العلم، الذي هو طريق التقدم، وبغيره فنحن خارج دائرة العالم المعروف.

ناقوس الخطر:

وسائل التوجيه والتثقيف المسيطرة على الرأي العام من إذاعة وتلفاز وإنترنت

(١) هود: ٦١.

وغيرها، لا يمكن الاستـغناء عنها أو عن بعضها في الوقت الراهن، غيـر مدة محدودة عند بعض الناس، وتكـمن مشكلة الـراديو في أنه قد يبـث أغنية هابطـة، أو معلومـة خاطئة، أو مسرحـية هزيلة، أو تمثيلية ضعيفة، أما مشـكلة التلفاز، فهي أعظم وأكبر، خاصة وقد تلبد الجو كله بغيوم (الفـضائيات) التي تدخل كل بيت بغير استئذان، ويبث فيها كثيرًا من الانحرافات المنكرة، والطـرق الشيطانية المنحرفة المضللة، التي تعتبر خطرًا على البنين والبنات وخـاصة من هم فـي سن البلوغ والمراهقة، وقـد تدفع بعض كـبار السن إلى اقتراف المنكرات وارتكاب الجرائم والمحرمات. وخطر الإنترنت أعظم وأشد.

ولسنا نطلب من أحد أن يبتعد عن هذه الوسائل، ولكنا نطلب من كل أب وكل أم أن يوقظ الضمـير الديني في أهل بيـته، وأن يحسن مـراقبـة هذه الأدوات بحيث يقتصر اسـتخدامها على النافع المفيـد ويتجنب الضار المفسد، ومراقبـة استخدام هذه الوسائل أمر لا بد منه، حـتى لا تضيع أخلاقنا وقيمنا وعاداتنا وتقـاليدنا، ثم نفاجأ بضياع جيل كامل من أبنائنا وبناتنا. إنها مسئوليتنا التي لا ينبغي التفريط فيها «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**»[1].

أ ـ حالات اجتماعية:

بلغت نسبة الطلاق إلى نسبة الزواج سنة ١٩٨٥م في الكويت ٣٢٪								
=	=	=	=	=	=	١٩٩٠م =	= =	٤٥٪
=	=	=	=	=	=	١٩٩٥م =	= =	٣٣,٦٪

وبين هذه السنوات قد نجد أن النسبـة أقل من ذلك كما حدث سنة ١٩٩٢، إذ كانت النسبة ٢٥,٨٪، ونسبة الطلاق التي قاربت نصف حـالات الزواج سنة ١٩٩٠ يمكن اعتبار جزء منها مـتأثرًا بحالة القلق والضيق التي سبـبها الغزو العراقي مما أحدث انعكاسًـا سلبيًا على الناحية الاجتماعية تمثل في زيادة عدد حـالات الطلاق، وما يتبعها من مشاكل تلحق الأسرة والبيت والأولاد، وتسبب أضرارًا نفسية للزوجة وللزوج ولعائلتيهما.

وانخفاض النسبة سنة ١٩٩٢ يمكن إرجاعه لاستقرار النفوس ـ بعد تحرير الكويت ـ وإحساس الناس بالراحة، وأنهم خرجوا من محنة كـبيرة بعد أن تحملوا آلامها، فلا ينبغي أن يتأثروا بشدائد صغيرة تحدث في البيت لسبب أو لآخر.

---

(١) رواه البخارى (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩) عن ابن عمر.

وفيما عدا هاتين السنتين، فإن النسبة تقف تقريبًا عند ثلث حالات الزواج، وهي نسبة ليست هينة ولا صغيرة، وإذا كان الفشل يلحق حالة واحدة من بين كل ثلاث زيجات تتم، فإن معنى ذلك أننا نهدم ثلث البناء الاجتماعي، وأن ثلث الشباب الكويتي عندهم مشاكل استعصت عليهم، فلم يجدوا منها مخرجًا إلا بالطلاق. النسبة كبيرة وهي محتاجة إلى تربويين يبحثون أسبابها وكيفية التغلب عليها.

ومقارنة نسبة الطلاق الكويتية بنسبة الطلاق في الولايات المتحدة مثلاً، والخروج من ذلك بأن النسبة في الكويت أقل من غيرها ليس من الإنصاف؛ لأننا في الكويت نعتبر الزواج سكنًا ومودة ورحمة ـ كما أخبرنا الله في كتابه الكريم: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾** [1]. أما في غير بلاد الإسلام فالزواج منفعة أو شهوة عندهم، وقد يخلو من السكن والرحمة.

ولكل شعب طبيعته ومؤثراته وميراثه الثقافي الفكري وعاداته الاجتماعية، وهذه كلها تعمل على نجاح أو إخفاق حالات الزواج، وهي مختلفة في الكويت وبلاد العالم الإسلامي عن غيرها من البلاد الغربية أو الشرقية، ودون خوض فيما يفعله المطلقون والمطلقات وغير المتزوجين في تلك البلاد نذكر ذلك الرقم الذي نشرته مجلة تايم الأمريكية قريبًا وهو أن ٣٢٪ من نسبة الذين يعيشون معًا في النرويج غير قائمة على الزواج.

ولذا فإننا نقول: إن نسبة الطلاق في الكويت كبيرة، وإن على المصلحين دورًا كبيرًا في محاولتهم تخفيف هذه المشكلة بإزالة أسبابها، وبالتوعية الدينية الدائمة، وبالتذكير الدائم يقول الله: **﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾** [2].

ب ـ أرقام من كوسوفا:

تغطي صفحة هذا الإقليم حوالي ١١ ألف كيلو متر مربع توزعت عليها ١٣٤٨ مدينة وقرية، تتصدرها سبع مدن كبرى. الناس وصل عددهم في إحصاء عام ٨١ إلى مليون و٥٨٤ ألف نسمة. السهول والوديان تشكل ٣٦,٥٪ من المساحة، المرتفعات والجبال والغابات تحتل نفس النسبة، المساحة الباقية لحساب الأنهار، وأهمها

---

(١) الروم: ٢١.　　(٢) النساء: ١٩.

نهر مبيلي دريم «١١٢ كم» وإيبار «٨٥ كم» ونياكا «٦٧ كم».

تجسد بريشتينا ـ عاصمة الإقليم ـ ومدن أخرى قضية التعدد في الهوية على الطبيعة وهي القضية التي تفجرت في السنوات الأخيرة في البوسنة والهرسك أولا، ثم في كوسوفا على يد الصرب الذين فعلوا الأفاعيل في الإقليم، وما زالت آلام سكانه الألبان وأحزانهم تتوالى حتى بعد عودة بعضهم إلى بلاده، إذ سرعان ما يكتشف أن قريته قد أحرقت، أو أن بيته قد دمر، أو أن أقاربه قد رحلوا إلى الدار الآخرة بعد أن جمعهم الصرب وقتلوهم ودفنوهم في مقابر جماعية، مما يلزم المسلمين في كل أرض أن يتواصلوا معهم وأن يعملوا على حل بعض مشكلاتهم والتخفيف من آلامهم.

وإقليم كوسوفا يعتبر في منطقته كثير التخلف نظرًا لضعف دخل الفرد هناك قبل مرحلة التفريغ الأخيرة في الأزمة التي ما زالت ممتدة، ففي إحصاء نشرته مجلة «نين» اليوغوسلافية منذ عدة سنوات لمتوسطات الدخول في مختلف أقاليم وجمهوريات يوغوسلافيا، تبين أنه في الفترة من سنة ٥٣ إلى ٧٩، زاد دخل الفرد في جمهورية سلوفينيا «لاحظ أنها في الشمال» من ٩٣٥ إلى ٤٩٣٦ دولارًا، أما جمهورية صربيا التي تطوق كوسوفا من ثلاث جهات، فقد زاد دخل الفرد فيها خلال تلك الفترة من ٥٦١ إلى ٢٣٩٠ دولارًا. وفي جمهورية الجبل الأسود الملاصقة للإقليم من ناحية الغرب، زاد الدخل من ٤٣٣ إلى ١٥٣٤ دولارًا، أما في كوسوفا، فإن دخل الفرد في سنة ٥٣ لم يتجاوز ٢٦٨ دولارًا، وبعد أكثر من ربع قرن صار الإنسان الكوسوفيّ وهو على مشارف الثمانينات لا يزال أقل بحوالي ٢٥٠ دولارًا من الدخل.

وبلغ عدد سكان كوسوفا في إحصاء ٨١، مليونًا و ٥٨٤ ألف نسمة عن تعداد ٧١، ولا بد أن نقرر أن سكان كوسوفا ليسوا كلهم ألبانا، وليسوا كلهم مسلمين. ولكن نتيجة لعمليات الاتصال والتهجير التي كان ضروريًا أن تتم عبر السنوات الماضية، فإن نسبة الألبان في كوسوفا أصبحت ٧٧,٤٪ - أغلبيتهم الساحقة (٩٥٪) من المسلمين. بينما يشكل الصربيون ١٨,٥٪ [١].

---

(١) انظر كتاب: «المسلمون من آسيا إلى أوروبا» للأستاذ / فهمي هويدي وآخرين.

بقي أن نقول: إن المبلغ الذي كان ينفق يوميًا على كل لاجئ من لاجئي كوسوفا هو دولار واحد و٦,٠ من الدولار.

وأن مئات الألوف منهم ما زالوا في مهجرهم الذي فروا إليه.

وأن عشرات الألوف من شبابهم ورجالهم قد قتلوا، وأن حالات اغتصاب كثيرة قد تمت، وأن الأعداد والأرقام الحقيقية في هذه الأمور غير متوافرة، وإذا توافرت، فإنها لا تعبر عن الواقع؛ لأن المأساة أكبر من كل تصور.

جـ. جوانب عسكرية:

وبينما يبلغ متوسط ما ينفقه العالم كنسبة مئوية من الناتج المحلي على الجوانب العسكرية ٢,٣٪، فإن الإنفاق على الدفاع في الدول العربية قد بلغ ٦,٧٪ ومن الناتج المحلي .. وبالمقارنة مع المجموعات الدولية المختلفة نجد ذلك الفرق الشاسع بين ما ننفق وما ينفقون. في عام ١٩٩٤، لم يجاوز ما خصصته الدول الصناعية من ناتجها المحلي ١,٣٪ من أجل الإنفاق على الدفاع .. وتهبط النسبة في جنوب شرق آسيا والمحيط الهادي إلى ٢,٦٪ .. ثم تهبط أكثر في دول أمريكا اللاتينية والبحر الكاريبي لتصل إلى ١,٦٪ .. ولكننا ـ في الوطن العربي ـ نسجل السبق: ٦,٧٪ من ناتجنا المحلي يتجه للدفاع .. وهو أيضًا رقم متوسط وغير معبر .. فالفرق شاسع بين دول ودول، على خريطة الوطن العربي ذاته.

النسبة ترتفع لتصل إلى أقصاها بالنسبة لسلطنة عمان، فنحو سدس الناتج وبالتحديد ١٥,٩٪ منه يتجه للدفاع ، وهو ما يجعل عمان الأولى في الوطن العربي كله من حيث ما تخصصه من نسبة الدخل للقوات المسلحة! يليها العراق ١٤,٦٪، ثم الكويت١٢,٢٪، فالسعودية ١١,٢٪ .. و ..

في أعلى سلم الإنفاق العسكري تقف هذه الدول، ولكن في أسفله تقف مجموعة أخرى .. فتأتي تونس في نهاية السلم لتسجل إنفاقًا عسكريًا متواضعًا لا يتجاوز ١,٤٪ من الناتج المحلي .. أيضًا تأتي الجزائر لتقدم نسبة متواضعة من الإنفاق العسكري لا تتجاوز ٢,٧٪ من الناتج .. ولا يتجاوز إنفاق كل من السودان وليبيا نسبة الـ ٤٪. بينما ترتفع النسبة قليلاً بالنسبة لمصر ٥,٩٪ من الناتج المحلي على الدفاع.

العرب إذًا هم الأكثر إنفاقًا على الدفاع في العالم كله، وداخل المجموعة العربية تتفاوت ميزانيات الحرب ونسبتها للناتج المحلي . . ولكن، وبالقياس لعدد سكان كل دولة، يبدو التفاوت أكثر وضوحًا.

كانت الكويت ـ وبرغم ظروف العدوان عليها ـ هي الثالثة من حيث نسبة ما تخصصه للدفاع، وسبقتها كل من سلطنة عمان والعراق. ولكن، وبمقياس عدد السكان، فإن الأمر يختلف، فتقفز الكويت إلى المكان الأول، ليس بالنسبة للوطن العربي، ولكن بالنسبة للعالم الثالث أيضًا.

في عام ١٩٩٤ كان نصيب الفرد من الإنفاق العسكري في الكويت ٢٠١٩ دولارًا وبفارق كبير تأتي بعدها سلطنة عمان ١١٤٩ دولارًا . . والسعودية ١١٠٩ دولارات . . وبينما يخصص العراق ـ طبقًا لنفس التقرير ـ نسبة أعلى من ناتجه للدفاع قياسًا على الكويت والسعودية، فإنه ـ وبسبب حجم السكان ـ يبدو نصيب الفرد فيه متواضعًا حيث لا يزيد على ١٣٢ دولارًا . . بينما يستمر المتوسط في الهبوط ليصل إلى ١١ دولارًا للفرد في السودان و٢٥ دولارًا للفرد في تونس و٢٩ دولارًا للفرد في اليمن![١]. وتعقيبًا على هذه الأرقام نقول: لا تعليق.

د ـ جرائم وأمراض:

هناك ١٥ ألف امرأة روسية تقتل سنويًا في حوادث العنف العائلي، وهناك ١٦ ألفا من زعماء الجريمة المنظمة تم اعتقالهم في روسيا العام الماضي، وقد كشفت الحكومة الروسية التي كان يتولاها تشرنو ميردين أن الأجهزة الرسمية رصدت تهريب ما يقرب من ملياري دولار شهريًا.

وفي روسيا أيضًا قتل ٢١ ألف روسي في سنة ١٩٩٨م وحدها بسبب تناولهم للكحول المغشوش.

---

(١) أرقام تصنع العالم. الأستاذ/ محمود المراغي.

فإذا ما انتقلنا إلى أوروبا الغربية وجدنا أن امرأة واحدة من كل خمس نساء تقع ضحية أعمال عنف مرتبطة بجنسها في دول مجلس أوروبا الأربعين.

وفي أمريكا يقدم على القمار ٥ ملايين أمريكي ينفقون ٥٠٠ مليار دولار سنويا، ويفكر ٨٠٪ منهم في الانتحار، وينتحر بالفعل من بينهم ما بين ١٣ إلى ٢٠٪ أو يقدمون على الانتحار. ولا يقتصر أمر القمار على الرجال وحدهم؛ لأن ثلث هذا العدد من النساء وأكثرهن من المراهقات، وهذه بعض الآثار الهامشية للحضارة المادية، التي إن كان لها جانب مشرق في العلم التجريبي والحق السياسي فإن لها جوانب معتمة في الحياة الاجتماعية، والأخلاقية، وفي العادات والتقاليد. وعلى الذين يقلدون أصحاب هذه الحضارة أن يبحثوا عن الجوانب المشرقة، وأن يبتعدوا عن الجوانب المظلمة إن كانوا بحق يودون لبلادهم التقدم والازدهار.

هـ ـ أرقام للتأمل:

ـ ١,٦ دولار: المبلغ المنفق يوميا على كل من لاجئي كوسوفو.

ـ ١١ سنتا: المبلغ المنفق يوميا على كل من لاجئي أفريقيا.

ـ ٣٧: عدد الدول التي نفذت حكم الإعدام العام الماضي ـ٨٠٪ منها في الصين وإيران والكونغو ـ كينشاسا والولايات المتحدة.

ـ بليون: عدد الأشخاص الذين يعيشون في مناطق سكن عشوائي في العالم.

ـ ٣٢٪: نسبة النرويجيين الذين يعيشون معا ولكن من دون زواج.

ـ ٤٩٧,٥٠٠ دولار: المبلغ الذي دفع في مزاد بنيويورك للجيتار الذي سجل به المغني إيريك كلابتون أغنية «ليلى».

ـ ١٠٠ تريليون: عدد خلايا جسم الإنسان ـ٩٠٪ منها تسكنها البكتريا.

ـ ٥ مليمترات: المسافة التي أرجع بها المهندسون برج بيزا عن ميلانه منذ بدء العمل فيه في فبراير (شباط) الماضي.

ـ ٢٥ مليون دولار: المبلغ الذي تبـرع به إمبراطور «مايكروسوفـت» بيل جيتس وزوجته لبرنامج «مصل مضاد للإيدز».

ـ ٣٠: عدد الأعـوام التي يتعين على شخص من العـالم الثالث أن يعمل فيـها للحصول على مبلغ يتيح له شراء العقاقير المكافحة لفيروس الإيدز!!.

ـ١٢ بليون عام: عمر الكون تبعًا لحسابات العلماء.

ـ ٣٠٠ مليون: عدد المدخنين في الصين ـ أي أكثـر من إجمالي العدد في سائر دول العالم الصناعي. ويذكر أن حكومة بكين تحصل على ١٠ بلايين دولار في العام من الضرائب المفروضة على التبغ(١).

(١) مجلة تايم الأمريكية، نقلا عن جريدة: الشرق الأوسط.

المبحث السادس
مشاكل وهموم

١ ـ الجميع يتخلى عن الشيشان:

شدت الحرب الشيشانية الأولى أنظار العالم، نظرًا للأداء البطولي لجنود الشيشان بقيادة الجنرال جوهر دوداييف، وأثبت كثير منهم أنهم أبطال يستطيعون أن يضربوا الدب الروسي ضربات موجعة توقف سيره، وتغير اتجاهه، وساعد على ذلك تفكك الاتحاد السوفييتي قبلها بسنوات محدودة، وتدهور الاقتصاد الروسي، وشيوع الفساد الإداري هناك. مما جعل الشيشانيين قادرين على أن يحققوا ما يريدون أو بعض ما يريدون، رغم اجتياح القوات الروسية لأراضي الشيشان، واستيلائهم على العاصمة جروزني.

وجاءت هذه الأيام حرب الشيشان الثانية، التي تعلم فيها الروس كيف يتحركون على أرض الشيشان بدون خسائر تذكر. فقد وعوا درس الحرب الأولى، ووعوا درس اشتراك قواتهم إلى جانب الصرب في كوسوفا، ووعوا درس المشاركة في المصالح، حتى لا تقتسم الغنائم بعيدًا عنهم، فاستولوا على مطار كوسوفا حتى أجبروا القوات الدولية، التي لم يكن في حسبانها إعطاءهم أي دور، أن تقبل وجودهم هناك وأن تعمل على كسب مودتهم تجنبًا للخلاف العسكري أو السياسي، فاكتسبت بذلك روسيا شيئًا من القوة المادية والمعنوية على السواء، تعلمت من خلالها أن تلقي بثقلها في أي ساحة لا يضاء فيها الضوء الأحمر من قبل أمريكا ومعها بقية الدول السبع الكبرى، التي تتحكم الآن في مصائر العالم، ولأن ساحة الشيشان ليس فيها أضواء حمراء منذرة، بل فيها أضواء خضراء مشجعة؛ لأن أمريكا منعت عن الشيشان العون الدولي بنفوذها في حلف الناتو، وغضت الطرف عمّا يفعله العسكريون الروس هناك؛ فإن القوات الروسية تتوغل في أراضي الشيشان منذ أسابيع وكأنها في نزهة عسكرية، أو في مناورة حيّة، وبعض المناورات يموت فيها من الجنود أضعاف من ماتوا في الشيشان. فأين أبطال الشيشان الذين كانوا في زمن دوداييف وهو قريب؟ وأين أبطالهم اليوم في زمن مسخادوف؟ وأين موقف العالم الإسلامي؟ وأين موقف العالم الخارجي؟

أما الشيشانيون فقد تمزقت أوصالهم بعد الانتصار السابق على الروس، وتفرقت

كلمتهم وتعددت الزعامات بينهم، وصار كل شخص بارز منهم ينظر لنفسه على أنه بطل الحرب، الذي له الحق المطلق في السُّلطة والشهرة، ولم يهتموا بمصالح العباد ولا إصلاح البلاد، فصارت بلادهم حين اقتحمها الروس -للمرة الثانية- قالب زُبْدٍ تجري فيه السكين، دون عناء أو تعب.

وأما العالم الإسلامي فلم يعدْ له مكان في صنع أي قرار دولي حتى فيما يتصل به، إلا فيما ندر ولم تعُدْ لدوله العديدة الممتدة على مساحة ضخمة من الأرض، تعج بجميع أنواع الثروات، توجيه أو حتى مشاركة فعالة في السياسة الدولية، بعد أن انشغلت كل دولة بمصلحتها عن غيرها، وتغافل الجميع وانشغلوا عن رابطة الإسلام التي تربطهم وتجمعهم، فلم تعد دولة منهم تهتم بأمر هذه الرابطة الإسلامية إن لم تتفق مع مصلحتها السياسية أو الاقتصادية، بل إن البعض يكيد للآخر تقربا لغير المسلمين، واستبقاءً لرضاهم، أو طلبًا لمعونة منهم.

وَفِيمَ يَكِيدُ بَعْضُكُمو لِبَعْضٍ وَتُبْدُونَ الْعَدَاوَةَ وَالخِصَامَا؟

ولذا حين يستنجد الشيشانيون بالبلاد الإسلامية تضيع صيحتهم؛ لأنهم ينادون من لا يجيبون :

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيّاً وَلكِنْ لاَ حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي

والموقف العالمي ليس له مصحلة تذكر في إيقاف حرب الشيشان، فلا يعنيه قتلاها؛ لأنهم مسلمون، ولا يطمع في أن يستولي على جزء من أراضيها فلا حاجة له في ذلك، وليس في باطن أرضها من الثروات ولا على ظهرها من الخيرات ما يثير لعابه فيتحرك من أجل إنقاذها، كما فعل في كوسوفا من قبل، وقد استطاع أن يفرض على أندونيسيا (٢٠٠ مليون مسلم) أن تسلم بحق تيمور الشرقية في الاستقلال؛ لأن أغلبهم مسيحيون، وحين دخل كوسوفا المسلمة كان ينظر إلى منطقة المعادن والمناجم فيها التي تقدر قيمتها بالمليارات، وينظر إلى الموقع الاستراتيجي لإقامة قاعدة عسكرية في منطقة البلقان التي تكون سندًا لقاعدته في شرق تركيا، ونظر إلى مصالحه السياسية في موقفه من كشمير حين ضغط على باكستان لتسحب قواتها من هناك في تحد واضح وإبراز مقصود للمصلحة الهندية؛ لأن الهند ستصبح

في العقود الأولى من القرن القادم أكبـر دولة من حيث تعداد السكان، وربما من أكبر الدول في مجال التسلح والعتاد.

التخلي عن الشيشانيين مـلازم للجميع، ومثلهم في ذلك كل بلد مسلم لا يملك من الثـروات طولاً ولا من القـوة حـولاً، ويفـرض هذا على الدول الإسـلامـيـة بل وعلى الجماعات الإسلامـية أن تفهم فقه الواقع على نحو صحيح، فـلا تسمح لأحد أن يزج بها في معركة خاسرة، أو أن يستدرجها إلى موقعة مهلكة جائرة؛ لأنها بذلك تكون قد فتحت الباب للقضاء على نفسها أو على الأقل لتأخير نموها وسيرها. فهل نحن متعظون؟

٢ ـ استنجاد بالبابا:

تخلى الجميـع عن الشيشان، ووجد (مـسخادوف) أنه هو وشعـبه يقف وحده في الساحة العسكرية أمام الدب الروسي، وأنه أشبه بالمصارع القديم الذي يلقى به في حلبة المصارعة أمـام الأسد الجائع. ومصيـر هذا المصارع معروف، يشاهـده الجميع ويتلذذون وينتشون بدمه النازف، وأوصاله الممزقة، ثم لا يغادرون أماكنهم إلا بعد أن يطمئنوا إلى أن الأسد قـد التهم فـريستـه، وأشبع جـوعتـه. هكذا الشعب الشـيشانـي أمام الدب الروسي، وما زالت جماهير الناس تشاهد العرض في صمت غريب وسكون مريب!!.

ومن بين المشاهديـن مسلمون يشـاركون أبناء الشعب الشـيشـاني في ديانته ولا يلقون بالاً للأذى الذي يصيبه، والنكال الذي يحيط به، وصـيحات الاستغاثة المدوية التي يطلقها مع أن من المبادئ الإسلامية: «**من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم**»[1]. وهذا الموقف الإسلامي المتخاذل دفع قائد الشيشـان أن يستغيث بالبابا وأن يرسل إليه رسالة تطلب تدخله الشخصي لإيقاف حرب الشيشان.

ولا لوم على الرجل ولا تثـريب، إلا إذا لُـمنَا المطعون؛ لأنه يتـألم، وإنما اللوم كل اللوم على أنفـسنا؛ لأننا أفقـدنا أنفسنا الحـد الأدنى المؤثر في أي قرار مـؤثر في السياسة الدولية ببعض تصرفاتنا غير المسئولة.

ومن قبل أعلن الأمير عبدالله بن زايد أن هناك مسئولين عربًا طمأنوا شركة (والت ديزني) بأن المقاطعة العربية لهـا لن تتم في حالة قيامها بإقامة معـرض تصور فيه القدس

(١) سبق تخريجه.

عاصمــة أبدية لإسرائيل، واليوم يتصل بعض المـسئولين العرب بروسيـا ليعلنوا أنهم لا شأن لهم بالشـيشان، وأن لروسـيا أن تفعل مـا تشاء هناك. فمـاذا دهانا ـ نحن العرب والمسلمين؟ـ ولماذا لـم نقم بواجب النصـرة لهـؤلاء؟ ولماذا لم نعلـن استـنكارنا لموقف روسيـا؟ ومتى نفـعل ذلك؟ إن كسر أحـد الصحـون في سوق تجـاري أدى إلى تجمع ٥٠٠٠ شخص وإلى أحداث شغب وإلى خسارة مليون دينار كويتي، فهل انتهاك حرمة شعب والاستيلاء على أرضـه وأمواله ومقدراته أقل من ذلك؟ هل نعلم حُكْم إنكارنا لما يحـدث في الشيـشان؟ إن إنكار المنكر بالقلب إحـدى درجات الإيمان أو أدنـى درجات الإيمان، ونحن لم ننكر باليد ولا باللسان ولا بالقلب. فهل تخلينا عن إيماننا أيضًا؟ هل صرنا في عالم اليوم دمية تحركها أمريكا متى أرادت؟ عندما أراد الغرب أن يحرك العالم الإسلامي ضـد الصرب في كوسـوفا تحرك وشـجب وساعد، وعندمـا أراد الغرب ألا يتحرك أحد في العالم الإسلامي ضد روسيا لتدخلها في الشيشان لم يتحرك أحد.

إن الشعب في الشيـشان حرم من رغيف يأكله جائع، أو من ثوب يلبـسه عار، ولم تقم المؤسسات الخيرية الإسلامية في العالم الإسلامي بواجبها المعتاد في مثل هذه الحالات فمتى تفعل؟

إن خوف المؤسسـات الخيرية الإسلامـية من أن تتهم بدعم الإرهاب جعلـها تحجم عن واجبها، وتقـصر في حق إخوانها وفي حق نفسها. فـهل تفكر هذه المؤسسات في الخروج من هذا الخوف؟ وهل تصنع ما تريد نحو المشردين، أو أنها ستنتظر حتى يسمح لها الآخرون بذلك؟ ولو أن كل إنسان خاف أن يقوم بواجبه الذي يساعد به المحتاجين، ولا يضر الآخرين، مـا تقدم أحد لنصرة غـيره، ولهلك كثير من النـاس قبل أن يأتيهم الغيات!!! والمسلمون لم يكونوا كذلك فمتى تخلوا عن منهجهم؟ ومتى يرجعون إليه؟

٣ ـ هل من جديد؟

الزيارة الأخيـرة التي تمت الأسبـوع الماضي لعدد من دول الشـرق الأوسط ـ بما فيـها الكويت ـ والتي قام بهـا وزير الدفاع الأمريكي سبـقتهـا زيارات عديدة له في المنطقة، بحيث لم تعد مثل هذه الزيارات تثير دهشة أو استغرابًا، غير أن هذه الزيارة الأخيـرة حَمَلَتْ جـديدًا للكويت هو أشبـه بالقديم، لقـد أعلن في هذه الزيارة عن

توسيع القاعدة الأمريكية في المنطقة، وزيادة عدد الجنود الأمريكيين، وإقامة مقر دائم لهذه القوة في الكويت في المستقبل.

وهذه الأخبار التي تذاع بهذا الوضوح للمرة الأولى لا تكاد تحمل جديدًا يذكر، اللهم إلا إذا كانت تخفي وراءها عملاً مرتقبًا من الدول الكبرى تجاه العراق، بحيث تخرجه من عزلته التي هو فيها، وتعيد إليه بعض الاعتبار، وترفع عنه الحصار الاقتصادي رفعًا كليًا أو جزئيًا، أكثر مما هو عليه الآن.

ولطمأنة الكويت على أمنها، وعلى أنه لن ينالها من أذى النظام في بغداد شيء يذكر، يأتي الإعلان بزيادة عدد القوات الأمريكية وتوسيع قاعدتها، وإقامة مكتب دائم للقيادة الأمريكية في المنطقة، وإذا صح هذا الاستنتاج الذي يفرضه الواقع الجاري في السياسة العالمية، فإن هذه التصريحات الأخيرة هي لصالح النظام العراقي أكثر مما هي لصالح الكويت، ولا يقصد بها إلا رضاء الكويت وعدم اعتراضها على خطوات لاحقة، فلا تصاحب المرحلة التي تمر بها الآن قضية الشرق الأوسط والاتصالات بين نظام بغداد والرئاسة الأمريكية دائمة لم تتوقف وهي الآن نشيطة، ونحن لم ننس الرسالة التي حملها «طارق عزيز» إلى الملك: «عبدالله بن الحسين» ملك الأردن الذي حملها بدوره إلى واشنطن. فهل زيارة كوهين للمنطقة رد على مضمون الرسالة العراقية والتباحث حولها خاصة مع المسئولين الكويتيين الذين يفهم من مواقفهم السابقة اعتراضهم على أي خطوة يستفيد بها النظام العراقي قبل أن يعترف بكل ما قررته الأمم المتحدة والقوانين الدولية بشأن الغزو العراقي؟

وهل هذا الإعلان الجديد تهيئة ذهنية للشعب الكويتي والشعوب العربية كي تقبل ما سوف يستجد من أمور في هذا الشأن؟

٤ ـ اتهامات مردودة :

كانت إحدى نقاط المباحثات بين الرئيس الفرنسي والرئيس الصيني أثناء زيارة الأخير لفرنسا في الأسبوع الماضي تنصب على وضع المسيحيين في الصين، نعم وضع المسيحيين في الصين. وما علاقة الرئيس الفرنسي بمسيحيي الصين؟ وأي رابطة تربطه بهم؟ ولم تُنْسِ الرئيس الفرنسي صفقة الطائرات للصين التي بيعت منها خمس

عشرة طائرة بخمسة عشر مليار فرنك فرنسي أن يبحث أوضاع المسيحيين في الصين. ولا رابطة سوى الاشتراك في الديانة المسيحية. مع أن هؤلاء في شرق الأرض والرئيس الفرنسي في غربها، ولم يتحرج الرئيس الفرنسي من أن يقال عنه إنه يتدخل في الشؤون الداخلية لدولة كبرى، ولم يخش الذين واجهوا رئيس الصين بالمظاهرات في فرنسا من أن يقال عنهم: إنهم إرهابيون أو أنهم متطرفون أو إنهم رجعيون متخلفون؛ لأن أمثال هذه الأوصاف محجوزة للمسلمين، موقوفة عليهم، لا تتعداهم إلى الآخرين، الذين إن طالبوا بما يطالب به المسلمون يصبح مطلبهم حرية وتعبيراً عن الرأي، يدان من يمنعه، على حين إن طالب مسلم بما يطالب به هؤلاء لحقته التهم، وتبعته الشرطة، ودُوهِمَ بيتُه، وَكُبِّلَتْ يداه، وألقي في غياهب السجون أياما أو شهوراً، حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولا. يبحث الرئيس الفرنسي وضع المسيحيين في الصين، ويبحث الرئيس الأمريكي وضع المسيحيين في البلاد الإسلامية مع بعض زعمائها الذين زاروا أمريكا مؤخرًا، وتعين أمريكا مبعوثًا خاصًا لجنوب السودان، وتلتقي أولبرايت ببعض المعارضين السودانيين، ويلتقي أحد رؤساء البلاد العربية ببعض المسيحيين المهاجرين من بلده إلى أمريكا، ولا يلتقي بالجالية الإسلامية هناك التي تبلغ بضعة ملايين، ويتدخل الغرب المسيحي في تيمور الشرقية على نحو واضح، ويتم الضغط في كل مكان وفي كل مناسبة لإفساح المجال أمام غير المسلمين كي يتقدموا الصفوف في بلاد المسلمين. فعلى حساب مَنْ يتم ذلك؟ ومن سيدفع ثمنه في المستقبل القريب؟ وقد يكون هذا الثمن باهظ التكاليف، عظيم التضحيات كما حدث في فلسطين التي قامت أول ما قامت على مثل هذه الضغوط لإفساح المجال أمام غير المسلمين كي يقودوا ويتحكموا في أكثرية المسلمين يقول الدكتور «وايزمان» في مذكراته: «إن السبب الحقيقي لفوز اليهود بتأييد بريطانيا لهم والموافقة على إنشاء وطن قومي في فلسطين يجمع شتاتهم هو إيمان الإنجليز بالعهد القديم وتأثرهم بتعاليمه»، وأن رجالا من أمثال بلفور وتشرشل ولويد جورج كانوا متدينين في أعماق قلوبهم ومؤمنين بما ورد في هذا الكتاب. وقد نظروا إلينا ـ معشر اليهود ـ على أننا نمثل فكرة يعتقدونها اعتقاداً تامًا» وكانت هذه الكلمات بما تحمله وتعبر عنه، خطوة متقدمة على ضياع فلسطين . .ونحن على الطريق سائرون. فهل نتوقف؟

وهل ننظر في القرآن نستمد منه كيف نتعامل مع غيرنا؟ وهل يبحث بعض زعمائنا أحوال المسلمين في أي بقعة يضطهدون فيها في الأرض أو يُهَجَّرون ويُضَيَّعُون؟ وهل آن الأوان في بلاد الإسلام ألا نتهم متمسكًا بدينه، حريصًا على إتمام نوره بأنه إرهابي متطرف؟ إن التمسك بالدين عصمة من الانهيار، وأمان من الانحدار. وضمان ألا تتقهقر الأوطان، وإن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم. لقد انكشف الغطاء وانقلب القول فصار الاهتمام بشئون غير المسلمين محمدة، والاهتمام بشئون المسلمين مذمة . . فهل نعمل على اعتدال الأحوال وسلامة الأقوال؟

٥ ـ الذين يؤذون المؤمنين بغير ما اكتسبوا :

بعض الناس لا يشغلون أنفسهم بمقاومة الشر والأشرار، وإنما يشغلون أنفسهم بإيذاء الأخيار، والمكر والكيد لهم بالليل والنهار، وبيان أن ما صنعوه من الخير أمر لا يدخل في حيز الصالحات، وأن مقاومتهم للشر لا يدخل في تغيير المنكرات، وآفة هؤلاء البعض أن الموازين لديهم مقلوبة؛ فالشر من الأشرار مسكوت عنه، والخير من الصالحين الأبرار يقاومونه باللسان ولو استطاعوا أن يقاموه بالسنان لفعلوا، ولو استطاعوا أن يشوهوا كل خير، وأن يقلبوا كل فضيلة يفعلها الصالحون ويحولوها إلى رذيلة ما ترددوا، يغفل هؤلاء عن أن **(لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أعراض منتقصيهم معلومة، ومن وقع فيهم بالثّلب، ابتلاه الله قبل موته بموت القلب)**[1]، وكثير من الذين تعرضوا للعلماء والصالحين في القديم والحديث أصابهم الذل والهوان، وأحاط بهم القهر والحرمان، وصدق فيهم قول الله ـ سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا**﴾[2]. ولو أن إيذاء الصالحين قاصر على الأعداء المجرمين لهان الأمر ولقلنا: موتورون ينفسون عن غيظهم الكظيم، ولكن هذا الإيذاء يقوم به كذلك بعض المسلمين، الذين تنتظمهم جماعات إسلامية، ويصنفهم الناس على أنهم من العاملين للإسلام الداعين إلى نصرته، ويدفع هؤلاء إلى الإيذاء التنافس أو الحسد، ولو أحسنوا لأنفسهم وأنصفوا في حكمهم لعلموا أنهم متجاوزون حدود الله، وأنهم بذلك قد ظلموا أنفسهم ﴿**وَمَن**

---

(١) انظر: المختصر فى أخبار البشر، لابن كثير (٢/ ٥٠).

(٢) الأحزاب: ٥٧، ٥٨.

يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾[١] . **﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**[٢]. إن إيذاء أي إنسان ـ بغير حق ـ مرفوض في الإسلام، بل إن إيذاء الحيوان مرفوض كذلك، لقد دخلت امرأة النار في هرة حبستها[٣]. فما بالك بمن يؤذي إنسانًا مسلمًا يعمل في سبيل الدعوة، ويقدم من ماله وجهده ووقته ما يستطيع من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا؟ أهؤلاء يجوز إيذاؤهم؟ هل يؤمن دعاؤهم على ظالميهم، ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب؟

وقد رأينا أناسًا يأخذهم حماسهم الدعوي -بحسب ما يقولون- لأن يتعرضوا للآخرين بالتجريح والتسفيه لرأي رأوه، أو قول قالوه، رأينا بعض هؤلاء قد انتكس انتكاسة عظيمة أخرجته من طور إلى طور حتى قارب مواقع الردة أو كاد . . ورأينا من هؤلاء الذين جعلوا همهم إيذاء المسلمين من تعرضوا للمهانة والذل والصَّغَار، وساءت سيرتهم في حياتهم أو بعد مماتهم، وما قولك في فيمن يتعرض بالأذى لمن أحبه الله؟! لقد جاء في الحديث: «**إن الله إذا أحب عبدًا نادى جبريل: إني أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، وينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض..**»[٤]. والله يحب المتقين ويحب المحسنين وهو معهم **﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾**[٥]. فماذا يفعل الحاسدون والحاقدون أمام هذا الحب الذي لا يملك أحد صرفه أو طمسه، إن من بين عباد الله المؤمنين «**من لو أقسم على الله لأبره**»[٦] . . فكيف يأمن أحد إيذاء هؤلاء؟ **﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾**[٧].

إن الشيطان يرمي حبائله بيد أوليائه أو بألسنتهم وأقلامهم ليصيب بها الصالحين، من غير أن يفكر الأشرار أن الله من ورائهم محيط، وأن الله عليم بتدبيرهم، قادر على تدميرهم: **﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾**[٨]. وويل لمن عادى أولياء الله الذين تكفل الله بالدفاع عنهم . . وأي تعيس هذا الذي يحارب الله ورسوله؟ نسأل الله أن يحفظنا من التعرض لهؤلاء.

إن رموز العمل الإسلامي أعلام هداية جعلهم الله ـ سبحانه ـ معالم يهتدي بها

---

(١) الطلاق: ١. (٢) البقرة: ٢٢٩.
(٣) أخرجه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢).
(٤) أخرجه البخاري (٦٠٤٠)، ومسلم (٢٦٣٧).
(٥) النحل: ١٢٨. (٦) أخرجه البخاري (٢٧٠٣)، ومسلم (٢٦٢٢).
(٧) الفجر: ١٤. (٨) الحج: ٨٨.

الخلق، فأي تعاسة أن يبتلى إنسان بإنـزال هذا العلم جهلاً منه أو عداءً أو حسدًا؟ مع أن هؤلاء الأعـلام لا يريدون من الآخـرين جزاءً ولا شكورًا ولا يطـلبون من أحـد أجرًا، بل يقولون ما قاله ـ قبلهم ـ الأنبياء: ﴿**إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ**﴾(١).

فهل يرعوي(٢) عن مثل هذا العـمل الظالمون المعتدون؟ وهـل يحسنون الظن بما يقوله العـلماء العاملون، فـلا يتأولونه على غـير مقـصده، ولا يحرفـون الكلم عن مواضعـه، ولا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببـعض؟ وأولى بهم وأحسن لهم أن يعملوا وأن يقولوا ما قاله الإمام القدوة محمد بن إدريس الشافعي ـ رحمه الله ـ حين دخل عليه تلميذه الربيع بن سليمان يعوده في مرضه قال: دخلت على الشافعي وهو مريض فقلت له: «قوى الله ضعفك»، فقال: «لو قوى ضعفي قتلني» فقلت: «والله ما أردت إلا الخير»، قال: «أعلم أنك لو شتمتني لم ترد إلا الخير»!

وكـذلك ما روي عن الإمـام الجوال مـيـمون بن مـهران حـينمـا قال له أحـد الطفيليين: «إن فلانـا يستبطئ نفسه في زيارتك»، قـال: «إذا ثبتت المودة في القلوب فلا بأس وإن طال المكث»!

لقد كـان أصحاب التـوجه الإسلامي الصـحيح يلحقـهم الإيذاء الواضح من غيـرهم فلا يتوجهـون إليه باللوم، بل إنهم ليمنعون عنه كل من يحاول أن يتـصدى له أو يبادله إيذاء بإيذاء، وهذا ابن تيمـية يقول في رسالته الـتي وجهها إلى تلاميـذه يلومهم على إيذاء من كان سـببًا في محنته ودخـوله السجن، وأول ما أبدأ به من هذا الأصل: «ما يتعلق بي، فـتعلمون ـ رضي الله عنكم ـ أني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين ـ فـضلاً عن أصحابنا ـ بشيء أصلاً، لا باطنًا ولا ظاهرًا، ولا عندي عتب على أحد منهم. ولا لوم أصلاً، بل لهم عندي من الكرامة، والإجلال والمحـبة، والتعظيم أضعـاف أضعاف ما كـان، كل بحسبـه، ولا يخلو الرجل إما أن يكون مجتهـدًا مصيبًا، أو مخطئًـا، أو مذنبًا، فالأول: مأجور مـشكور. والثاني مع أجره على الاجتهاد: فمعفو عنه، مغفور له. والثالث: فالله يغفر لنا وله، ولسائر المؤمنين.

وأين الذين لا يحسنون الظن بأقـوال الدعاة الصالحين اليـوم من قول الله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾(٣). وأين هم من قول سعيد بن المسيِّب رضي الله عنه: «**ليس من شريف، ولا عالم، ولا ذي فضـل، إلا وفيه عيب، ولكن من**

(١) هود: ٢٩.　(٢) يرعوي: يكُفُّ ويرتدع.　(٣) الحجرات: ١٢.

الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، فمن كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله»؛ وذلك . . لأنه ليس من شرط أولياء الله المتقين ألا يكونوا مخطئين في بعض الأشياء خطأ مغفورًا لهم، بل ليس من شرطهم ترك الصغائر مطلقا، بل ليس من شرطهم ترك الكبائر أو الكفر الذي تعقبه التوبة. وهذا ما ذكره الذهبي في «الميزان» بأنه ليس من شرط الثقة، أن يكون معصومًا من الخطايا والخطأ.

بل أين هم من قول الإمام الذهبي عليه رحمة الله تعالى : «**إن الكبير من أئمة العلم، إذا كثر صوابه وعلم تحرِّيه للحق، واتسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعُرف صلاحه وورعه واتباعه، يُغفر له زلله، ولا نضلله ونطرحه، وننسى محاسنه، نعم، ولا نقتدي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك**».

إن باب التشهير بالدعاة لو فتح لم يسلم منه أحد، وإن تتبع أخطاء الدعاة لذكرها، والتشهير بها ليس من باب النصيحة ولا هو من الإسلام، وهو مخالف لمنهج السلف الصالح، **يقول الإمام السبكي رحمه الله تعالى**: (من ثبتت إمامته وعدالته، وكثر مادحوه ومزكوه، وندر جارحوه، وكانت هناك قرينة دالة على سبب جرحه، من تعصب مذهبي أو غيره، فإنّا لا نلتفت إلى الجرح فيه، ونعمل فيه بالعدالة).

فمتى نصل ـ نحن دعاة اليوم ـ إلى هذا المنهج؟ ومتى تسلم نفوسنا وصدورنا فلا نحمل على غيرنا؟ ومتى يكون التوجه إلى الله وحده، وإننا ليكفينا أن تأتينا الطعنات من العلمانيين والليبراليين. فهل نسلم من ألسنة إخواننا الدعاة العاملين؟

٦ ـ رسالة إلى الآباء:

يعتز الآباء بأبنائهم، ويعملون على إيصالهم إلى مرتبة عالية في الحياة، ويحرصون على أن يكون هؤلاء الأبناء في غاية من الترفع والأدب والكمال النفسي والخلقي، ويضيقون ويألمون إن أصاب أحد الأبناء مكروه أو شر. وقد عبر عن ذلك أحد الشعراء فقال :

وَإِنَّمَا أَوْلاَدُنَا أَكْبَادُنَا ... تَمْشِي عَلَى الأَرْضِ
لَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ ... لاَمْتَنَعَتْ عَيْنِي عَنِ الْغَمْضِ

وهذه الأماني بالنسبة للأبناء هي ككل المنى لا تتحقق إلا بالعمل والجهد وبشيء من المشقة والتعب في التربية الطويلة المستمرة، التي قد تبقى سنوات وسنوات، يقوم بعبئها الآباء، فيوجهون أبناءهم ويعلمونهم ويرشدونهم، ويشجعون الصواب الذي يأتونه، ولا يقبلون الخطأ الذي يقعون فيه.

إن التربية كالتغذية كلاهما لا يستغنى عنه، وإذا وجب في مجال الإنفاق البدء بمن تعول، فإن البدء بمن تعول في ميدان التربية واجب كذلك، ولعل القول المأثور: «**لاعبْ ولدك سبعًا وأدبه سبعًا وصاحبه سبعًا ثم اترك له الحبل على الغارب**»، يشير إلى واجب الآباء نحو أبنائهم وتربيتهم تربية صحيحة صالحة قائمة على مراعاة الاحتياجات التعليمية، والعمرية، والإرشادية إلى أن يستطيعوا النهوض بواجباتهم نحو أنفسهم ونحو غيرهم.

وحديث رسول الله ﷺ: «**مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين، واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع**»[1] يضع مسئولية تربية الأبناء على آبائهم، ويجعلهم مطالبين بأداء هذه الأمانة، لا يشغلهم عن القيام بها شاغل من علم أو تجارة أو مال أو كسب.

والآباء الذين يفرِّطون في تربية أبنائهم، ومراقبة أعمالهم، وتوجيه سلوكهم يقعون في خطأ جسيم، يتحمل وزرَه الأبناءُ أولاً ثم المجتمع كله ثانيًا بما في ذلك الآباء، ومهما قيل عن زحمة الأعمال، التي تجعل الآباء ينشغلون بها عن أبنائهم، فإن ذلك مردود عليه، إذ لا شيء من متاع الدنيا يعدل ابنا يسير على الصراط المستقيم، لا شيء من متاع الحياة يعدل في قيمته ولا في عائده ابنًا قد تربى تربية سليمة، ونشأ على أسس مستقيمة، وغرس فيه والده حب الخير والإنصاف، وكراهة الشر والجور.

من هنا كان الواجب شرعًا وعقلاً يفرض على الآباء الاهتمام بتربية أبنائهم، فإذا تخلى الآباء عن واجبهم، وألقوه خلف ظهورهم، تقوم به الزوجات أحيانًا أو الخادمات أحيانًا أخرى أو لا يقوم به أحد في بعض الأحيان، فإن ذلك كله مدعاة

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٠)، وأبو داود (٤٩٥)، وقال الألباني: «حسن صحيح».

للانحراف، ومجلبة للشر، وبداية للغواية، ولئن ترك أرباب البيوت عبء القيام بواجباتها على عاتق الزوجات يترددن على الجمعيات، ويشترين ما يلزم البيت من احتياجات، ويذهبن بالأولاد إلى المدارس، ويشرفن على تنسيق حديقة البيت إن كانت، ويقمن بغير ذلك من لوازم، لئن ترك الآباء ذلك كله على الزوجات، فإنهم لا ينبغي تحت أي ظرف من الظروف أن يتخلوا عن واجب تربية أبنائهم في كل المراحل التي تتطلب منهم ذلك، وقد تجد بعض النساء قادرات على تربية الأبناء في مرحلة عمرية معينة، ولكنهن غير قادرات على إكمال ذلك الدور في مرحلة عمرية أخرى هي مرحلة المراهقة مثلا؛ إذ العملية التربوية تحتاج إلى جهد وبذل وهو ما لا يتوفر ـ غالبا ـ عند بعض النساء.

ومشاكل البيوت لا ينبغي أن تقف عائقًا أمام هذه التربية مهما كثرت، فطلاق بعض الزوجات والخلافات الأسرية، والمتزوجون بزوجة ثانية أو زوجات أخريات، كل هؤلاء مطالبون بالتغلب على مشاكلهم، ومراعاة تربية أبنائهم دون أن يتأثروا بهذه المشكلات.

وماذا على الآباء لو أنفقوا كل يوم وقتًا محدودًا مع أولادهم، يعيشون مشاكلهم، ويساعدون هذا في مذاكرته، وهذا في بحثه، ويوفرون للثالث جوًا مليئًا بالمودة، ويشعرون الجميع أنهم قريبون منهم، يعلمون عنهم ما صغر وما كبر؟ وبذلك يضعون أمام الأبناء حاجزًا بل حواجز بينهم وبين الانحراف، ويجعلون منهم أبناء صالحين، يعرفون واجبهم، ويقومون بما يجب عليهم من سعي وجهد وبذل في سبيل الآباء والأوطان. فمتى نقوم بدورنا نحو أبنائنا حتى تزول الشكوى، ويقل الانحراف؟

المبحث السابع
الإسلام والغرب

إن طرح قضية الإسلام والغرب تعد مقتصرة على الإطار النظري أو الفكري الذي يتخاطب من خلاله مفكرو الاتجاهين، بل أضحت هذه القضية تطال عمق الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي يتفاعل كل يوم مع قضايا المجتمع كافة وأبرزها، ولا شك في أن زوال الاتحاد السوفيتي وهبوط مكانة الإيديولوجية الشيوعية معه أعطى للمواجهة بين الإسلام والغرب دفعًا جديدًا للأمام حتى بات الإسلام والمسلمون في رأس سلم الأولويات الغربية.

إن الإلمام بموضوع العلاقة بين الإسلام والغرب صعب المنال ويحتاج لمئات الصفحات لكن حسبي أن أُبْرِزَ إشكالية تلك العلاقة وإمكانية تطويرها فضلاً عن إلقاء الضوء على وجهة نظر الغرب السياسية والفكرية تجاه الإسلام، وكيفية حال الأمة الإسلامية ومعوقات نهوضها.

يخطئ كثير من الباحثين عندما ينظرون إلى الغرب بعين واحدة فيرون فيه حاضره التكنولوجي والعلمي القوي ومظاهر المدنية الديموقراطية، ولكن الواعين منهم هم الذين يبحثون عن الجذور والماضي والتاريخ الذي أوصل إلى هذه المرحلة، وعندها سيجدونه تاريخًا أسودَ مقيتًا؛ وذلك أن المدنية الغربية اليوم قد قامت على حساب الآخرين، فلم تهدأ الحروب الصليبية حتى جاء الاستعمار الغربي لشرق وجنوب القارة الأفريقية واضعًا اليد على مجمل المقدرات والثروات. فَمَوَّلَ مشاريعَه بالمواد الأولية والطاقات البشرية وأوجد لها أسواقًا ومنتجات ربط بها الدول المُسْتَعْمرة باقتصاده. ولكن قادة الغرب من سياسيين ومفكرين ومنظرين أدركوا أن الأمر يتطلب تحطيم أسس المقاومة الداخلية وإقامة أسس لتبعية دائمة مقيمة، لذلك بتنا نلحظ بوضوح أن الفارق بين الرجوع للأصل والاستقلال فارق بسيط والسبب في ذلك أن عنصر التبعية لا يزال قائمًا ما بين الغرب ومعظم الدول الإسلامية المستقلة. تبعية متعددة الأوجه تعمل على تحطيم الأسس القيمية والفكرية للمجتمعات الإسلامية على وجه الخصوص، وتسعى من وراء ذلك إلى خلق أنماط إنتاجية وسلوكيات اجتماعية متطابقة لها مما يضمن تبعية مستمرة، وهذا يعين على استبعاد الإسلام نهائيًا عن واقع الأمة ونهجها وسلوكياتها وأخلاقها.

لا شك أن وضع المسلمين في مــواجهــة الغرب وضع مــحرج وضعــيف وذلك لأسباب سياسية، وأخرى فكرية.

السياسي منها يعود إلى فقدان القرار الحر، وتشتت الأمة إلى كيانات ضعيفة لا حول لها ولا قوة.

أما الفكري منها، فيتجلى في ضــعف الاتصال مع الجذور الفكرية للأمة، وأعني بها الإسلام، مــقابل انحراف الكثير من الكتَّــابِ المنبهرين بالمدنية الغــربية الذين حاولوا إلبــاسهــا لبوس الإســلام، وتفــسيــر كل ما هو إســلامي من حــيث الأسلوب والنمط والمفردات بألفاظ غربية إن لم تكن مناقضة للإسلام، فــإنها لا تمت إليه بصلة ففسر مبدأ المصلحة في الإسلام بما يعني مبدأ المنفعة، ومبدأ الشورى بما يعني الديمقراطية البرلمانية، والإجمــاع بما يعني الرأي العام وخطورة هذا المنحرف الفكري تصل إلى تفــريغ الإسلام من محــتواه الحقيقــي وبلبلة الرؤية الفكرية والصفاء الذهنى عند المسلمــين؛ لأن إسلامًا جرت عليه محاولات التغيير والتعديل لا يعود بعد ذلك إسلامًا.

إن فقــه إشكالية العلاقــة بين الإسلام والغرب مرتــبط بمواقف القوى المؤثرة في السيــاسة الغــربية والفكر الغــربي. أضف إلى ذلك ما توارثتــه الأجيــال من مؤثرات تاريخية ودينية أَذْكت الشقاق والخلاف بين الغرب والإسلام، ويركز الدكتور نيانغ من جامعة هاورد في واشنطن على هذه المسألة وعلى القــوى الفعلية التي تعادي الإسلام في الدوائر الغربية وتنزع دائمًا إلى مجابهته، ويحصرها في ثلاثة اتجاهات.

الاتجاه الأول: المسيحية التى لا زالت تنظر إلى الإسلام من خلال تراث الحروب الصليبية معتبرة أن الإسلام هرطقة وعدو للمسيحية.

الاتجاه الثاني: ويتمثل في القوى العلمانية التي تعتبر أن الإسلام هو آخر الأديان التي تقاوم العلمانية بصمود بعد أن استطاعت العلمانية تهميش المسيحية في الغرب.

أما الاتجاه الثالث: ـ والأكثر شراسة ـ فإنه: القوى الصهيونية التي ترى الإسلام منافسًا قويًا لها في الإمساك بمفاتيح القــوة في العالم. إن هذه النزعة العدوانية المتمثلة في الإرث الصليبي والتطرف العلماني والدعاية الصهيونية هي التي تزيد رقعة التباعد وتُجهض أي مــحاولة لأدنى تقارب بين الــغرب والعالم الإســلامي، وفي هذا المقام

يشهد جميعنا كيف أن الغرب استباح الديار الإسلامية وأقام الدولة العبرية وساندها بأشكال الدعم المادي والسياسي والفكري كـافة. . من أجل حفنة من اليهود المرتزقة الـذين تجمعوا من كل شتات العالم ولم يأبه أحد لأكثر من مليار مسلم على وجه الأرض.

إنها بلا ريب جـملة عوامل تُحَـتِّم الصراع بين الغرب والإسـلام عوامل إيديولوجـية، عوامل جغرافية، وعوامل ثقافية. . . . يبـدو أن الغرب مؤجج بهذا الصراع؛ لأن البراجماتية الغربية هي التي تفصل بالنهاية في علاقة الإسـلام بالغرب، وبما أن جغرافية العالم الإسلامي تعتـبر الأكثـر استراتيـجية وغنى، فـإن الغرب لن يحيـد عن مصالحـه في تلك المنطقة ذات الأعطيات الهـائلة وفي مقدمتـها الذهب الأسود، أما الجـانب الثقافي فلن يحيـد الغرب عن فرض أنماطه المعيشيـة على أمم الأرض والأمة الإسلامية بالتحديد؛ لأنها تعتـبر العائق الأكثر صعـوبة ومنعة، ولهـذا يبقى الإسلام صـمام الأمان للأمـة ، والمواجه للغـرب ومخططاته، وهكذا جاء في نشرة منتدى الفكر العربي إبراز الـشروط التي يجب توافرها في العالم العربي كجزء أساسي من العالم الإسلامي كي يحظى بقبول غربي، وهي :

أولاً: أن يؤمن العـرب ويتصـرفوا على أسـاس أنهم ليسـوا أمة ولا كـتلة ولا جماعة، بل أقوام وأقليات متناحرة ومتناقضة.

ثانيًا: الإقرار للغرب بحق السيطرة على النفط العربي كمية وسعرًا.

ثالثًا: الاعتراف بإسرائيل والتسليم لها بكل فلسطين، والتفوق الاستراتيجي على قوى العرب مجتمعين.

رابعًا: التخلي عن الإسلام واعتباره دينًا متخلفًا وهمجيًا وداعيًا للعنف والإرهاب.

والمتـتبع للأمـر يرى أن الشروط السـابقـة بدأت تتحـقق الواحدة تلو الأخـرى لمصلحة الغرب وأهدافه، ويتركز الصـراع الأخير اليوم حول الإسلام وما يكال له من اتهامات علنية بالإرهاب والتخلف.

فعلى مستوى السياسة العالمية ساعـد سقوط الاتحاد السوفييتى على التفرغ الكلي للعالم الإسلامي وخاصة بعد ظهور دول مستقلة تملك الأسلحة النووية «وباكستان». وكـان الرئيس «الإسـرائيلي» حاييم هـيرتزوغ أول من رفع الصـوت وأعطى المبـادرة لوسائل الإعلام العـالمية؛ لبدء الحملة على الإسلام والمسلمين عندمـا صرح في مايو

١٩٩٢ م أثناء زيارته إلى بولندا، قـائلاً : «إن الأصـولية الإسـلاميـة تهدد الأنظمـة السياسـية في الشرق الأوسط». وردد مِنْ ورائه معظم الساسـة الغربيين هذه المقولة وشاعت مقولة الخطر الأخضر وما وراء ذلك، كل هذا كان يشحن العلاقة بين الغرب والإسـلام ويئد أي إمكـانية للحـوار والتطور في ظل النظـرة الفوقـيـة والاتهامـات والرجوع للأصل بالإسـلام وأهله. ورغم أن بعض المثقفين والمـفكرين الغربيين أدانوا التوجه المعادي للإسلام من وجهة نظرهم الموضوعيـة وكتبوا فيه ما توصل إليه بحثهم وتدقيقهم مثل صامويل هانتنجتون الذي قال: «إن الثقافة الإسلامية في صورتها العليا تتسم فطريًا بعدد من الملامح البارزة هي التوحيد وأخلاقيات الحكم والفردية والالتزام بالقرآن، والتطهر، والمقت الشديد المطلق للوساطة بين البشر والله والكهنوت. وهذه جميعًا تنسجم مع شروط العصرية أو التـحديث» إلا أن الهجمة السياسية التي تهدف إلى تكبيل النهضة والصحوة الإسلامـية انطلقت للعلن، وجاءت التصريحات المعادية المضـادة للإسلام والمسلمين عـلى أكثـر من لسانِ مـسـؤولٍ غربي. فلم يتـردد وزير خارجيـة فرنسا أثناء زيارته إلى واشنطن في ٢٠ مـايو ١٩٩٤م أن يقول: «إن جوهر الحركـة الإسلاميـة إذا نظرنا إليهـا كظاهرة عالميـة، فإننا نجد أننا نتـعامل مع حـركة متطرفة، حركة إرهابية معادية لأوروبا ومعادية للغرب». إنه تحد كبير لمشاعر المسلمين الذين سبق لهم أن الخـزلان من الغرب، عندما احتضنت لنـدن المرتد سلمان رشدي الذي سفه نبي الإسلام وصحابته ورسالته.. ولم تقف الحملة العشوائية على الإسلام عند هذا الحد بل عممها أمين عام حلف شمال الأطلسي ويلي كلاس ـ الذي تنطوي في حلفه سواد الدول الغـربية ـ فكان كلامه واضحًـا وصريحًا يحدد مسـتوى العداء الغربي للإسلام والمسلمين وأن هذا العداء يزداد كلما قوي الغرب وضعف المسلمون، وأهم مـا قـاله جاء فـي حوار نشـرته صـحـيفـة «سـوديتش زيتـونج» الألمانيـة في ٢/٢/١٩٩٥م، وفيه: «إن الأصوليـة هي على الأقل خطيرة كما كانت الشـيوعية». وأضاف : «إن الخطر الذي يشكله الأصوليون الإسلاميون هو من أهم التحديات التي تواجه الغرب بعد تفكك الاتحاد السوفييتـي والكتلة الاشتراكية وانتهاء الحرب الباردة، وزوال خطر الشيوعية». وأنهى كلامه بما يشكل خرقًا للنظام وللقانون الدولي متدخلاً في شئون الدول الـداخلية تحت ستار مسـاعدة الدول في مواجهـة خطر الأصوليين، فقـال: «أؤكد أننا لا نقلـل من المخاطر الناجـمة عن الأصـوليين الإسلاميـين، فمن

واجبنا أن ننظم حوارًا خاصًا مع الدول التي تواجه ذلك النوع من الصعوبات». وبقي صوت ويلي كلاس ماضـيًا في الغربيين رغم الأصوات المضادة الضعـيفة التي تصدت له والتي يعتبر أصحابها من الأكاديميين الغربـيين المشهود بعلمهم وموضوعيتهم، لكن كلام كلاس كـان أفضل؛ لأنه خاطب النزعة الشـوفانية عند الغربيين، وحـرك فيهم الإرث التاريخي المعادي للإسلام رغم العلمانية التي تحكم في الغرب ظاهريًا.

أما أقرب تصريحات الساسة الغربيين للدبلومـاسية والمصلحية، فهو ما جاء على لسان روبرت بيلليترو ومساعد وزير الخارجية الأمريكي للشرق الأوسط، وهو يقول: «نحن كحكومـة لا خلاف لنا مع الإسـلام، إننا نحترمـه كأحـد الأديان الكبرى في العالم وكحركة تحضر عظيمة إلا أن قيمنا الاجتماعية وكذلك مصالحنا القومية تدعونا إلى الاختلاف مع سمات معينة للانبعاث الإسلامي وتأكيده ».

هذا من جهة التصريحات، أما من ناحية الممارسات التسلطية والتحكم بِمُقَدَّرَاتِ الأمة وقـرار سياستـها، فهـذه أم المصائب، بعد أن ظهـر للملأ أن الأمة الإسلامـية أصبـحت على الصعيـد العالمي الأكثر ضـعفًا وضـياعًا وتمزقًـا وعرضة للانتهـاكات ويكفيك أن تطالع مواقع النزاع في العالم؛ لتـدرك واقع العالم الإسلامي فمن وسط أوروبا «البوسنة والهـرسك» إلى جنوب شرق آسيا «الفلبين» إلى شـرق آسيا «الهند» و«كشميـر» و«أفغانستان» الجرح النازف، وفلسطين المستـباحة، والواقع العربي المؤلم والدول المستـقلة الإسلامـية السـوفييـتيـة سابقًا ـ والتي تـعيش الأزمات السـياسـية والاقتصادية ـ كل ذلك لم يكـن إلا نتيجة التخطيطات الغربية التـي تخشى بحق قيام الكيان الإسلامي.

اليـوم لم يبق للمسـلمين سوى الإسـلام كي يدافـعوا عنه، إن قـدراتهم المادية منهكة، واستراتيجياتهم الجغرافية مـستباحة، ووحدتهم سبب قوتهم، فالإسلام اليوم هو العنصر الأسـاسي في المعركة وليست المعـركة ضد الغرب بل المعـركة لإعادة بناء الذات، ونحن اليـوم أكثـر ما نكون مـهيـئين لذلك؛ لأنه لم يعد لدينـا ما نفـقده، والسلاح هو العقيدة التي لا ترضى بالتبعية والذل، إن فكرة الأمة ووحدتها لا تلعب اليوم دورًا أساسـيًا في الصراعات السيـاسية إلا حين تكون الأمة مـهددة في وجودها نفسه، وذلك ما يحدث عند خطر وقوع حرب، وهذا هو مـا لنا كأمة إسلامية مهددة

بوجودها، إذًا فلابد من مقومات ثابتة واعية ننطلق منها كمسلمين لمواجهة الغرب والحملات الخارجية، وأهمها :

ـ فهم المرحلة العالمية الجديدة من أجل أخذ المكان المرموق في النظام العالمي.

ـ أخذ الدين كمنهج حياة من كل النواحي **والرجوع للأصل للمعنيين أيضًا في الكتاب والسنة** .

ـ مصالحة الأنظمة والشعوب إيقافًا لهدر القوى والمصالح والكرامة أولاً.

ـ السعي الحثيث للوحدة ووضع الإمكانات كافة في هذا الاتجاه الذي يضمن المكانة وقوة الشوكة للمسلمين ويفرض احترامهم على الآخرين.

ـ الاستعداد والأخذ بالأسباب ومواكبة العصر ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**..﴾[1]. إن الطاقات البشرية والمالية التي ينعم بها العالم الإسلامي يجب أن تأخذ دورها في الوقوف أمام هجمة الغرب، وإن قوة العالم الإسلامي هي وحدها القادرة على صياغة علاقة جيدة مع الغرب، نقف فيها موقف الند للند، وليس التابع والمتبوع.

إن التطور الهائل في مجالات تقنية الاتصال أدى إلى اتساع تداول العلم والمعرفة، وإلى تكون نوع من الاهتمام العالمي الذي يتجاوز المصالح الطبقية أو العرقية أو القومية، فهل يؤدي ذلك إلى آفاق علاقات جديدة بين الإسلام والغرب؟ أم سيبقي الغرب الذي يملك تلك التقنية محتكرها لنفسه ويعامل الأمم ويكلل بالإيجابية؟ عندها نستطيع القول: إننا مقبلون على مرحلة جديدة في علاقتنا مع الغرب، وإلى ذلك الحين يبقى الوضع يراوح مكانه.

---

(١) الأنفال: ٦٠.

المبحث الثامن
الوفـــــاق العربـــــي

لا شك أن دول العالم بأسره تتجه نحو التكتلات الكبيرة اقتصادية كانت أم سياسية؛ بهدف القدرة على الاستمرارية، والحفاظ على الكيان حاضره ومستقبله، وللمشاركة في رسم خريطة العالم المتبدلة والمتغيرة على الدوام.

وما يحدث في هذا المضمار مرآة صدق لما أشرنا إليه، فالدول الأوربية تتجه نحو مزيد من الارتباط والوحدة للحفاظ على الدور الأوربي المتآكل أمام طغيان وهيمنة الحركة السياسية للولايات المتحدة الأميريكية وقدراتها الاقتصادية، وذلك للضرورة الملحة وللمصلحة المشتركة المرتبطة بالاستراتيجية العليا للدول الأوروبية بالرغم من تاريخها المنطوي على العديد من الحروب القومية والدينية، ودول أمريكا الشمالية بدورها اتجهت أيضًا لاتفاقات تجارية فيما بينها تجعلها أكثر تحكمًا بالاقتصاد العالمي. وهذا ما جسدته اتفاقية «نافتا» للتجارة الحرة التي ضمت كلاً من الولايات المتحدة الأمريكية وكندا والمكسيك؛ لتستوعب في حركتها أكثر من ٣٧٠ مليون نسمة إضافة إلى إنتاج إجمالي يبلغ سبعة تريليونات دولار، وكذلك معظم دول جنوب شرق آسيا التي ارتبطت اقتصاديًا برابطة شرق آسيا التي ضمت ست دول انضمت بدورها إلى تجمع دول آسيا والمحيط الهادي للتعاون الاقتصادي «أبيك» الذي وسع ١٧ دولة مثلت ٤٠٪ من سكان العالم و ٥٠ ٪ من الإنتاج العالمي.

كذلك وعلى الرغم من تحول الاتحاد السوفيتي إلى مجموعة دول، إلا أنها بمعظمها عادت لتشكل ما يسمى «بمجموعة الدول المستقلة» كإطار للتعاون والتفاهم فيما بينها.

في ظل هذا التوجه الوحدوي العالمي الآخذ في الانتشار والتوسع لابد أن نلتفت صوب عالمنا لنتساءل: أين نحن من هذا الإطار العالمي الجديد؟ وهل من الممكن بعد المخاضات العسيرة المتلاحقة التي شهدتها العلاقات الرسمية بين الدول العربية أن نتكلم عن مجتمع عربي أو عالم عربي أو على الأقل عن إمكانية الوفاق العربي؟

وقبل الكلام عن الوفاق العربي نرى أنفسنا مضطرين للوقوف قليلاً أمام الإنسان العربي هذا الوعاء الذي تصب فيه كل الأزمات والمشاكل في سياق علاقة الفرد بالسلطة

وارتباط القطرية بالقومية، حتى كاد لا يشعر بالمواطنة التي فقدت الكثير من معانيها، «إن المواطنة العربية لم تتحقق بعد كل شروط وجودها، ومنها وفي مقدمتها شروط حقوق المواطنة داخل الدول القطرية نفسها». ويصور أحد الكتاب العرب حالة المواطن العربي في معظم دولنا العربية في قوله: إن مكان وزمان الهزيمة العربية يتحددان يوميًا في شكل الحياة اليومية وفي الفراق القائم أبدًا بين السلطة والمواطن العربي الذي تمثله هذه السلطة غصبًا واغتصابًا... فآلة القمع تهزم الإنسان والمواطن منذ البداية حتى النهاية.

ويكتب د. شاكر مصطفى عن هذه النظم الثورية فيقول: «إن هذه النظم القائمة في الواقع نظام «واحد»... وهذا النظام يقوم على الإرهاب والاستبداد الفردي في الداخل، وعلى الانبطاح الكامل للضغوط الأجنبية الخارجية، أما الحرية اليوم، فهي الغائب الكبير من الماء إلى الماء، والسكين أو الرصاص هما الخيار الوحيد لمن رفض الولاء فكل الشعب أصفار، والحاكم هو الرقم الوحيد.

أما عن حال الكثير من الحكومات العربية تجاه التضامن والوفاق العربي، فإنه ليس بأحسن حالاً فالحكومات العربية التي تعلن التزامها بالفكرة العربية تمارس سياسة نقيضة لهذا الموقف المعلن، إذ إن العرب هم دائمًا في حلف، بعضهم ضد البعض.

وقد يرى البعض أن التطرق لموضوع الوفاق العربي قضية خارج العصر والمنطق في ظل التشرذم العربي الذي لم يسبق له مثيل في ظل هيمنة غربية تعدت التدخلات السياسية إلى شبه التحكم الاقتصادي التام بمقدرات المنطقة وثرواتها، ويرى آخرون أن حلم الوفاق العربي قد وُئِدَ مع بدء مؤتمر الرجوع للأصل برعاية واشنطن وموسكو، الذي ضم تحت جناحيه الوفود العربية والوفد «الإسرائيلي» ليكون إيذانًا ببدء تطبيق فكرة ومصطلح منطقة الشرق الأوسط التي وضعت معالمها منذ عهد الاستعمار للمنطقة العربية من أجل منع قيام أي فكرة أو مشروع عربي وحْدَوي متكامل، وذلك عن طريق إدخال الكيان العبري إلى المنطقة فضلاً عن تركيا وبعض البلدان المجاورة من خلال مفهوم الشرق أوسطية هذا.

إن مشاعر الإحباط تلك واسعة الانتشار، بدأت تتغلغل إلى الفئات الشعبية التي طالما نادت باللُحْمة والوفاق العربي إيمانًا منها بقوله تعالى: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا**

تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[1].

وقد ساهمت في تغذية مشاعر الإحباط وسائل الإعلام العالمية والمحلية كافة التي ما فتئت تبث سمومها من أجل القضاء على فعالية أي محاولة لرأب الصدع في الصف العربي المهترئ، هذا من الناحية الواقعية، أما من الناحية العملية والمحطات التاريخية، فإن الدول العربية لم تشهد من قبل أي محاولة جادة للوفاق أو الوحدة من أجل تحقيق أمنيات وتطلعات أبنائها في الوحدة والاندماج، وما سبق وظهر من تكتلات سياسية بين الدول العربية، كانت جميعها بعيدة عن المبدئية، وخضعت لضغط الواقع القائم على ردات الفعل رهينة العلاقات الدولية والمحلية المتقلبة. وللتدليل على صحة ذلك لابد من الوقوف قليلاً عند محطات أساسية هامة في تاريخ الأمة العربية نتج عنها بعض أشكال التحالفات السياسية التي ما لبثت أن تبدلت مع تغير الظروف.

وقد اخترت محورين :

١. جامعة الدول العربية. **٢. العلاقات العربية بعد حرب الخليج**

(١) جامعة الدول العربية:

في الأربعينيات كانت مجموعة من الدول العربية حديثة الاستقلال وتحت ضغط الحركة الشعبية الجماهيرية المنادية بالوحدة العربية، تأسست الجامعة العربية، لكن غالبية المحللين السياسيين ومؤرخي العلاقات الدولية يردون فكرة إنشاء تلك الجامعة إلى السياسة البريطانية في المنطقة، حيث كانت بريطانيا عام ١٩٤١ إبان الحرب العالمية الثانية في مأزق حرج، فجيوش المحور تزحف باتجاه مصر، ولندن بحاجة ماسة إلى استقرار أمني في المنطقة العربية وإلى تعاون وثيق من قبل الحكومات والشعوب، وفي حينها انبرى أنطوني إيدن في مجلس العموم البريطاني يحث على التقارب القومي بين الدول العربية، ومما قاله: إن العالم العربي قد خطا خطوات واسعة بعد الحرب العالمية الأولى في طريق الاستقرار السياسي والتقارب القومي.

وسوف ندعم كل مشروع أو خطة يتفقون عليها للوصول إلى هذا الهدف. وفي عام ١٩٤٤ وبدعوة من الحكومة المصرية في ذلك الوقت، عقد في الإسكندرية اجتماع تحضيري قدمت فيه ثلاثة اقتراحات «وحدة عربية وحكومة مركزية، اتحاد

(١) الأنفال: ٤٦.

فدرالي، جامعة تضم الدول العربية المستـقلة» ونجح الاقتراح الأخير الذي يعتبر الأقل شأنًا والأشد بعدًا عما تصبو إليه الجماهير العربية، وعلى هذا الأساس أنشئت الجامعة العربية بإيعاز بريطاني، ورغبة شعبية عارمة لم تحقق لها الجامعة الغاية المرجوة. وهكذا فإن الجامعــة العربية لم تكن مكانًا صالحًا للوفاق العربي وللوحــدة العربية، بل كانت سقفًا محدودًا لأعلى ما يمكن أن تصل إليه الحالة العربية في التطور الإيجابي لعلاقات الدول التي ظل يسيطر على مناخها السياسي الحذر المتبادل والتمسك الشديد بالسيادة.

(٢) العلاقات العربية بعد حرب الخليج:

ما كادت الساحــة العربية ترتاح حتى وصل الغزو البــربري العراقي الغاشم على دولة الكويت؛ مما أدى إلى إعادة تفــريق الأمة وتشتيــتها وإضعافــها، ونتج على أثرها انقسام رسمي في موقف الحكومات العربية ظهر على الشكل الآتي:

١ـ دول مجلس التـعاون الخليجي تقف بثـبات ضد صــدام، وكذلك من الدول العربية غير الخليجية كانت مصر وسوريا والمغرب ولبنان وجيبوتي والصومال.

٢ـ الحكومات التي وقفت مع صدام، تشكل الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية واليمن والسودان وليبيا وتونس والجزائر وموريتانيا.

إن شكل الفرقة تجلى من خــلال المواقف الرسمية العربــية، ولم تستطع المواقف السياسية المنســجمة إبان حرب الخليج أن تشكل قاسمًا مشــتركًا للوفاق ضمن كل من المجموعتين العربيتين، بل كانت بداية تكتل ما لبث أن تلاشى مثل ما سبقه من نماذج وفاقية حصلت نتيجة ضغط خارجي أو مصلحة مرجوة.

من خلال تلك النماذج نستنتج الأمور التالية:

ـ لم تكن أشكال الوفــاق التي حدثت ذات أسس مبــدئية أو رؤية اســتراتيجــية بعيدة المدى، بل كانت آنية وظرفية.

ـ كان للدور الأجنبي كبير الأثر في تشكيل أنماط الوفاق تلك، وربما كان وراءها بالإجمال.

ـ من الناحيــة العملية فرغت كل أشكــال الوفاق من محتــواها ولم يبق منها إلا هياكل خاوية.

لذلك نستطيع القول: إن فكرة الوحدة وبعض أشكالها المجتزأة لم تشهد أي ممارسة فعلية ولم تأخذ مجالها الصحيح، وإن كل الظواهر في هذا المضمار كانت واهية فاشلة الغاية، أدت إلى إسقاط فكرة الوفاق العربي وإحباط الدافع عند الشعوب العربية بسبب فشل تلك النماذج الواهية ذات الصنع الأجنبي، لذلك كان لابد من تعرية الواقع وتسمية الأمور بأسمائها؛ لأن العالم العربي لم يشهد منذ استقلال الدول العربية أي شكل حقيقي من أشكال التآلف والتحالف، بينما نجد أن العالم بأسره يسير نحو التكامل والوحدة، وأن الإنجاز الوحيد للوحدة العربية كان في ظل دولة الإسلام. ومن هنا يجب ألا يستغرب أحد دعوة مفكري الإسلام إلى الوحدة العربية كخطوة نحو الوحدة الإسلامية.

أما إذا نظرنا إلى طبيعة العالم العربي الجغرافية والديموغرافية نجدها الأكثر تكاملاً، والنموذج الأوفر حظًا في إمكانية الوفاق والوحدة؛ لأنها لا تعرف الصراعات الدينية أو العرقية، فأغلبيتها من دين واحد وعرق واحد، فضلاً عن كونها تمتلك القوة الاقتصادية الهائلة لقيام مجتمع إنتاجي رفيع المستوى؛ فالإمكانات المالية متوفرة لدى الدول النفطية، والإمكانات البشرية متوفرة في العديد من الدول العربية الأخرى التي تشهد حركة نزوح كبير من أجل تأمين فرص العمل... أضف إلى ذلك الموقع الاستراتيجي البالغ الأهمية الذي يربط ما بين القارات والمحيطات، مما جعل المنطقة العربية عرضة لأطماع الطامعين طيلة فترة الحروب الصليبية الماضية والحروب الاستعمارية فيما بعد.

إن جميع المعطيات المتوفرة من أجل وفاق عربي هي معطيات جدية بالغة الأهمية تجمع في طياتها المطلب الديني والعرقي والتراثي الذي يحض على الوحدة ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾[1] .

فضلاً عن مطلب التكامل لجهة الاقتصاد والدفاع والتي إذا ما تحققت جميعها، تصبح الدول العربية مؤهلة لاحتلال مكانة كبرى على مستوى المنطقة والعالم ككل.

إن دواعي الوفاق كثيرة تقف وراءها رغبات الجماهير وإيمانها بمصير ومستقبل

(١) آل عمران: ١٠٣.

أفضل، وإن دواعي الفرقة تغذيها الأيادي الخارجية؛ لتجعلها ذات شأن بينما هي مفاتيح مفتعلة لا أصل لها.

إن الجماهير العربية التي وعت وستعي أن أشكال الوفاق التي ظهرت في تاريخ العروبة كانت أشكالاً كرتونية وهمية لابد أن تؤكد مطلبها من جديد في تحقيق هذا الوفاق؛ لأنه السبيل الوحيد لنهضة الأمة ومكانتها بين الشعوب والأمم، وإذا قرأنا التاريخ وجدنا أن هذه الأمة لم تدخل من بوابته الواسعة إلا بعد أن توحدت على المبادئ التي جعلتها حرة تملك قرارها وتحفظ مكانتها.

ولقد شكل الإسلام بما يحتويه من عقائد وتشريعات الإطار السليم الذي استوعب كل النزعات العصبية والقومية والدينية ليصهرها في بوتقة واحدة لما فيه خير الإنسان والإنسانية، ويرى التيار الإسلامي أن مرجعية هذه الأمة لا تكون إلا بالإسلام، وأن عوامل القوة الأخرى كالاعتزاز القومي بالتاريخ وبالأبطال وبالمواقف يجب أن تكون إضافة مقدرة إلى رصيد المرجعية الإسلامية، ولا يجوز أن تكون تحت أي ظرف خصمًا لهذا الرصيد أو عبئًا عليه، فهل تستطيع الجماهير المؤمنة أن تمضي في طريق الوفاق العربي على هذا الأساس المتين؟

إذا كانت التجربة أكبر برهان ـ كما يقولون ـ فقد آن لنا أن نستفيد من تجاربنا السابقة.

وكما قال المؤرخ ابن خلدون في مقدمته: «**إن العرب لا يمكن أن يتحدوا ويجتمعوا إلا تحت سلطان الدين**»[1].

---

(١) العلامة: عبد الرحمن بن خلدون، انظر المقدمة، فصل: «في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصفة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة» ص ١٢٦، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة (الذخائر: ١٥٣).

المبحث التاسع

القوة الكامنة في الإنسان

لا تستطيع أن تراقب كل الناس كل الوقت، ومن الممكن مراقبة بعض الناس بعض الوقت، مع ما في ذلك من صعوبات وعنت وإرهاق؛ لأن الناس تخفي في بواطنها ما لا يراه الآخرون ولا يعرفونه، ولذا فإن رقابة بعض الناس على بعض رقابة قاصرة، لا تؤدي غايتها المنشودة في كل حين.

لا مفر إذًا من أمر آخر تتحقق به الرقابة الصارمة الدقيقة، التي لا تترك في النفس مسربًا يتسرب منه الهوى، فيجرف معالم الحق من مكانها في النفس أو على الأقل يطمسها أو يغشاها. لا مفر من رقابة لاصقة بالنفس، حساسة تعرف ميزان الخير والشر، لا تغيب ولا تميل ومن أين لكل إنسان بتلك الرقابة؟ وكيف تتحقق؟

أما تلك الرقابة فهي موجودة في الإنسان، خلقها الله مع الإنسان يوم خلقه، والإنسان هو الذي يعمل على استيقاظها ـ بعث فيه الهمة، ووجهه إلى الخير، وأبعده عن الشر. وجعله لا يرضى بالحياة إلا أن يكون جادًا بطلب معالي الأمور ويكره سفسافها، يطلب الرفعة والعزة في الأرض ولا يرضى بالهوان والسقوط، يراعي مصالح الآخرين، وإن ضحى براحته أو بماله، يسعد لسعادة الناس حين يستقيمون، ويشقى بشقائهم حين يضلون. وهذا الضمير النزَّاع إلى الخير، البعيد عن الشر، غير غريب عن الإنسان، أي إنسان. وفي هذا ورد عن ابن معبد، رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: «**جئت تسأل عن البر؟**» فقلت: نعم، قال: «**البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس، وأفتوك**»[1]، وبهذا الضمير الحي اليقظ يعيش الإنسان بين الناس يقيس أمور الحياة، فيلتزم بالخير والحق، وإن قل مناصروه، ويجتنب الشر، وإن كثر مقارفوه؛ لأن في داخل الإنسان رقيبًا عليه، يحكم على أفعاله وأقواله وسلوكه بين الناس أو معهم، فلا يؤخر مصلحة لأحد، ولا يداهن في الحق، ولا يعاون في باطل، ولا يرضى بظلم يقع عليه أو على أحد من البشر وإن كان على غير دين الإسلام.

---

(١) رواه أحمد (٤/٢٢٨)، والدارمي (٢٥٣٣) وقال حسين سليم أسد: «إسناده ضعيف؛ لانقطاعه».

وبهذه القوة الفعالة داخل النفس الإنسانية يسير المرء في الحياة قريبًا من الخير، بعيدًا عن الشر، ويظل على ذلك ما استطاع، ولكن من بين الناس الذين أوتوا قوة الضمير ويقظته، من يضعفون أحيانًا، فلا يلتزمون بما ينبغي أن يكون عليه الضمير، اتباعًا للهوى الطارئ، أو الشهوة المؤقتة، وهؤلاء ما يلبث ضميرهم يبث فيهم نار الألم لمفارقتهم الخير ومقارفتهم الشر، فلا يستريحون حتى يكفروا عن سيئاتهم بما أوجبه الدين الذي هو الأساس والقطب في يقظة الضمير، ويرى هؤلاء أن كل عقاب وإن عظم هو من خداع النفس، حين تظهر الخشوع وتبطن الفجور، وتظل على ذلك حتى تلقى الله، فينالها ـ عنده يوم الدين ـ ما وعد به المفسدين، الذين لا يصلحون في الأرض ولا يخافون من عذاب السعير.

وهذا هو السر وراء مجيء بعض المسلمين إلى رسول الله ﷺ يطلبون منه أن يطهرهم مما ارتكبوه من آثام، حدث ذلك مع ماعز، وحدث مع الغامدية، فأي قوة كانت وراء هذا الضمير؟

إنها قوة الإيمان التي بها يعرف المؤمن عظمة الله وجلاله ورقابته على خلقه، وعلمه بما تخفي النفوس وتعلن وهو عليم بذات الصدور: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ**﴾ (١)، ﴿**أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ (٢). وفي ضوء هذه المعرفة بالله تتفجر ينابيع الخير في النفس، فيكون الضمير المراقب لله في كل ما يأتي وفي كل ما يذر، حتى ولو أصابت صاحبه ضراء أو غابت عنه سراء، وبغير هذه المعرفة الحقة لله رب العالمين، لا يوجد الضمير الحي، الذي يضحى من أجل غيره، ويصبر على ما يصيبه حتى لا يضر آخرين بمصابه، ويحزن من أجل أحزان الناس، ويفرح من أجل أفراحهم.

ولا تناقض بين ما نقرره هنا وبين الواقع الذي يظهر غير ذلك، فلربما وجدت مسلمين ماتت ضمائرهم ووجدت غير مسلمين استيقظت ضمائرهم، فكيف يتفق هذا الواقع مع ما نقوله ونؤمن به؟

أما الذين ماتت ضمائرهم من المسلمين: ففي إيمانهم ضعف وفي قلوبهم مرض، ومعرفتهم بالله سبحانه ليست من القوة الكافية لقمع الشر في نفوسهم وإظهار الخير.

---

(١) آل عمران: ٥. (٢) الملك: ١٤.

وأما الذين استيقظت ضمائرهم من غير المسلمين: فهم الذين دفعتهم مصلحتهم في الحياة لذلك، فهم صادقون مع أنفسهم، مخادعون مع غيرهم من بين البشر، ينظرون لمصلحتهم ومصلحة أوطانهم وأجناسهم، ولو قامت على حساب أوطان أخرى وأجناس أخرى، يقيسون يقظة ضميرهم بقدر ما يحقق لهم من المصلحة، وتاريخ الاستعمار الغربي مع الدول المستضعفة حافل بالأمثلة، مليء بالشواهد والأدلة، بل والواقع المعاصر في مواقف الدول القوية من قضية البوسنة والهرسك يشهد بذلك ويدل عليه، أين الضمير؟.

وأين اليقظة المزعومة له عند الغربيين؟ لقد ماتت لغياب المصلحة، وظل الشعب يئن أكثر من ثلاث سنوات، وحينما تبرز المصلحة ولو كانت في التوازن بين الدول والقوى الكبرى، التي تتحرك من وراء ستار، ستجد بعض التدخل من هنا أو من هناك لصالح هذا أو لصالح ذاك، دون نظر إلى حق وإنما النظر للمصلحة، فأين هو هذا الضمير؟ إن الإسلام هو الذي يحيي الضمائر فيظهر كل خير ويزول كل شر.

المبحث العاشر
المشروع الإسلامي... مسؤولية الجميع

لقد نما الفهم الإسلامي الصحيح في الأمة، وانتشر بين أبنائها انتشارًا كبيرًا، بحيث لم تعد بعض تعاليمه خافية على أحد، وبحيث استقر في أذهان كثير من الناس أن الدين الذي جاء للناس أجمعين، لم يترك شيئًا مما يحتاج إليه الإنسان في دنياه أو آخرته إلا بيَّنه ووضحه تفصيلاً أو إجمالاً، فلم يعد فهم الدين قاصرًا على الأركان المعروفة ولا على الفرائض الكفائية وحدها، وإنما صار الناس ـ إلا من عاند واستكبر ـ يعرفون أن الإسلام ينظم حياة الإنسان منذ تكوينه في الرحم إلى أن يُوارَى الثرى، ينظم فيها كل شيء، ويضع الأحكام لكل أمر، ويوضح العلاقات بين البشر جماعية كانت أو فردية ويضع الأسس العامة لها، بحيث تقوم على الحق والعدل.

ومرد هذا الفهم عند الناس ومرجعه إنما هو للجهود الحثيثة التي قامت بها الحركات الإسلامية الصحيحة المعاصرة، بحيث صار أمر الدين والانشغال به تيارًا عامًا في المجتمع، ويسري بين أفراده كما يسري النسيم، لا يستثني أحدًا من البشر، فلم يعد الإسلام قضية حركة معينة لحزب بعينه أو جماعة بعينها، مما يدفع بالكثيرين من المتعاملين مع الدعوة الإسلامية إلى إعادة ترتيب أوراقهم، وإعداد الأولويات للتعامل الجديد مع الحركات الإسلامية في المجتمع. فليس في مقدور دولة ما أن تسجن المجتمع بأسره، أو تعتقل الشعب أجمعه، وليس في مقدور دولة ما أن تهيمن أو تمنع انتشار الأفكار الإسلامية الصحيحة بين الجماهير، وكل ما يمكن أن يفعله نظام هنا أو هناك أن يقبض على مجموعة من الناس يسجنها سنوات قد تقل أو تكثر وربما أنهى حياة بعض الدعاة أحيانًا بتهمة مزورة أو بأخرى جائرة ظالمة، أما أن يقضي على الأفكار السارية والتوجهات الجارية فهذا غير مستطاع؛ لأن التيار الإسلامي أضحى تيارًا عامًا يحيط بأبناء الأمة الإسلامية، ويحيط به أبناء الأمة كذلك، هذا التيار الإسلامي القوي، لم ينشأ من فراغ، وإنما نشأ من حب الناس لدين الإسلام وتعظيمهم للقرآن وتوقيرهم للرسول ﷺ، وجاء دور الحركة الإسلامية لافتًا الأنظار إلى شمول تعاليم الدين لكل قيم الحياة ونظم الاجتماع والعمران، إلى جانب

هداية الإنسان في دنياه وأخراه، فتشربت القلوب حب الدين، ونبت عليه الصغير وتمسك به الكبير، فسرى هذا التيار المتدفق بين جموع الأمة.

ليس المشروع الإسلامي إذًا مشروع فئة من الناس دون أخرى، ولا هو مبدأ لحزب دون الآخر، حتى تؤمن به طائفة وتخالفه أخرى، كلا! ليس المشروع الإسلامي كذلك، إنه فطرة في الناس أجمعين، قد تطغى عليه أحيانًا في نفس بعض الأفراد شهوة من الشهوات أو ترغيب أو ترهيب، ولكن سرعان ما تزول الغشاوة عن الأبصار، والشهوات عن النفوس فيعود جموع الناس إلى تيار الدين الساري في قلب أمتنا الإسلامية.

ومن ثم، فإن التخوف على الحركة الإسلامية ليس في محله؛ لأن دعوتها تعرف طريقها إلى جميع المسلمين في جميع البقاع، وحقًا لقد عانت الحركة الإسلامية ـ وما زالت تعاني ـ من الضربات التي وجهت لها من عدد من بلدان العالم الإسلامي في مصر وتونس والجزائر وغيرها على مدى العقود السابقة، ولكن هذه الضربات زادتها صلابة، ووسعت انتشارها بين الناس وأزاحت كثيرًا من العوائق أمام التيار الإسلامي، حتى لم يعد أحد إلا وهو يسمع به أو يدرسه من قريب أو بعيد أو يشارك فيه بالدعوة والموعظة الحسنة أو حتى يعاديه ويكيد له ويخاف منه في الداخل أو في الخارج.

وهذا في حد ذاته نمو لهذا التيار وإبراز له، ودعوة لإزاحة كل العقبات عن طريقه: ﴿**وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [1] وطريق: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [2]. وقد دفع إلى ذلك الأنظمة الحاكمة في كثير من البلاد الإسلامية إلى إعادة التفكير في التعامل مع هذه الحركات الإسلامية، بحيث صار التعامل معها يأخذ طرقًا جديدة غير التي كانت معروفة من قبل، فقد تطلق سراح المسجونين ـ أحيانًا وقد تفتح باب الحوار بينها وبين الإسلاميين أحيانًا، وتتبنى مشروعات إسلامية ترفع رايتها، وتعلي بنيانها، وقد تعلن من حين لآخر تمسكها بالإسلام منهجًا وتطبيقًا... وقد وقد... إلى غير ذلك من وسائل.

هذا التغيير في مواقف بعض الأنظمة الحاكمة يدعو الحركات الإسلامية إلى التفكير الجاد في ترتيب أوراقها، وفي طريقة التعامل التي كانت تَنْتَهِجُهَا وتتمسك

(١) الإسراء: ٥٣.
(٢) النحل: ١٢٥.

بها، لتوائم حركة المجتمع، والمستجدات التي حدثت بين أفرادها، وبين أنظمة الحكم وبين المؤسسات القائمة والموجودة في الأمة، سواء اتخذت الإسلام بكامل تعاليمه إلى أن تعيد تعاملها مع المجتمع بما يضم من أفراد أو مؤسسات تعاملاً يقوم على قبول كل جديد لا يخالف روح الإسلام، تعاملاً يدفع دعاة الحركات الإسلامية إلى التمسك بالحكمة والموعظة الحسنة، وإلى البعد عن اللجاجة والجدال، وإلى التنبه إلى المكائد التي تنسج لهم من الداخل أو الخارج، وإلى مواصلة الحوار مع الأنظمة كلما استطاعت ذلك لبيان موقفها من المستجدات والأحداث، وإلى إدراك التداخل اليوم في العلاقات الدولية تداخلاً يصعب معه الانفراد باتخاذ قرار ما دون النظر في آثار هذا القرار على المؤسسات الداخلية أو على العلاقات الخارجية، والجميع يعرف ـ اليوم ـ أن القرارات التي تؤثر على داخل مجتمع معين ليست منفصلة عن علاقته الخارجية واتصالاته الدولية، سواء ظهر ذلك أو خفي، وعلى أبناء الحركة الإسلامية أن يضعوا ذلك كله في حسبانهم وأن يبنوا على ذلك تعاملهم، وأن يدركوا أن بناء أمة الإسلام التي تهدمت جوانبها على مدى عصور وقرون سابقة لن يتم بناؤها بناء متكاملاً بين عشية وضحاها.

أقول ذلك وأنا أعتقد أن الحركات الإسلامية ليست غافلة عن هذا وأمثاله، ولكنها مني دعوة وتذكرة أرجو أن ينتفع بها المؤمنون.

المبحث الحادي عشر
النظرة الحضارية بين المحدثين والأقدمين

اتسعت الفتوح في عهد عمر بن الخطاب، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، فجمعهم الدين، ووحد بينهم الإسلام على الرغم من اختلاف أجناسهم وألوانهم وعاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم، ومسالك حياتهم.

وكان لابد ـ وقد اتسعت الدولة ـ أن تتسع آفاق القيادة، وأن تمتد أيديها بالتغيير والتبديل والأخذ بكل جديد مفيد نافع، يسهل حركة الحياة، وييسر التعامل بين الناس، ويدفع اللبس والغموض، ليسود العدل ويعم النظام، وتنضبط الأمور والأحوال، ويصل لكل ذي حق حقه من غير جور أو ظلم، أو إلحاح في الطلب، أو تجاوز في الأخذ أو في العطاء.

ولم تكن قوة الدين التي فجرت ينابيع الحياة الحقة في تلك النفوس بمانعة من أن تمتد أيديهم وأفكارهم إلى ما عند غيرهم من الأمم المهزومة، ليأخذوا عنها كل نافع، بل ربما كانت قوة الدين دافعة نحو الأخذ مما عند الآخرين من نظم وإحصاءات ومعالم مسجلة يمكن أن تفيد المسلمين في نظام حياتهم.

وكان اهتمام المسلمين منصبًا في ذلك الوقت على أخذ اللباب فى جوهر الأشياء وليس القشور منها، فلم ينقلوا عن الفرس طريقة لباسهم ـ وإن عرفوها ـ ولم ينقلوا عن الروم احتفالاتهم بآلهتهم المزعومة، وقد علموها وسمعوا بها وخبروا أهلها. لم ينقلوا ساحات الصراع بين الحيوان والرقيق، وكانت شائعة بين الرومان، ولم ينقلوا ليالي السمر والأنس وكانت موجودة عند غيرهم، لم ينقلوا عن المصريين احتفالاتهم بالنيل، وما قد يكون فيه من هلاك للأنفس والأموال، وتقديس للأشياء.

وباختصار شديد لم يفعلوا ما نفعله نحن اليوم، حين ننقل أحدث ما يلبس الغربيون وما ينشرونه في «الموضة» وإن كانت خليعة، وننقل إلى بعض بلادنا الإسلامية ما يفعلونه في بلادهم، فهم يحتفلون باختيار ملكة للجمال ذات مقاييس محددة تشاهد بالأبصار وتقاس بالأمتار أو الأشبار، ونحن ننقل عنهم ويكلفنا ذلك آلافًا من العملات في غير طائل، صنعوا مدنًا للملاهي، فَصَنَعْنَا، وأقاموا أماكن

للسينمـا والمسرح فَغَفَلْنَا دون أن نحدد مـاذا نقدم عليها وكـيف نستغلها الاسـتغلال الأمثل، ساد الاخـتلاط بينهم فانتشر عـندنا، قامت المراقص في بلادهم فنقلناها إلى بلادنا، وعلمناها أبناءنا وأطلقنا عليـها اسمًا طليًـا «طريًا» هو الفن، عملت الفتـيات عندهم في الجـيش والشـرطة أعمـالاً لا تتـصل من قريب أو بعـيـد بمهام الشـرطة والجيش، ونكاد أن نفعل ما يفعلون.

لم ننقل عنهم العلم التجريبي القائم على أساس من العقل، والمبني على ركيزة من الواقع، مع شدة حاجتنا إليه، لم نأخذ عنهم الصناعة النافعة لنقوم بها في بلادنا ويعمل فيـها أبناؤنا، إن هؤلاء جابوا القـفار[١] وغاصـوا في البحـار، وانطلقوا إلى الفـضاء وصوروا كل شـيء في الهواء، وبنوا الأسـاطيل، وأطلقوا الصـواريخ وتحسسـوا باطن الأرض فأخرجوا سرها الدفين، ومكنونها المستـتر، وعرفوا كثيرًا من العلم المادي النافع في الحياة، فـتركناه وأخذنا ما لا يسمن ولا يغنـي من جوع، الملابس والأزياء وأشرطة الفيديو والكاسيت وأفلام السينما والمسرح والرقص والموسيقى، والقرى السياحية التي لا تخلو في بعض البلاد من الآثام والشبهات. ونحن في كثير من الأحيان نأخذ ما لا يفيد ونترك مـا يفيـد، وما هكذا كـان المسلمون الأولون الذيـن أخذوا عن غيـرهـم بل عن عدوهم كل مـا يفيد فـي الحياة وتركـوا كل ضار ودليلهم في ذلك وحـاديهم: الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها. والحكمة هي الإصابة في القول والعمل، وقد اقتضت الحكمة أن يأخذ المسلمـون في عهد عمر بن الخطا،رضي الله عنه الدواوين عن غـيرهم من الفـرس أو الروم على اخـتلاف بين المـؤرخين في تحديد المصـدر الذي أخذوا عنه، والمتفق عليه أنهم أخذوا هذه الدواوين عن غـيرهـم سنة ٢٠ هـ فأنشأ عمر ديوانًا للجند لكتـابة أسمـائهم وما يخص كـلاً منهم من العطاء، وأنشـأ ديوان الخراج لتدوين مـا يرد إلى بيت المال وما يفرض لكل مسـلم من العطاء، وكان هذان الديوانان بالعربية، وكان هناك ديوان المال بالفارسية، وكـان ديوان الشام بالعربية والرومية، وكان ديوان مصر بالقـبطية، لأن العمال الذين يشتـغلون في هذه الدواوين كانوا من أمم تلك اللغات الثلاث، ولم يكن المسلمون قد مهروا فيها بعد[٢].

(١) القَفَار والقَفْر من الأرض: الخلاء من الأرض لا ماء فيه ولا ناس ولا كلأ.

(٢) في الحضارة العربية الإسلامية ص (٤٨، ٤٩).

فلما تولى عـبد الملك بن مـروان الخلافة كان سـرجون بن منصـور يتقلد ديوان الشام، فأمره عبـد الملك يومًا بشيء فتثاقل عنه وتوانى فيه، فعـاد لطلبه وحثه عليه، فرأى منه تفريطًا وتقـصيرًا، فقال عـبد الملك لسليمان بن سعـد وكان يتقلَّد له ديوان الرسائل: أما ترى إدْلال سرجون علينا، وأحسبه قد رأى ضرورتنا إليه وإلى صناعته، أفما عندك حيلة؟ قـال: لو شئت لحولت الحساب إلى العربية، قال: فـافعل فحوَّله، فرد إليه عـبد الملك جميع دواوين الشام، وعرب الحـجاج بن يوسف ديوان العراق، وعرب الوليد بن عبد الملك دواوين مصر[١]. وتخلصت الدولة بذلك من بعض نفوذ غير العرب الذين كانوا يسيطرون على الدواوين. وكأنما كانت هذه السياسة هي الأمر المتبع في كل أمر ينقلونه عن غيرهم، سرعان ما يبرعون فيه ويسيطرون عليه، بحيث لا يكون لغيرهم عليهم قليل نفوذ أو كثير.

ونحن ننقل عن غيـرنا أمورًا كثيرة، ونشـتري من غيرنا سلعًـا عديدة، ثم نقف عند هذا الحد، ولا نتجـاوزه لجعل هذه الأمور المنقولة عربية الصنع والمنشـأ والمنفعة. فمتى نتجاوز هذه المرحلة؟!.

---

(١) في الحضارة العربية الإسلامية ص (٨٧-٨٨).

المبحث الثاني عشر
طعنات جاهلية في الجسم الإسلامي

في البداية نتساءل: هل الجاهلية مرحلة زمنية مضى عصرها وانتهى؟ أم أنها سلوك في طريق الحياة منبعث عن فكر وشعور مناف لروح الإسلام مضاد لتعاليمه غير متوافق مع منهجه؟ ونبادر بالإجابة فنقول: إن صفة الجاهلية المأخوذة من الجهل بمعنى التسلط والبطش والظلم والجور كما فهمها الشاعر الجاهلي وعبَّر عنها بقوله:

أَلاَ لاَ يَجْهَلَن أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

هذه الصفة بهذا المفهوم ليست قاصرة على زمن معين لا تتجاوزه؛ لأن ما يترتب عليها يكاد يلازم نفوس الجبارين، الذين لا يردعهم دين ولا يردهم عن غيهم التمسك بالصراط المستقيم، ولذا عبر الشاعر المتنبي عن طبيعة هذه النفوس حين قال:

وَالظُّلْمُ مِنْ شِيمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ذَا عِفَّةٍ فَلِعلَّةٍ لاَ يَظْلِمُ

والرسول ﷺ قال لأبي ذر حين عَيَّر صحابيًا بأمه قال له: «**يا أبا ذر، إنك امرؤ فيك جاهلية**»[1]، أي: إنك تَخَلَّيْتَ عما يجب أن تتصف به من تعاليم الإسلام، الذي دعا إلى عفة اللسان، ودعا إلى عدم التفاخر بالأحساب والأنساب والألوان، والأموال والأولاد وترك ذلك كله، ليوجه المسلمين نحو الأبقى والأتقى، ألا وهو تقوى الله حين قال: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[2]. فإذا تجاوز أحد ذلك إلى العصبيات البغيضة، فقد أظهر صفة جاهلية وأخفى مكانها صفة الإسلامية. وتكثر الصفات الجاهلية في السلوك الفردي أو الجماعي بمقدار التخلي عن الصفات الإسلامية من جانب الفرد أو جانب المجتمع على السواء، حيث تظهر مكانها صفات مغايرة لهدي الإسلام وتعاليم القرآن، فتحدث أثرها في تفرق الأمة وفي محاولة التنافس فيما بينها على حطام الحياة وشؤون السلطان، ويقدم كل شيء فداء لتمسك فرد بسلطانه، أو طائفة بما تمتاز به في مجال العمل والحياة، تتدافع العصبيات فيما بينها، يهلك فيها الضعيف ويغلب فيها الأقوى، وتثور الحزازات، وتظهر

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١).

(٢) الحجرات: ١٣.

المشاحنات، وتنتشر البغضاء، فـلا يصبح الناس المؤمنون إخوانًا، ويكفرون بنعمة الله القائل: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[1] وإنما يحدث ذلك بالتخـلي عن الصفات الإسلاميـة والركون إلى العادات الجاهلية.

فهل من الممكن أن يقع المسلمون في هذه الوهدة[2]؟ نعم يمكن أن يقع المسلمون في هذه الحفرة العمـيقة، بل هم قد وقعوا بالفعل، حين اسـتغل بعض أصحاب السلطان منذ العهد الأموي إثارة النزعات العصبية بين اليمنية وبين القيسية، بعض القبائل وبعضها الآخر وحين أحيوا ذلك التفـاخر وأشاعوه ونشروه، ليشغلوا به الناس، في صـورة شعر النقائض الذي يعتبر أحد الأغراض الشـعرية الرئيسية في العصر الأموي، حيث يهـجو الشاعر قبيلة معينة بصفات الذم الشائعة، فيرد عليه شـاعر آخر من تلك القبيلة يرد هذه الصفات ونفيها عن قبيلته، وإلصاقها بالقبيلة الأخـرى، وما كان لهذا الغرض الشعري أن يظهر وأن ينتشر لولا أن المسؤولين أرادوا أن يشغلوا العامة بشيء يلهيـهم عن التفكير في السلطان ويبعدهم عن الصولجان[3]. فشجعوا ذلك اللون الشعري، كما شجعوا غيره من الشعر الغزلي الذي بلغ القمة لدى شعراء الحجاز في ذلك العصر.

وكان ذلك نوعًا من الجـاهلية تُطلُ برأسها في مجـتمع المسلمين دون أن تجد من بين الناس من يخمد فتنتها في مهـدها ويطفئ نار العصبية قبل أن يزداد أوارها. فهل في مجتمعات المسلمين آثار وصفات جاهلية؟

وإجابة الإثبـات لا تحتاج إلى دليل يضـاف إلى برهان الواقع المشاهد في حـياة المسلمين، فكم من صفة أو سمة من سمات الإسلام وصفاته مغيبة عن الساحة؟ وكم من سمات الجاهلية بارزة تفاخر بوضوحها والتفاف كثير من الناس حولها؟.

لقد غابت عن كـتابات كثيـر من المثقفين إسلاميـة المجتمع فمـاذا حل محلها؟ حلت عصبية القـومية. ولما كانت القومية تجمع عـددًا كبيرًا من الناس والأقطار، كان لابد من تفتيتها هي كذلك برغم ما فيها من العصبية، فحلَّت محلَّها عصبية الوطنية.

---

(١) آل عمران: ١٠٣.

(٢) الوَهْدة: الأرض المنخفضة. المعجم الوسيط (وهد).

(٣) الصوْلجَان، الصولجانة: عصا يحملها الملك ترمز لسلطانه. المعجم الوسيط (صلج).

وكان لابد من تعميق جذورها الوطنية في النفوس بحيث تطغى على كل آصرة أخرى تربط بين المسلمين، فظهر إلى الوجود ما يطلق عليه الفرعونية أو الفينيقية أو الآشورية أو غير ذلك من معاول هدم وحدة الأمة التي جمعها الإسلام، فكان لابد أن تفرقها العصبية الجاهلية، واستمر نبت العصبية ينمو ويهيج دون أن يصغر؛ لأن هناك أياد تسقيه وترعاه وتدعو له، وتذود عن حماه؛ حتى لا تتهدد مصالحها وتنكمش رقعة سلطانها وبسطة نفوذها.

ولسنا نلقي باللائمة على الاستعمار والعالم غير الإسلامي وإن كان له في ذلك ضلع كبير وإنما نلقي باللائمة على أنفسنا وعلى إخواننا المسلمين؛ لأنهم سمحوا لمفاهيم مخالفة للإسلام أن تنتشر فيما بينهم، وتغطي سماءهم، وتطمس معالم الحق من حياتهم مع أن كتاب الحق بين أيديهم وسنة الرسول ﷺ أمامهم، فلماذا يحيدون وكيف يعودون؟.

المبحث الثالث عشر
هذا هو الطريق

تنافرت العرب في جاهليتها: تقاتلت، واستنفـرت بينها العصبية فتقاطعت وتمزقت أواصرها ولم تكن لهـا جامعـة تجمع شتاتهـا، وتوحد طريقهـا وسبيلهـا، وظلت تهتم بسفاسف الأمور على مـستوى الجماعة، فقامت بينها الحـروب أربعين عامًا من أجل ناقة أصابها سهم فأرداها، ومن أجل صيحة أطلقتها امرأة فأثارت فتنًا ونزعت أمنًا، وأحدثت قلقًا وقتلاً، وجاء الإسلام، فأيقظ العرب من سباتها، ورفعها بالتوحيد إلى تدبر شؤونها والاهتمام بالمعـالي، فجمع القلوب بالإيمان وأحيـا الأمة بالإسلام: ﴿**وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**﴾ (١) فليس غير الدين جامعًا للقلوب المتنافـرة، وليس غير الإسـلام مؤلفًا بين هذه الشـعوب المتناثرة، وكلما اقـترب الناس من الدين انمحت من نفـوسهم عـصبيـة الجاهليـة وانطمست من حـياتهم مـعالم الجاهلية، وصار التوحـيد محور حياتهم به يتحركون في الأرض الحركـة المباركة النامية. وبغيره تهن عزيمتهم، وتذهب ريحهم، ويجعل الله بأسهم بينهم شديدًا.

أليست هذه هي حـال أمتنا اليوم؟ ولا خـلاف بين الغيورين في وجـوب الإصلاح، وإنما الخلاف قد يكون في طريقة الإصلاح، وفي البداية التي بها يكون هذا الإصلاح. ولا بأس ـ عندنا ـ أن يبدأ كل إنسان الإصلاح بما يراه مناسبًا طالما أن الغاية في النهاية هي التي ستتحقق، وهي التي ستكون بداية لأمة موحدة الهدف، تُعلي كلمة الله في العالمين.

والإصـلاح في رأينا كـذلك إنما يبـدأ من الداخل بإيقـاف حركـة التـمـزق الفكري والروحي التي تسود الأمة وذلك يكون بالـقضاء على الانهزام النفسي في مجـالات التربية والإعلام وغيرها، وباللجوء إلى القوة التي يمكن بها مواجهة هذا التمزق وهي قوة الإيمان، التي تكون درعًا تتكسر عليه هجمات أعداء الدين. إن قضايا المسلمين الكبرى التي تستحق الاهتمام مـغيبة عن الساحـة، حتى يظل الناس مشغولين بالـسفاسف، وإزالة هذا الوضع خطوة نحو الإصلاح، والالتـقاء بين جميع الاتجاهات العاملة في الميـدان، بحيث لا يسفَّه رأيٌ ولا يحقَّر صاحبه حتى وإن كان مخطئًا، فللمخطئ أجره مادام قد اجتهد.

(١) الأنفال: ٦٣.

وليس يســوغ تلمس المعايب وذكــر المثالب، والتشــهي بإلصاق التــهم بالناس، فذلك مخــالف لدين الله الذي ندعو إليه ونعمل له، ومن أجل إظــهاره بين العالمين، وهو - إن حدث ـ نزغة من نزغات الجاهلية تجب التوبة منها، والابتعاد عنها، وتكاد الأمة اليوم تبرز فيها معالم الجاهلية النفـسية أكثر مما تبرز فيها حقائق الإسلام ﴿**خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا**﴾[1]. وَمَرَدُّ ذلك إلى الغزو الفكري الذي تهب رياحه من الغرب أو الشرق ويشـيع بيننا كمـا يشيع الهـواء، وتبثُّهُ أجـهزة الإعلام المخـتلفة بوسـائلها العصرية بين الكبـار والصغار، دون أن تجد من يتصدَّى لهـذا التيار، وإن وجدت من يتصـدى لذلك، فإنما يعتـمد على جهوده الـذاتية، وطبيعـته الإيمانية من حـيث قوة الإيمان أو ضعفه، وزيادته أو نقصه، ومقـاومة هذا التيار الهدام وبعث روح الحياة في الأمة أمر يحـتاج إلى جهود كثيـرة، بحيث يستوعب جميع العـاملين في الساحة إن أخلصـوا العمل لله، وتكاتفت جـهودهم، وتـلاحمت أيديهم وهي تشـد على هذا الدين وحده، ونبذ كل شيء غـيره. حينئذ تندثر معالم الجـاهلية وتظهر رويدًا رويدًا حقائق الإسلام، فيـحيا الناس به آمنين، بعد أن يزهق الباطل: ﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**﴾[2]. ولن يزهق باطل إن ضعف رجـال الحق. ولن ينتصر الحق إلا برجال يضحون ويبذلون ويحتسـبون، ويكونون أنصار الله في العسر واليسر والشدة والرخاء، فليشمر المخلصون عن ساقهم، ولتلتف القلوب حول الدين، حتى يُمكِّن الله للمسلمين.

---

(١) التوبة: ١٠٢. (٢) الأنبياء: ١٨.

المبحث الرابع عشر

الدين سبيل النهوض بالأمة

ننظر في الجـزيرة العربيـة مع مشـرق الإسلام، فنجـد أنهم تحولوا من التنـاحر والتبـاغض والتقاتل إلى التـآلف والتآزر والمحبـة، وأنهم تحولوا من الفسق والفـجور والعصيان إلى الطاعة والتقوى والإيمان، وأنهم تحولوا من أكل أموال الناس بالباطل، إلى تداول الأمـوال بالتراضي بيـنهم عن طريق التجـارة أو الهـبة أو الهـدية، وأنهم تحولوا من مقاتلة القبائل المجاورة، والاعتـداء عليها وسلب أموالها وسبي نسائها إلى أن يكونوا قوة مؤثرة تدافع عن المظلوم، وتصـون الأعراض، وتفدي الشرف بالأنفس وعزيز المال.

وأنهم تحولوا من تابع مهين للروم تارة وللفرس أخرى إلى قـوة مُهَيْمنة، تنساح وتنساب في الأرض، فـتنتشر الهدى والنور والعـرفان، وتحيي مـوات القلوب وتجعل الناس إخوة متساوين لا خاضعين أذلاء تابعين.

فما القوة التي غيرت هؤلاء الناس؟ وهم هم الذين كانوا من قبل على حال من الفـوضى والاضطراب والخـوف، ثم هم الذين انتظمت بهم الأمـور، وتحـقق على أيديهم الأمـان وسار الراكب مـنهم من صنعاء إلى حـضـرموت لا يخـشى إلا الله والذئب على غنمه.

ما الذي فـعل ذلك؟ إنه الإسلام الذي امـتلأت به القلوب فـأحياها، وانـتشت به الجوانح فطهرها، وتفكرت فيه العقـول فأبدعت، وأظهر للناس علومًا لم تكن من قبل معروفة فـأوجد الحضارة التي ترعرعت، وآتت ثمـارها ـ بعد حين من الدهر ـ في أمة تتأبى على الفَنَاء وتبقى مـا بقيت الأرض والسماء، أمة الإسلام، التي اسـتلهمت كتاب الله فكان دليلها في الحياة، وتتـبعت منهج رسول الله ﷺ، فكان رائدها، والرائد لا يكذب أهله، فقـامت الحيـاة على الصدق مع الله **أولاً**، ومع المنهج **ثانيًا**، ومع الناس **ثالثًا**. فكانت القوة المؤسـسة على التـقوى، وكان الفـتح القائم على الرحمـة، وكانت الأخوة الإسلامية بين الأجناس المختلفة القائمة على العدل والقسطاس.

وأدرك الناس أن ربهم واحـد، وأنهم متسـاوون في أصل الخلقة، وإن تـفاوتت

أرزاقهم، واختلفت قدراتهم، ولذا حفظ التاريخ لنا أقوالاً وأعمالاً للبسطاء من الناس تجاه المشهـورين المعروفين من القادة والحكام والولاة، تدل على علو رفـعة النفوس، واتساع نظرتها فلا ذلة لشخص وإن كان من غـمار الناس وعامتهم أمام سطوة بعض الجبارين، وكم من مواقف لعامة الناس أمام الحجاج بن يوسف الثقفي تدل على أنهم لم يعتبروه غير أنه أثقلهم حملاً، وأكثرهم عبئًا رغم بطشه وجبروته.

هذه نفوس صنعها الإسلام، وعرَّفهـا الغاية، ويسر لها الوسيلة، فانطلقت بقوة عظيمة لم تعرفها أمة من قبل، فبسطت هذا الدين فوق أرض الدنيا القديمة فظهر دين الإسلام على الدين كله ولو كره المشركون.

وما زال دين الإسـلام في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ غـضًا طريًا، لم ينل منه مرور الزمان ولم تغيـره عوادي الأيام. فما بال المسلمين اليوم غيـر مسلمي الأمس؟ وما بال الأمة متأخرة؟ وكيف الطريق إلى النهوض؟ أما مسلمو اليوم، فقد تعلقت قلوبهم بما عند غـير المسـلمين من مظاهر براقـة، وتغلغلت في عـقولهم أفـكار غريبـة عن روح الإسلام، وظنوا أن الإسلام يقبل الضرائر[1]، وأن الدين الحق يمكن أن يتعايش في قلب واحد مع مفاهيم ضالة شـيوعية أو إلحادية أو وضعية أرضية من صنع البـشر، فضعفت منهم العزيمة، وظهرت أمامهم غايات قـريبة توافق الهوى والرغبة وتؤدي إلى زيادة المتاع وليس إلى زيادة الإشباع؛ فتـساهلوا في أمور الدين، واستمسكوا بأمـور الدنيا على نحوٍ سقيمٍ؛ فانحدرت حياتهم فلا هم بالدين مستمسكون، ولا هم في الدنيا متقدمون.

إن غيـر المسلمين لا علم لهم بالآخرة على وجـه اليقين، ولذا فهم في مـجالات الدنيا يصبون كل اهتمامهم، ويتبعون السنة التي أوجدها الله في الكون، وإن لم يكونوا بالله مـؤمنين، فتـعطيهم هذه الـسنة النتائج البـاهرة في العلم والإنتـاج في كل نواحي الحياة، فيستمتعون ويأكلون ويشـربون وقد يلهون ويلعبون، ولولا الثروات الطبيعية التي خلقهـا الله في بلاد المسلمين، وجعل غيـرهم محتـاجًا إليهـا، لاستقل غـير المسلمين بنتاجهم وجهودهم، وربما حرموا المسلمين من كثير مما ينتجونه في مزارعهم ومصانعهم، ولكن الله الرحيم جعل عند البعض ما يحتاج إليه الآخر؛ لتستقيم الحياة وتستمر.

(١) جمع ضرَّة: إحدى زوجتي الرجل. المعجم الوسيط (ضرر).

والمسلمون عَـزُّوا وسادوا حين اتبعـوا الدين، وأحفادهم هم الذين ضـاعوا بين الناس عندما تركوه خلفهم ظهريًا وأخذوا بعضـه وتركوا بعضه، فصاروا مثل الغراب الذي أراد أن يقلد الطاووس فلم يفلح، فلما أراد أن يعود غرابًا كما كان من قبل كان الاعوجاج قد أخذ منه مأخذه فلم يفلح كذلك ولم ينجح، فلا هو صار طاووسًا ولا هو بقي غرابًا.

فالدين لن يمنع مسلمي اليوم من أن يأخذوا الحيـاة الجادة كما يأخذها غيرهم بل أكثر؛ لأنهم ـ قـبل غيرهم من الناس ـ مأمورون بالقيـام بواجب الخلافة في الأرض وعـمرانهـا، ومـسؤولون عن ذلك أمـام الله رب العـالمين يوم الدين. فلمـاذا أهمل المسلمون ذلك؟

إن تأخر الأمة مـدخله من هذا الجانب، فهل يتغلب المسلمـون على هذه النزعة في سلوكهم، ليضعوا أقدامهم على بداية طريق النهضة والحضارة؟

المبحث الخامس عشر

المسؤولية

الممارسة العــملية للنظريات الأخلاقية هي الفــارق بين المسلمين وبين غيرهــم في هذه الناحية، فبينمــا اكتفى غير المسلمين بترديد النظريات، وتقنينها، وحسن صــياغتها وفلسفــتها، كــان المسلمون الصــادقون يأخذون أنفــسهم بالتطبيق العــملي، والسلوك الفعلي للأخلاق التي نادى بها القرآن ونبه عليها الرسول عليه الصلاة والسلام، كانوا يأخذون أنفسهم بذلك حــتى لا يقعوا في دائرة قول الله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾[١].

وأعظم الأخلاق وأقــواها في ـ نظرنا ـ تحمل المســؤولية، التي تقــوم على الصدق والصبر والبذل والأمــانة والعفة والوفاء، وغير ذلك من الجوانب الأخــلاقية التي تكتمل في النفس، فتجعل صــاحبها قادرًا على تحمل المسؤوليــة أمام الله وأمام الناس، أمام الله بحسن المراقــبة، وأمام الناس بأداء الحقــوق والقيام بالواجبــات، وكف الظلم ودفع الشر عنهم: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»[٢]. وكان المسلمون الصادقون في إيمانهم هذا المنحى الأخلاقي في كل الظروف التي قد لا تكون مواتية في معظم الأحيان.

ولم تكن الظروف مواتية للمسلمين في غزوة الأحــزاب، ولكنهم ثبتوا متحملين للمسؤوليــة المفروضة عليهم قائمين بحــقها خير قيــام، ولم تكن الظروف مواتية يوم وقف أبو بكر يعلن في المدينة أنه سيقاتل المرتدين هو ومن معه من المسلمين، ولكنهم كانوا متحملين للمسؤولية، ولم تكن الظروف الشخصية ولا المصالح الذاتية هي التي تدفع ابن الخطاب للعدل والبذل، لكنه تحمل المسؤولية.

وتحمــل المسؤوليــة هذا المبني على أساس من الإيمان، كــان العامل الفــاعل في النهضة الإسلامية، فلماذا تعب العلماء وسهروا وسافروا وارتحلوا وتحملوا كثير المشاق من ضنك الفقر ـ أحيانًا ـ في سبيل تحقيق مــسألة علمية، أو استخراج حكم فقهي،

---

(١) الصف: ٢، ٣.

(٢) سبق تخريجه.

أو اكتشاف نظرية جديدة في الفلك أو الطب أو البصريات أو غير ذلك؟ لا إجابة عن هذا السؤال غير إحساس العلماء بالمسؤولية نحو الأمة، وأن عليهم واجبًا نحوها.

ولماذا وقف كثير من العلماء أمام المناكر السائدة يحاولون تغييرها بالوسائل المشروعة، وماذا سيعود عليهم من ذلك؟ لا إجابة أيضًا غير تحمل المسؤولية، وهذا هو الإمام أحمد في محنته طُلب منه أن يقول كلمة يكف بها الأذى عن نفسه، ولكنه نظر إلى الجموع التي تنظر إليه، وقال: «أيضل هؤلاء جميعًا لأنجو»، فثبت على المكاره متحملاً المسؤولية أمام الناس.

وما أصيبت أمتنا في العصور المتأخرة بأمراضها، إلا من ضعف الإحساس بالمسؤولية أو تلاشيها، فَدَبَّ فيها الوهن، ونما في أعضائها الفتور، فتراخت شدتها وذهبت قوتها.

وما زال سوس هذا الداء ينخر في عظامها عند الكثيرين من المسلمين، فكم من موظف لا يشعر بالمسؤولية تجاه عمله، وكم من مدرس لا يشعر بالمسؤولية تجاه تلاميذه، وكم من مسؤول لا يشعر بالمسؤولية عما تحت يده، وكم من جندي. . . وكم من قائد. . وكم من عامل؟!! وهكذا في جميع مجالات الحياة تجد الإحساس بالمسؤولية مفقودًا، بعدما فقد الأسس التي يقوم عليها، فالصدق والصبر والعفة والوفاء والتضحية والبذل، وغيرها إن وجدت في إنسان فلا تجدها في آخر، وقد تُوجَد بعض هذه الأخلاق عند بعض الناس جزءًا من الوقت فلا تُحْدِثُ أثرًا ولا تفيد شيئًا.

وصار من المستساغ عن الناس أن يتحدثوا عن النظرية الأخلاقية، ويستمتعوا بها في ذاتها، ثم لا يتوقعوا تطبيقها في واقع الأرض، وإنما يسيرون في هذا الواقع بحسب الظروف[1]. ومن ثم نشأت بناءً على هذه النظرية الدسائس والمؤامرات للوصول إلى الغاية عن أي طريق إلا طريق تحمل المسؤولية، فَعُرِفَتْ المكائد في السياسة، وعرف الاستغلال في التجارة، وعرفت الخيانات بين الأفراد والمجتمعات، وقامت أمور الناس على الهوى لا على الحق، وصار كل واحد ينظر إلى ذاته لا إلى مسؤوليته، فبقدر ما يصيب من متاع الحياة فهو منعم! وبقدر ما يتوصل لتحقيق أغراضه بأي وسيلة كانت، فهو متفرد في السياسة، عبقري في الكياسة.

(١) جاهلية القرن العشرين، ص ١٥٣.

أين النظرة إلى الآخرين؟ أين حقوقهم؟ أين واجبـاتهم؟ أين المسؤولية عما يقوم به الإنسان من عـمل؟ كل هذا ضاع عند كـثير من الناس؛ لأن الأسـاس الإيماني قد ضعف.

وحياة الأمة وبعث شبابها من جديد متوقف على إحياء هذا الإحساس: «**تحمل المسؤولية**» في نفوس الأفـراد، فينتظم العمل، وتظهر التـضحيات، ويكثـر البذل، ويشيع العفو والخير، ويتضاعف الجهد، ويزيد الإنتاج، وتكون الأمة حينذاك كالساعة المنضبطة، كل جزء فيـها يؤدي عمله بدقة؛ لتتكامل هذه الأعمال فـتنتج قوة وتقدمًا وتطوراً.

المبحث السادس عشر

حتى لا تسيل الدماء على المصحف

عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية: **﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾**[١] قال رسول الله ﷺ: «**أعوذ بوجهك**» **﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾** قال: «**هذا أهون وأيسر**»[٢].

والآية تحدثنا عن الآفات التي تصيب الأمم بسبب ظلمها لنفسها، وبغيها على حقها، وخروجها عن منهج الله في سننه في الكون، وهذه الآفات هي عذاب الرجم أو الخسف أو غيرهما من أنواع العذاب الذي يصب من أعلى أو يَتَفَجَّر من أسفل، وهذا لا طاقة لنا به ونحن نتجه إلى الله بالدعاء ليكف عنا هذا العذاب، ويقينا شره، والدعاء سلاح بتار، يصعد إلى السماء فيلقى القضاء النازل، فيظلان يعتلجان[٣] إلى يوم القيامة ومن رحمة الله بنا أن جعل لنا هذا السلاح، لنقوي به، وندفع به عن أنفسنا وعن إخواننا ما لا نملك له دفعًا بأيدينا، ومن الذي يتصدى لعذاب نازل من أعلى أو صاعد من أسفل؟ ولكن الدعاء يحمي، والإخلاص يفدي صاحبه وينجيه من المخاطر والمهلكات.

وتبقى آفتان أخريان في مقدور البشر أن يتغلبوا عليهما ـ إن صلحت النيات وصدقت التوجهات ـ إنهما: **﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾** وهما اللتان قال عنهما رسول الله ﷺ: «**هذا أهون وأيسر**» وهذا الأهون والأيسر الذي في مقدور البشر هو مجال حديثنا، الذي نتقي به الفتنة حتى لا تعصف بشعبنا في وقت نحن أحوج فيه إلى التآلف والتماسك في وجه عدو يتربَّصُ ويتمترس وراء جزء من شعبنا يحتجزهم في سجونه، ولا يعترف بوجودهم ولا بكيانهم رغم كل الجهود التي تبذل في هذا السبيل فهل هذا وقت فتنة؟ أو هو وقت تشكيك في سلطة تبذل جهدها وتأخذ حذرها، وتحاول ما استطاعت أن تدرأ الفتنة عن أبناء شعبها؟

والسلطة المعنيَّة هنا هي السلطة التنفيذية ممثلة في مجلس الوزراء والتي يتولى

---

(١) الأنعام: ٦٥.
(٢) أخرجه البخاري (٤٦٢٨).
(٣) اعتلجا: اصطرعا وتقاتلا، المعجم الوسيط (علج).

أمرها سمو ولي العهد، وهي كذلك السلطة التشريعية ممثلة في مجلس الأمة، والسلطتان التنفيذية والتشريعية كلتاهما تمثلان ولاة الأمور، الذين من الخطر أن يفقدوا هيبتهم؛ لأن فقدان هذه الهيبة للسلطتين، فقدان لهيبة البلد ذاته أمام العدو.

وبقاء هيبة السلطة بقاء لهيبة البلد أمام العدو الذي يحتجز جزءًا من شعبنا ويتربص بنا ويكاد يلاحق حركتنا في المحافل الدولية، فلا ينبغي أن نهدم بأيدينا وألسنتنا صرح قوتنا الذي مازلنا نبني فيه منذ التحرير.

وما حدث في ٢ أغسطس ١٩٩٠م ليس عنا ببعيد، فهل نعيدها جذعة[1] الآن كما كانت في سنة ١٩٩٠؟ إن كلمة غير مسؤولة قد يتفوه بها إنسان تحمل في ثناياها كثيرًا من الآلام والدماء وتثير كثيرًا من الزوابع والقلاقل التي لا تنتهي حتى تأتي على الأخضر واليابس وتهلك الحرث والنسل. وهذا أبومعبد عبد الله بن عكيم الجهني ظل نادمًا طويلاً على كلمات قالها لعثمان بن عفان رضى الله عنه ظن أنه ينصحه بها جهارًا، فتلقف أصحاب النوايا الخبيثة كلماته، واستباحوا بها دم الخليفة الراشد عثمان.

وَرَامُوا دَمَ الإِسْلامِ لا مِنْ جَهَالَةٍ ... وَلا خَطَّ بَلْ حَاوَلُوهُ عَلَى عَمْدٍ

يقول عبد الله بن عكيم بعد ذلك: «لا أعين على دم خليفة أبدًا بعد عثمان». والناس يعلمون أن أبا معبد لم يرفع سيفًا في وجه عثمان، فكيف يقول ذلك؟ ولذا سألوه: يا أبا معبد، أوَ أَعَنْتَ على دَمِهِ؟

قال: إني لأرى ذكر مساوئ الرجل عونًا على دمه.

فقد اعتبر هذا التابعي الجليل أن كلمة منه إلى الخليفة جاءت في غير موضعها ساعدت على قتله.

فكيف بنا اليوم والكلمات الكثيرة تأتي في غير موضعها، وتصيب أعضاء من بيننا يحملون تبعة أعظم مما نحمل، وثقلاً أكبر مما نطيق؟ وهم يملكون توجيه الأمة بحكم ما هم عليه من نضج فكري وسياسي، وإلمام بما ظهر من الأمور وما خفي، وما ينبغي أن يقال جهارًا وما ينبغي أن يقال إسرارًا، وما ليس يقال جهارًا ولا إسرارًا، إن هؤلاء هم الذين يوجهون الأمة، وأما غيرهم ممن لم يبلغ هذه الدرجة

---

(١) الجَذَع من الرجال: الشاب الحدث، وأعدت الأمر جذعًا: جديدًا كما بدأ. المعجم الوسيط (جذع).

من النضج والوعي فله حـق أن يَنصح وأن يُشيـر وأن يسـتمع لرأيه، أمـا أن يشكك ويهدم ويثـير بين الناس القلاقل والشـائعات فلا، ثُمَّ ألـف لا، إن طريق الأمة يبنى على الصبر واليقـين، الصبر على كل ما ينبغي أن يصبر علـيه واليقين في أن الإنسان سائر على الحق بعيدًا عن الظلم والجور ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾[(١)]. هذا هو طريق الأمن والاسـتـقـرار، الذي نـشده لـوطننا وأبناء شعـبنا، وهذا لا يمنع أن يكون هناك ـ عند رؤيـة الخطر ـ من ينادي بالنفيـر، ويطلق صيـحة التحذير، وهذه مـهمة السلطة بالدرجـة الأولى قبل غيرها من المسـؤوليات، وقبل غيرها من الناس، إن أهل الكويت جنود في معركـة، والجندي غير مسموح له أن يستـرخي ـ وقت الحرب ـ ولا أن يغـفل وقت اليقظة، وهو بحـاجة إلى التذكـير الدائم بما عليه مـن واجب، حتى لا يفرط في حق نفـسه أو حق مجـتمعـه ودولته، حتى لا تكون غفلة بيننا، تنتزع من بين أيدينا أعز ما نحرص عليه، ونبذل نفوسنا في سبيل المحـافظة عليه، فهل تموت الفـتنة في مهدها؟ وهل تبقى نائمـة دون أن يعمل أحد بسوء نيـة أو بحسن نية على إيقاظهـا، فتختلط المفاهيم ويكـثر اللغط ويضعف الأمن وتسيل الدماء؟ فهل في هذا عبـرة لمعتبر أو عظة لمتعظ؟ ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾[(٢)].

---

(١) السجدة: ٢٤.

(٢) ق: ٣٧.

المبحث السابع عشر
صناعة الأحداث

الأمة الإسلامية حياتها في الاستجابة لأمر ربها، هذا هو قدرها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[(١)]. وهذه الحقيقة تتناسق مع الحقيقة القائلة: إن الوجود كله محكوم بقضية مسلمة لا يجوز تخطيها وهي ـ الله وما دونه خلق له ـ وضياع هذه الأمور من واقع المسلمين جعلهم عالة على هامش الحياة، وعادت الصنمية إلى حياتهم من جديد وبدأوا يبحثون عن العز والنصر من خلال الغرب والشرق.

وتلك هي الانهزامية التي دمرت الأندلس؛ حيث تحركت الطوائف تطلب الاستعانة بالأسبان وغيرهم من أعداء الأمة من أجل أن يساعدوهم على تأسيس ملكهم، فكان الدمار؛ لأن الركون على من لا يصلح الركون إليه والثقة بمن لا تنبغي الثقة به سبب لاختلال الأمن والسلام وفساد الحال، فالعالم اليوم في نظامه الحديد وإن كان ظاهره الأمن والسلام العالمي، ولكن حقيقته الواقعية تبين أن العالم لا يعرف إلا صراع القوى.

والروابط السياسية ما هي إلا وسيلة القويِّ لابتلاع الضعيف، وللأسف الشديد! فالناظر في حالنا يرى أن ضعف الأمة الإسلامية ليس من خارجها، وإنما هو آتٍ من أنفسنا وتشرذُمِنَا، وبروز الصنمية بأبشع صورها حتى سمعنا من أقارب الزعيم الفلسطيني عرفات من يقول بعد توقيع ما يسمى « بغزة ـ أريحا»: «إن الزعيم من حقه أن يتفاوض ولو على سنتيمتر واحد» ومع انتشار هذا النوع من التقديس للزعامات المصنوعة التي تألَّهَتْ على البشر، والتي أعطاها البشر حق التصرُّف في كل شيء حتى قال قائلهم في وقت الغزو العراقي الغاشم على الكويت: «إذا قال صدام فقد قال العراق»، أيُّ صنمية أكبر من هذا؟ وتظل هذه الزعامات كبيرة عند شعوبها المسكينة ولكنها دمى صغيرة يلعب بها ويديرها الكبار من دهاقنة السياسة في الغرب، وهؤلاء الكبار يعرفون كيف يديرون اللعبة فيدخلون علينا أسودًا ضارية في جلود ضأن ثاغية، إنهم يعرفون كيف يستخدمون الظروف المحيطة بنا.

---

(١) الأنفال: ٢٤.

ولننظر في التـاريخ ونأخذ العبـر، ففى الوقت الذي جمـدت الدولة العثمـانية أوجد الإنجليز حرية الكلمـة في مصر ليخلقوا حرية وهمية يسـتفيدون منها في وقت محدد مرسـوم من قبلهم في خططهم الاستراتيجية، فـفي الوقـت الـذي كـان فيه أبو الهدى الصـيادي يؤصل لحركـة الجمود في داخل الدولة العـثمانية كـان الإنجليز يهيئـون الأجواء في مصر لإتاحـة أجواء الحرية المصطنعة لتـبدأ إليها هجـرة القيادات الإسلامية لاستخدامها في ضـرب وحدة الدولة العثمانية من حيث لا يشعرون، فنرى أن الشيخ محـمد رشيد رضا هاجـر من لبنان إلى مصر والتقى هناك بالشيخ مـحمد عبده وبدأ في عـملية الإصلاح والنقد للدولة العـثمانية بإصدار مـجلة المنار، وسقط السلطان عـبد الحمـيد وجـاءت جمـاعة الاتحاد والتـرقي وَنُفِّذَ المخطط الغـربي بأيدٍ إسلامـية، وفـرح شوقي وقـال: «يَا خَالِدَ التُّـرْكِ جَدِّدْ خَالِـدَ الْعَرَبِ»، **وقال شـيخ الأزهر**: « إن دولة الأمويين قادمة».

ولكن سرعـان ما ظهـرت المؤامرة ووضعت نقـاط اتفاق سايكـس بيكو موضع التنفيذ، وقسمت الأمة، وندم شوقي على مدحـه، وأراد الشيخ محمد عبده أن يتدارك الأمر ولكن وقت الحرية الوهمية قد انتهى، وظهر الوجه الحـقيقي للمستعمر وَاعْتُقِلَ الشيخ مـحمد رشـيد رضا في طرابلس لبنان من قـبل الجيش الفـرنسي؛ لأنه يحمل ورقات فيها تفسير بعض الآيات..

وهكذا تصنع الأحداث فأين نحن منها؟؟ نعم:

أَيْنَ التَّوَارِيخُ نَسْتَقْصِي عَجَائِبَهَا وَأَيْنَ مَا وَعَتِ الآثَارُ وَالسِّيَرُ

المبحث الثامن عشر

تحذير الأبرار.. من مساجد الضرار

قيمة الجهاد تشوهت بين المثبطين والمتخبطين

أجد لزاماً اليوم دعوة الأمة الإسلامية إلى تأكيد هويتها وحضارتها وثقافتها، وتأصيل روح التميز لديها بما تحمله من قيم ومبادئ رفيعة أكثر من أي وقت آخر، بل إن الحاجة إلى إبراز روح المجتمع الإسلامي، وأسسه ومقوماته أصبحت حاجة ملحة في هذا الوقت التي برزت فيه الفتنة برؤوسها، وهبت العواصف عاتية تحاول أن تقتلع هذه الثوابت من أجل تقديم نسخة معدلة من الإسلام، وتقديمه للناس كإسلام كنسي يرضي من بيدهم القوة الباغية، ومن نسب إلى نفسه امتلاك حق توزيع صكوك الاتهام ورعاية الإرهاب لمن شاء دون حسيب أو رقيب.

إننا نشتم هذه الأيام محاولات حثيثة لإعادة التكوين النفسي والعقلي للشعوب العربية والمسلمة، من خلال التدخل السافر والمفضوح في مناهجنا الدراسية وممارستنا الحياتية، وقيمنا الدينية ومحاولة إخضاعها لعملية استنساخ لإخراج نسخة منقحة ترضي الأهواء المريضة، وتجفف كل منابع المقاومة التي تبحث عن مخرج لنهضة الأمة بعيداً عن القيم الدخيلة، التي تحاول القوى الغربية فرضها على المجتمعات الإسلامية لوأد كل محاولة للنهوض لا تمر عبر تبني القيم العلمانية والتحرر الأخلاقي والحرية الفردية المطلقة، وكل ما من شأنه جعل المجتمعات الإسلامية نسخة مطابقة للمجتمعات الغربية..

إننا نجد أن الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ هو المستهدف، ويتعرض الآن لمحاولات محمومة لتجزيئه عبر عملية انتقائية، سيتحول بعدها إلى ما يشبه الكنيسة التي يدخلها المؤمنون كل يوم أحد أو جمعة.. لا فرق...

إننا نعرف الإسلام ثمانية أسهم كما جاء في الحديث النبوي الشريف فقد روى ابن أبي شيبة وعبد الرزاق عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**الإسلام ثمانية أسهم: الإسلام سهم، والصلاة سهم، والزكاة سهم، والحج سهم، والجهاد سهم، وصوم رمضان سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر سهم، وقد خاب من لا سهم له..** »[1].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥٠١١، ٩٢٨٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٩٩١٠)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٧٤١): «حسن لغيره».

ويبدو أن القوى الغربية تريد لنا الخيبة، فهي لا ترغب لنا لا بسهم الجهاد ولا بسهم الأمر بالمعروف ولا بسهم النهي عن المنكر، وهذا الذي حذر منه رسول الله ﷺ الذي اعتبر عمود الإسلام الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، فقد روى أبو داود وأحمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلّط الله عليكم ذلاً، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم** »[1]، فالجهاد أفضل العمل بعد الإيمان في سبيل الله، وغدوة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، وسياحة هذه الأمة في الجهاد، والجنة تحت ظلال السيوف، والقدم التي اغبرت في سبيل الله، والعين التي باتت تحرس في سبيل الله لا تمسهما النار، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، ومن لم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق، وغيرها الكثير من الفضائل التي وردت في القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية الشريفة، مما يدل على أهمية ركن الجهاد في الإسلام؛ حيث حفظ هذا الركن بيضة الإسلام عبر التاريخ من هجمات همجية تترية وصليبية ويهودية وشيوعية، كادت في لحظات تاريخية حاسمة أن تقضي قضاء نهائياً على قوة المسلمين لولا أن تصدى لها فرسان وشخصيات يذكرها التاريخ الإسلامي بكل إجلال وإباء.

نحن نذكر ذلك، ونعلم أن أصابع الاتهام تكاد توجه إلينا بأننا من دعاة الإرهاب ومؤيديه في زمن أصبح القابض على دينه في كثير من مناطق العالم كالقابض على الجمر، حتى أصبحت كثير من الدول تعتقل المسلمين والعرب بدون جريرة، وتتخذ كافة الإجراءات التعسفية بحقهم من أجل إرضاء القوى الغربية، وكأننا أصبحنا (الطوفة الهبيطة) لكل من يريد أن يجامل أمريكا وعلى حسابنا.

يجب أن نكون واضحين بقدر ما نؤكد على إيماننا العميق بكل أركان ديننا الحنيف، وخاصة ركن الجهاد الذي تعرض لكثير من التشويه والظلم والتعسف، وإلصاق كل تهمة رديئة به، أقول يجب أن نكون واضحين في ضياع الأفهام وزيغ الأبصار عن الاهتمام بفهم معتدل وسطي لموضوع الجهاد في الإسلام، وكأنني أرى الأمة في الوقت المعاصر انقسمت إلى ثلاث فرق في هذا الموضوع :

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٣٨٩): «صحيح لغيره»..

الفرقة الأولى : جماعة مسجد الضرار:

الفرقـة الأولى هم أصحـاب مسـجد الضـرار الذي ورد ذكرهم في القـرآن الكريم والسيرة النبوية، حيث ذكر ابن هشام أن أصحـاب مسجد الضرار كانوا قد أتوا إلى رسول الله ﷺ وهو يتجهز للخروج إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيـرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا، فتصلي لنا فـيه، فقال ﷺ : «**إني على جناح سفـر، وحال شغل، ولو قدمنا إن شـاء الله لأتيناكم، فصلينا لكم فيه**»[١]، وعندما عاد الرسول ﷺ من غزوة تـبوك وقفل راجعاً، وصل إلى (ذي أدان) وهي بلد تبعد عن المدينة سـاعة من نهار، فلما وصل تلك البلدة جاءه خـبر هذا المسجد الذي اتخذه المنافقون مركزاً للتآمر على الدعوة الإسلامية، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن أمر اثنين من الصـحابة، فانطلقا فـحرقا مسجـد الضرار وهدماه، ونزل فيـهم قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٢].

وأصل قصـة مسـجد الضـرار ما قام به أبو عـامر الراهب الذي رفض الـدخول في الإسلام وظل يكيـد لأهله، حتى وصل به المكر إلى السفر إلى ملك الروم يسـتنصره على النبي ﷺ فوعده ومنّاه وأقام عنده، وكتب أبو الراهب إلى جماعة من المنافقين في المدينة يعدهم بأنه سيستعين بالروم، ويقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه، وأمرهم أن يتـخذوا له مـعقـلاً يقوم عليـهم فيـه يتآمـرون ويجهـزون العدة للقـضاء على الـرسول ﷺوالمسلمين، فشرعـوا في بناء مسجد مجـاور لمسجد قباء، فهـو لم يعد إلا للإضرار بالمسلمين والكفر بالله، وستر المتآمرين على الجماعة المسلمة، الكائدين لها في الظلام.

ويعلق سيد قطب ـ رحمه الله ـ تعليـقاً بليغاً عندما قال: «هذا المسجد (الضرار) ما يزال يتـخذ في صور شتى تلائم ارتقـاء الوسائل الخبـيثة التي يتخـذها أعداء هذا الدين، تتخذ في صورة نشاط ظاهره الإسـلام، وباطنه لسحق الإسلام، أو تشويهه، أو تمويهه أو تمييعـه! وتتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليهـا لتتترس وراءها وهي ترمي هذا الدين! وتتـخـذ في صورة تشكـيلات وتنظيـمـات وكتب وبحـوث تتحدث عن الإسلام لتنحدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق. . .».

---

(١) أخرجه ابن إسحاق كما فى السيـرة النبوية لابن هشام (٥/ ٢١١)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٥٩، ٢٦٠)، عن ثقة من بني عمرو بن عوف، وضعفه الألباني في تخريجه لفقه السيرة للغزالى (٤١٥).

(٢) التوبة: ١٠٧.

فما أكثر مساجد الضرار في زمننا هذا التي تتخذ من بعض التجمعات والمراكز الإسلامية وسيلة لتشويه الجهاد وإماتة فقهه وفكره، من خلال ظهور جماعات إسلامية متنوعة ومدعومة بصورة أو بأخرى للقيام بدورها المرسوم في التثبيط في صفوف الصحوة الإسلامية، هذه الجماعات التي لم تكتف بمرجعية واحدة في كل دولة إسلامية، بل نجدها باضت وفرخت وتوزعت في مختلف المناطق من كل دولة، حتى أصبحت تقوم بدور أبو عامر الراهب مع الروم وتبنت الأطروحات الغربية التي تريد تحويل الإسلام إلى دين كنسي بحلول العام ٢٠٢٠م، حيث ستنتهي بعدها الحرب على الإرهاب كما يزعمون، ويبدأ عهد الدين الكنسي الذي لا طعم له ولا لون ولا رائحة، حيث يعمل الإرجاء عمله في صفوف المسلمين.

نحن لم نطلع على وثائق وأوراق في هذا الصدد إنما نستقرئ الواقع في ضوء التاريخ، وما هؤلاء المدسوسين على الإسلام في شكل مراكز إسلامية وجماعات تهدف إلى ربط الجهاد وتكبيله بضوابط وآليات تجعله في خانة المستحيل، وهم يدعون ظاهراً حرصهم على المسلمين، وباطناً يحققون أهداف من يدعمونهم ليقدموا للناس ديناً تؤكل حقوق أتباعه ويساقون إلى المذبحة كالشياه، كل ذلك بدعوى التسامح الديني الذي لا نجده أبداً في غير الإسلام.

هذا المخطط ليس بجديد، بل مخطط قديم منذ سقوط الخلافة الإسلامية وإنشاء المؤسسات الماسونية، وإدخال رجال الإصلاح الديني فيها كجمال الدين الأفغاني دون أن يشعر هو وغيره من المصلحين، ومن ثم التخلص من كل من ينادي بعزة هذه الأمة وجعل الجهاد سبيلها والموت في سبيل الله أسمى أمانيها.

وما أمر اغتيال الإمام الشهيد حسن البنا عنا ببعيد عندما تآمرت الدنيا كلها على قتله نظراً لما يمثله من فكرة النهوض لدى بالأمة، وقتل سيد قطب من بعده، الذي كتب في الظلال ما يكشف عورات أعداء هذا الدين ويكشفهم ويكشف مخططاتهم في ضوء السنن القرآنية التي استقرأها وهو يعيش لأمته ومستقبلها..

إننا نتوقع في الفترة القادمة سلسلة من الاغتيالات من خلال الصلاحيات الممنوحة لفريق **C.I.A** لإنهاء كل من يجدد لهذه الأمة أمر دينها ويتحدث عن مصطلح الجهاد، حتى أصبحت هذه الكلمة منكرة ويجب أن تحذف من مناهجنا

التعليمية وهذا ما حرص عليـه يهود في معاهدات سلامهم الكاذبة مع العرب، وكل متابع لبعض المناهج التعليمية في الدول العربية يدرك خطورة الطبخة التي تعد، ولعل المخطط الأمريكي المقـترح للسيطرة على المدارس الدينية فـي باكستان وتوفيـر مليارى دولار لمراقبتها ودمجها في نظام التعليم الحكومي أكبر دليل ومؤشر على ذلك.

وفي هذا السياق أصبـحت المسائل واضحة والأغراض الدنيئـة جلية في الهجوم المتواتر على الحصن الحصين في المملكة العربية السعودية من أجل التدخل في شؤونها الداخلية والوصـول إلى مناهج التعليم، لأنهم يعرفـون العمق الذي تمثله المملكة في العالمين العربي والإسلامي، وأن المنهج الذي اختطته المملكة نهج لا يرضي التوجهات الرامية لإنهاك المسلمين وإذلالهم، وأن المملكة العربية السعودية التي لها شرف الدفاع عن الكتاب والسنة ستتحـمل المرجفين والمنافقين من الداخل، والأعداء الذين يجلبون بخيلهم ورجلهم من الخارج،وسيخيب الله أملهم إن شاء الله.

إن كبار مـفكري الغرب يقومون بحملة مـحمومة للنيل من الرمـوز والمؤسسات الإسلامية؛فهذا (فوكوياما) صاحب نظرية (نهاية التاريخ) السخيفة يدعي أن المسلمين هدفهم تقـويض أسس العالم المعاصر في «حـركة ارتجاعيـة عنيفة بائسة ضـد العالم الحديث». ويضيف متوهماً «إن الإسلام هو الحضـارة الرئيسية الوحيدة في العالم التي يمكن الجدال بأنه لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة».

ويطعن هذا المفكر في التوجه الإسلامي للمـملكة عندما يذكر صراحة أنه (يمكن تضيف الفكر الوهابي بسـهولة على أنه إسلامية فـاشية: فهناك كتـاب دراسي إجباري للصف الـ ١٠ يشرح أنه «يجب على المسلمين أن يخلصوا لبعضهم بعضاً وأن يعتبروا الكفار أعداءهم». ويضيف « أنه لم يروج السعوديون هذه العقيدة في الشرق الأوسط فقط فـحسب بل في الولايات المتحـدة أيضاً، حيث قيل إنـهم أنفقوا مئـات ملايين الدولارات على بناء المدارس والمساجد»؟

الفرقة الثانية: الجهاد المنفلت:

إذا كانت الفرقة الأولى تسعى بكل الوسائل وعلى نظام مساجد الضرار من أجل إماتة فـقه وفكرة الجـهاد في نفـوس المسلمين، تماماً مثـل القاديانية التي نـشأت سنة ١٩٠٠، بتخطيط من الاستعمار الإنجليزي في القارة الهندية بهدف إبعاد المسلمين عن

فريضة الجهاد، فإن الفريق الثاني فريق يعيد سيرة الخوارج، ويدخل الأمة معه في أنفاق مظلمة، ومصائر مجهولة، فهو فريق مهووس ومفتون بالجهاد، دون أن يكون لديه فقه رشيد في المسألة، وبعض تياراته التكفيرية أدخلت الأمة في دوامة من الدماء والعنف، وحطمت المجتمعات المدنية والدينية في دولها، تلك التيارات تملك الكثير الكثير من العنف، والقليل القليل من الفقه، فلا ضوابط ولا آليات ولا أولويات، ولا فقه مقاصد ولا اجتهاد في موضعه المناسب، ولا استدلال صحيح بالسنة والسيرة، يسقطون أحكام المرحلة المدنية من السيرة على المرحلة المكية، ويستعملون فقه التمكين في زمن الضعف، مما جر على الأمة ويلات كثيرة، فلا هم قاموا بواجبهم لتبليغ الدعوة إلى الناس، ولا هم فرقوا بين المقاتل والمسالم، ولا بين دار الحرب ودار السلم، ودار الهدنة، ولا هم اطلعوا على فقه الجهاد ودرسوه بتمعن وتعمق على يد علماء الأمة الثقات والمعتبرين، فتجد أحدهم يحرم التصوير الفوتغرافي ويحل دم أخيه المسلم، والآخر يجر الأمة إلى بلاء لا تقدر على مواجهته،والآخر يتفنن في تشويه صورة الإسلام والمسلمين بجهله وممارساته الهمجية، كل ذلك باسم الإسلام والاسلام منه براء.

فماذا قرأ هؤلاء في الأحكام السلطانية والإمامة والسياسة الشرعية والخلافة وقواعد وأنظمة الحكم في الإسلام والشريعة وفقه الخلافة وسياسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأصول الدعوة، والثوابت والمتغيرات في العمل الإسلامي، والحسبة ودرجات تغيير المنكر، وصفات الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وضوابط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والولاء والبراء، وأحكام أهل الذمة، وأحكام الردة والمرتدين، وحقوق أهل الذمة في الإسلام،والعلاقات الإسلامية الدولية،والتشريع الجنائي الإسلامي، وحقوق المعاهدين،وعقود الأمان في الشريعة الإسلامية،والاقتصاد الإسلامي والمعاملات المالية الإسلامية،والعمل الجماعي في الإسلام وسياسة الرعية والجهاد في القرآن والسنة، والقتال في السياسة الشرعية، وأسس الدعوة الإسلامية ومستلزماتها في العصر الحاضر،ومنهج الإسلام السياسي، والدروس والعبر من الغزوات النبوية، والشورى وأحكامها، ودار الإسلام ودار الحرب، والتعددية الإسلامية وغيرها الكثير مما يجب أن يعلمه كل مسلم قبل أن يرفع السلاح ليريق دم إنسان.

الفرقة الثالثة : فرقة الصمت والحيرة:

أما الفرقة الثـالثة فهي الفرقة الوسطية، التي أدركت خبث وسائل أتـباع مسجد الضرار، كمـا أدركت مخاطر الفرقـة التي تنادي بالجهاد بلا معـركة ولا أرض حرب ولا ضوابط، وهذه الفـرقة على الرغم من أنها الغـالبية إلا أنهـا انقسمت كثـيراً في التعبير عن نفسها، فتـارة تجدها بدافع الحب للإسلام وحرصاً عليه من التشويه تسعى بكل وسائلها المتـاحة إلى التعريف بمدى حرص الإسلام على الدمـاء، وعدم تعريض الأبرياء للقتل، حتى تكـاد تصل في ذلك أن تختل لديها الموازين فتبـيح المشاركة في القوات الغربية التـي ذهبت لقصف أفغانستان، وتارة أخرى تجـدها حزينة على ما آل إليه الإسـلام وأهله في فلسطين والشـيشـان وكشـمير حـتى تجد نفـسهـا في خندق التعاطف مع بن لادن على الرغم من اعتراضها على كثير من أفكاره وأطروحاته. . . هذه الفرقـة مطالبة اليوم بإبراز وجه الإسـلام المعتدل الذي لا يميت الجهـاد ولا أيضاً يسيء للإسلام بممارسات خاطئة بعيدة عن روحه، من خلال تجمع علماء الأمة وبيان الصواب والخطأ للمسلمين ومن خلفهم العالم كله. . . فـمن يقوم بهذه المبادرة الهامة في هذه الأيام العاصفة؟!

عرفات والخيارات المريرة:

إذا كـان هنـاك من أحـد يقـف في عنـق الزجـاجـة فـلاشـك أنه رئيـس السلطة الفلسطينية ياسـر عرفات، «فإسرائيل» في وضع مـريح وهي تقصف كل يوم مناطق السلطة الفلسطينيـة، وتمارس عمليات الاغتـيال لأبطال الانتفـاضة وفرسانهـا ورموز المقاومة. والولايات المتحدة أيضا في وضع مريح وهي تحـقق تقدماً سريعاً على الجهة الأفغانية وإن لم تحسم المـعركة حتى ساعة كتابة هذا المقال مما يجـعلها في حاجة أقل لوجود دول عربية وإسلامية معها في التحالف الدولي، وخـاصة بعـد نشر شريط ابن لادن، ولذا ليس من المستغرب أن تستخدم سلاح الفيتو لمنع إرسال قوات فصل دولية إلى فلسطين. كما أن حـركات المقاومة هي الأخـرى في وضع مريح بعد أن أدركت وضوح الطريق، والثمن الذي يـجب أن تدفعه من أجل النصر والتحـرير والشهادة، وحده عرفـات هو الذي يقف في مفترق الطرق، ويواجه ضـغوطاً من كل الاتجاهات سواء كانت أوروبية أو أمريكية، أو حتى عـربية، من أجل اتخاذ قرار سريع وحاسم

قبل أن يجد نفسه خارج حدود غزة مرة أخرى، وليت عرفات الذي يجد طعم المرارة في فمه وهو يقف هذا الموقف أن يراجع نفسه، ويواجه الحقيقة كما هي على الأرض اليوم بعيداً عن الأماني والأحلام، وليسأل نفسه بعد كل هذه السنوات العجاف في مسيرة السلام : ماذا كسبت القضية الفلسطينية؟ ماذا كسب الشعب الفلسطيني؟ ما هو الثمن المدفوع مقابل هذا الكيان المسخ المسمى السلطة الوطنية ؟ ألم يأن الأوان لإعادة تقييم الأمور بشكل جدي وصحيح؟ وأخيراً هل يعتقد أن الولايات المتحدة ستضغط على إسرائيل وتجبرها على تنفيذ ما لا تريده؟ ليت عرفات يجيب!!

المبحث التاسع عشر

نداء إلى الأحباب الكرام

قل تعالوا ..

تعالوا إلى كلمة سواء، تعالوا إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، تعالوا إلى حيث المحجة الواضحة ليلها كنهارها، تعالوا فكتاب الله يناديكم ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا**﴾[1]. تعالوا نقم في الأرض منهج الحق، ونُعلِ فيها ذكر الله، ونرفع راية القرآن الكريم، لتلتف من حوله القلوب، وتعمل به الجوارح، وتعيش في إطار هدايته البصائر والأبصار.

تعالوا نسرْ خلف رسول الله ﷺ وصحابته، فيسعنا ما وسعهم، ويجمعنا ما جمعهم، ونحن أحوج منهم إلى هذا الاجتماع الذي به حياة الأمة وقوتها، وبغيره موتها أو ضعفها، وتأخر نمائها.

تعالوا نجعل عملنا أنموذجا يحتذى، وقدوة تتخذ، لتسير على هدى منه فصائل المجتمع وشرائحه الأخرى، التي تبحث عن البديل، ولا تجد الدليل، فلنكن ـ نحن ـ بعملنا أدلاء على الطريق، دون منٍّ أو أذى، ولن نكون كذلك ونحن نتناحر، أو نتعارض، أو لا يأخذ بعضنا بيد بعض، فلا يكون لنا بنيان مرصوص أو غير مرصوص، إن اللبنات المبعثرة لا تسمى بيتًا، وإن الحيطان المتشققة، لا تحجب سترًا، وإن الجماعات المتضاربة لن تكون مؤسسة سوية، يرضى بها الآخرون.

وما لم نلمّ شعثنا، ونُزِلْ فرقتنا وتتوحد الجهود في الاتجاه الصحيح، فلن تتغير الأحوال، وسوف يبقى سيرنا على نفس المنوال، الذي تكثر فيه الأحاديث وتقل الأعمال.

فلنلتق في ضوء الحق، ولنعمل معًا على إصلاح سفينة النجاة قبل مجيء الطوفان.

أ- نداء إلى الذين تركوا الصف الإسلامي:

أيها الأحباب الكرام: لقد كنتم يومًا ما عمدًا من أعمدة الصف الإسلامي، تحملون بعض عبئه، وتبذلون جهودكم لنصرته، وبيان محاسنه على الأمة يوم تأخذ بمبادئ الإسلام، فتخفف عنها إصرها والأغلال، ويوم تخليتم عن الصف راضين أو كارهين بقي مكانكم شاغرًا ينتظر عودتكم وينتظرها كذلك إخوان لكم، يحبونكم ويودون أن تكونوا لهم عونًا وردءًا، وأن تكونوا معهم من العاملين المخلصين، وأن

---

(١) النساء: ١٧٤.

تمدوا أيديكم إلى أيديهم الممدودة، وأن تلتقي السواعد على العمل من أجل هذه الدعوة المباركة، التي لا ينهض بها إلا من اتقى وصبر: **﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾** (١). وأمر الدعوة بعد الأنبياء والمرسلين، ليس موكولاً إلى الأفراد، وإنما هو موكول إلى الجماعة يقوم به من أبنائها من يجد في نفسه غيرة على الدين، وحرصًا لإظهار نور الله على العالمين.

وأنتم ـ بحمد الله ـ قد عرفتم الطريق، وذللتم بعض صعوباته، وذقتم فيه حلاوة الإيمان، حين عملتم على السبق في حب الله ورسوله، وأحببتم إخوانكم في الصف حبًا لله وفي الله، وكرهتم أن ترجعوا عن معتقدكم كراهة من سيلقى في النار. ولذا فالعودة إلى الركب واجبة، والعمل على إصلاح خرق السفينة واجب، وعودة اللبنات إلى مكانها في الصف إعلاء للبناء وقربة إلى الله. فهيا إلى الصف من جديد. وإنا لمنتظرون.

ب ـ ونداء إلى الذين يختلفون معنا في أساليب الدعوة وحركتها:

لو سألنا أي جمعية أو حركة منتمية للإسلام عن أهم أهدافها وأغلى أمانيها، لما اختلفت الإجابة كثيرًا، لأن أهم الأهداف وأغلاها هو العمل للإسلام، ولكن سبيل الوصول إلى هذا الهدف الموحد متعرجة أحيانًا ومتداخلة أحيانًا، ومتباينة أحيانًا أخرى، ولكل جماعة سبيل وطريق تؤمن به وتسير على دربه، ولا بأس من ذلك إن لم يعق بعضنا بعضًا، وإن لم يهاجم بعضنا بعضًا بالكلام، وقد يصل الهجوم في بعض الأحيان إلى الإيذاء بالأيدي، مما يجعلنا عرضة لقول القائل:

وَفِيمَ يَكِيدُ بَعْضُكُمُو لِبَعْضٍ وَتُبْدُونَ الْعَدَاوَةَ وَالْخِصَامَا

فأين هذا من قول الله: **﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾** (٢). وأين هذا من الدعوة للمسلمين بظهر الغيب، لترد الملائكة على صاحبها «**ولك بمثل**»، وأين هذا من حب الخير للمسلمين. انطلاقًا من قول الرسول ﷺ: «**وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنًا**»(٣).

وأين هذا من قول الله: **﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾**(٤). فهل التقاطع والتدابر والمكايد داخلة في النهى أم لا؟

إن الجهود القليلة حين تلتقي تصير كثيرة مثمرة، والجهود الكثيرة حين تتبعثر يضيع

---

(١) يوسف: ٩٠. (٢) الحشر: ١٠.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٠)، والترمذي (٢٣٠٥)، وحسنه الألباني.

(٤) المائدة: ٢.

صداها، فهل تلتقي جهودنا وجهود إخواننا من العاملين في ساحة الإسلام العظيم؟

جـ. نداء إلى الذين يختلفون معنا في فهم حقيقة الحياة الدنيا:

مثّل رسول الله ﷺ حقيقة الحياة الدنيا وموقفه منها بقوله: «**إنما أنا كراكب استراح تحت شجرة ثم راح وتركها**»(١).

فالدنيا وإن امتد عمرها طويلاً بالنسبة لبعض الأفراد، فإنها تبقى في النهاية مدة زمنية يسيرة يتركها الإنسان خلفه ويرحل عنها إلى الدار الآخرة ليجني هناك ثمرة ما غرست يداه هنا من خير أو شر ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾(٢). والمسلم الذي وعى الإسلام يدرك مدى الاتصال بين الدنيا والآخرة، فيجتهد في الغرس في الأولى ليحصد في الآخرة التي هي خير وأبقى، وهو ليس حرًا في أن يفعل ما يشاء ويترك ما يشاء، بل إنه مقيد بتعاليم الله في كتابه وبسنة رسوله ﷺ، يسير في دنياه على هدى منهما لتكتب له النجاة في الآخرة، لكن فريقًا من بين المسلمين المعاصرين أغفلوا هذا الفهم لطبيعة الحياة، أو غفلوا عنه فجعلوا الدنيا أكبر همهم ومبلغ علمهم، فكل ما يزيد رصيدهم فيها من المال أو الجاه أو السلطان أو المتاع مقدم على غيره بصرف النظر عن موقعه من الدين، وقبول الدين له أو رفضه إياه.

ولهؤلاء وأمثالهم أقول: تعالوا نؤمن ساعة، نتدبر فيها قيمة الدنيا بالنسبة للآخرة ونعطي كل واحدة قدرها وما تستحق من أعمارنا، فلا نهمل الدنيا وننصرف إلى الاهتمام بالآخرة، فنخرب دنيانا ونتركها لغيرها يعمرها بجهده، ويصنعها بعلمه، ويؤثر فيها بقدرته وطاقته.

ولا نهمل الآخرة وننشغل بالدنيا ـ وحدها ـ وكأنها وحدها الدار ولا دار بعدها، وإنما نأخذ من هذه ومن تلك ونعمل لهذه ولتلك، ونوازن في حياتنا بين الأولى والآخرة؛ لأننا نؤمن أنه ليس بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار. تعالوا إلى الطريق، فمن سار على الدرب وصل.

د. نداء لأصحاب المناهج الأرضية:

من بين المسلمين أناس ارتضوا لأنفسهم أن يعيشوا حياتهم ويكيفوا أمورهم تبعًا لأصحاب المناهج الأرضية، وخاصة فيما يتصل بأمور المعاش والتعامل وحركة الحياة، ففي هذه الجوانب وغيرها يستظلون بظل المناهج الأرضية والقوانين الوضعية دون أن يمر

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠١)، والترمذي (٢٣٧٧) وقال: «حسن صحيح» وصححه الألباني.

(٢) الزلزلة: ٧، ٨.

في أذهانهم أن عليهم أن يتمسكوا في كل ذلك بالشريعة الإسلامية، ولذا فهم يجعلون من دنياهم شيئًا لله وأشياء لغير الله، وهم بذلك يفتحون بابًا للصراع بينهم وبين المسلمين الذين يردون كل شأن من شئون حياتهم لله ولرسوله، ويحاولون أن يكون منهجهم في الحياة كلها الخضوع المطلق لله ولرسوله، والعمل الملتزم بالكتاب والسنة.

ولا أحد من المنصفين ينكر أن الحق في الكتاب والسنة، وأنهما ما تركا من صغير أو كبير إلا بيناه ووضحاه وكشفا عن حكمه للناس، ومن هنا يتسع الفرق بين الذين يدينون في كل حياتهم لله، وبين الذين يدينون في معظم حياتهم لأصحاب المناهج الأرضية، مما يجعل هناك قابلية للصراع يمكن أن يحدث الآن كما حدث من قبل، فقد وقف أبو سفيان مفتخرًا يوم أحد وهو يقول: اعلُ هبل. فما كان من الرسول ﷺ إلا أن حث أصحابه على إجابته، فقالوا: ماذا نقول يا رسول الله؟ قال: «**قولوا: الله أعلى وأجلّ**»[1]. فالذين مع الله لا يقبلون آلهة أخرى معه، ولا يخضعون إلا له، ولا يأتمرون إلا بأمره، ولا ينتهون إلا بنهيه،والذين مع غير الله قد يخضعون لغير الله وقد يشركون مع الله غيره، وقد يأتمرون بأوامر غير الله مما يجعل التباعد بين الطرفين كبيرًا، وفرصة الصراع بينهما كبيرة. الصراع بالكلمة المسموعة والكلمة المقروءة، والتطاول الذي يصل أحيانًا إلى حد السباب، أفلا نوقف هذا الصراع ونغلق بابه بالرجوع إلى الله والاحتكام لكتابه وسنة رسوله ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾[2]

فتعالوا أيها الإخوة إلى هذا الفهم للكتاب والسنة، حتى تسلم حياتنا من الصراع الذي يمكن أن ينشب في أي لحظة. وكان أولى بنا أن ندعوكم إلى أن تخافوا الوقوف بين يدي الله سبحانه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاَّ من أتى الله بقلب سليم، لولا أنكم لا تقيمون للآخرة في أعمالكم ميزانًا، ولا تجعلون لها في قلوبكم مثقالاً.

ولأجل ذلك فإننا ندعوكم إلى ترك المجاهرة بالعداء للدين وترك مهاجمة المسلمين، والعمل على الوصول إلى الفهم السليم، وموازنة منافع الدنيا وهي ذاهبة بما في الآخرة من نعيم أو عذاب مقيم، ونسأل الله لنا ولكم الهداية والرشاد والمعونة والسداد.

هـ- نداء إلى الحكومة والمجلس:

الخلاف القائم الآن بين الحكومة والمجلس خلاف ليس مستحكم الإغلاق، بحيث لا ينتهي إلا بتغلب جانب على آخر. ليس الخلاف كذلك ولن يكون؛ لأن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٩).

(٢) النساء: ٦٥.

الحكومة حكومة الكويت، والمجلس أعضاؤه كويتيون نسبًا ووطنًا ومصلحة، ولن يكون مثل هذا الخلاف طريق الشقاق بين الطرفين؛ لأن الجميع يعملون لمصلحة الكويت وأهلها قبل أي شيء آخر.

وليس من مصلحة الكويت أن يشتجر الخلاف فيدفع الحكومة لاتخاذ خطوة ليست في الصالح العام، أو يدفع المجلس لإحراج الحكومة. وهب أن المجلس أحرج الحكومة في خلافها معه، أو أن الحكومة أحرجت المجلس في تصرفاتها ضده، فهل كسب أبناء الكويت شيئًا من وراء إحراج هذا الطرف أو ذاك؟

وليس معنى هذا أن نتجاوز الحق في بعض التصرفات حتى لا نحرج أحدًا، وإنما معناه أن نخضع للحق، وألا نتمادى في باطل، فإذا كان الحق مع الحكومة فأي ضرر على المجلس في قبول هذا الحق؟ وإذا كان العكس فماذا يمنع الحكومة من الأخذ بوجهة نظر المجلس إذا ما وافقت الحق والتزمت به؟ من هنا فإننا نقول لأعضاء الحكومة وأعضاء المجلس: إن الكويت الآن في حاجة ماسة إلى التكاتف والتعاون والتناصح، والأخذ بالأصوب من الآراء والأقرب لمصلحة الكويتيين من غيره، فانظروا أيها الإخوة إلى موضع الصواب واتبعوه، وإلى موضع الضلال واجتنبوه، وإلى مصلحة الكويت كلها وغلبوها على مصلحة الأفراد أو الجماعات.

أيها الإخوة الأعضاء كونوا صفًا ملتئمًا متلاحم البنيان، وكونوا يدًا واحدةً، تقوى بكم أركان الدولة وتثبت دعائمها وتتعمق تجربتها في الحرية والديمقراطية، ويشعر الناس ـ كل الناس ـ فيها بأن مصلحتهم مقدمة على كثير من الأشياء. ولن يكون شيء من ذلك والخلاف مشتعل، والتنازع مستعر والخصومة بادية، والعفو والصفح وسعة الصدر لا وجود لها عند المتنفذين وبالتالي لا وجود لها عند عامة الناس. وأنتم ـ جميعا ـ قدوة للشباب فأروهم من أنفسكم خيرًا، وأصلحوا ذات بينكم وأظهروا للشباب أن الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية.

مصلحة الدول فوق الأفراد:

في أول فبراير سنة ١٩٩٩م أشار جيمس روبن، المتحدث الرسمي باسم الخارجية الأمريكية إلى دعم الولايات المتحدة لتركيا في عملية مطاردة الزعيم الكردي والحرص على تقديمه للمحاكمة في تركيا؛ لأنه «لا يجوز أن تقدم أي دولة ملجأ لإرهابي مثل أوجلان، وأن على كل الدول التي يتجه إليها أن تساعد تركيا في تقديمه إلى محاكمها» كان هذا نص ما قاله روبن في بداية هذا الشهر.

وبهذا التصريح اعتبرت قضية أوجلان منتهية، وأن حسمها قادم محدد في وقت قريب، خاصة بعد أن تململت أوربا في قبوله وضاقت إيطاليا بإقامته، ولم تسمح له روسيا باللجوء إلى أراضيها، وضاقت على الرجل الأرض بما رحبت رغم أنصاره الذين يبلغون في أوربا وحدها ستة ملايين أو خمسة على أقل تقدير، لكنهم لا يغنون عنه أمام المصالح السياسية والصفقات المصلحية بين الدول شيئًا.

إن علاقات الدول أساسها المصالح، التي إن تعارضت مع مصلحة شخص معين أو جماعة بعينها، قضي عليها بوسيلة أو بأخرى ليظل ماء المصلحة بين الدول جاريًا لا يتوقف، وفي سبيل ذلك تتوقف كل مصلحة أخرى، ويقضى على كل ما يمنع تواصل المصالح وتتابعها، ولو ضاعت من أجل ذلك حياة زعيم من الزعماء، فما الذي يقدمه أوجلان لأمريكا حتى تناصر قضيته وتحميه؟ وما الذي يقدمه لروسيا غير اعتناقه للشيوعية التي ماتت فكرتها وذبلت زهرتها وعادت جزءًا مطمورًا في تاريخ الإنسانية؟

إن روسيا كانت تحمي أمثاله بالأمس القريب حتى في بلادهم، وتمد لهم يد العون في أوطانهم ولكنها اليوم كالأسد الجريح لا يقدر على الصيد، ولا يعيش إلا على ما يلقيه إليه الآخرون من طعام أو فتات. فكيف يحمي غيره وهو غير قادر على إطعام نفسه؟

إن حقائق الأمس تغيرت اليوم، ومن لم يكن على وعي بالمستجدات ضاع وسط ضجيج الحياة، ولم يجد له مكانًا في الزحام، ولم يقدر على أن يصل إلى مراده ومشتهاه.

وشتان بين الزعيمين الكرديين في شمال العراق اللذين تستضيفهما واشنطن، لتصلح بينهما، وتحاول أن تمنع الخلافات بينهما وتعطيهما المعونات، وبين الزعيم الكردي التركي أوجلان الذي قيل: إن المخابرات الأمريكية والإسرائيلية ساعدت في تسليمه في عملية يغلب عليها الغموض والخيال إلى تركيا.

الحقائق المستجدة والمصالح الدولية ومعرفة أصول اللعبة السياسية غابت عن أوجلان فوقع في الفخ؛ لتدخل من بعده المطالب الكردية التركية في مرحلة جديدة، ولتتبادل الدول المصالح على حساب الأشخاص والأفراد في عالم تقوده قطبية واحدة، توجه مصيره ومساره إلى حيث مصلحتها هي أولاً قبل الآخرين.

المبحث العشرون

الأمـــــن

لم يعد من المستطاع لدولة من الدول أن تغلق حدودها على نفسها، وتتقي شر أعدائها، وتنعزل عن الآخرين، وإذا كانت هذه العزلة ممكنة لدولة ما في عصور خلت، فهي مستحيلة اليوم في عالمنا الذي أصبح كقرية صغيرة لا يخفى فيها شيء أمام عيون مبصرة ومزودة بكل وسائل الرؤية العصرية، المرئية والخفيّة.

والكويت واحدة من الدول ذات الأهمية؛ إذ إنها مع بدء عام٢٠١٠م ستكون من أوائل الدول المصدرة للنفط، وما أدراك ما النفط، الذي لا يستغنى عنه الآن في كثير من وسائل الحياة المعاصرة؟ وسياسة الدول الكبرى تراعي هذه الحقيقة، ولذا فهي إن لم يكن لبعضها وجود في المنطقة فإنها غير بعيدة عن مراقبة السياسة الخليجية عموماً والكويتية خصوصاً، مما يجعل الساسة الكويتيين يتوخون الحذر، ويوازنون بدقة بين المصلحة الكويتية، والمصالح الإقليمية، والمصالح الدولية، وهذا يجعل مشكلة الأمن في الكويت هاجس كل فرد، ومستقبل كل شخص، ويجعل التفكير في المستجدات المحيطة بنا أمراً ضرورياً وحيوياً، ليظل لنا الأمن والأمان، بين جيراننا الأكثر منا عددا وقوة، والكويت محاطة بدول ليست كلها على وفاق دائم بل هي في معظم الأحوال في حالات من الخلاف،أو متحفزة لما يطرأ من خلاف،والحرب العراقية الإيرانية ليست بعيدة عن الأذهان،والخلافات في الرؤية السياسية ليست متفقة بين هذه الأركان.

وينال الكويت ما ينالها من أذى أمني جراء اختلاف جيرانها،وما الاجتياح العراقي للكويت في ٢ أغسطس١٩٩٠م غائباً عن أذهاننا، ولا آثاره بعيدة عن أبصارنا، ولا أحزانه وآلامه فارقت قلوبنا... وهذا يؤكد تأثر الأمن الداخلي والخارجي بالتحركات الإقليمية من حولنا وبالتحركات العالمية كذلك، ويفرض علينا مزيداً من الدقة في اتخاذ القرارات، وكثيراً من الحذر في إقامة العلاقات، ويستلزم من كل فرد القبول والحفاظ على بقاء الاتفاقات الأمنية وتلافي سلبياتها، لحين توفر البديل المناسب مع تعديل وسائل الحماية، التي من أهمها السعي بجدية نحو امتداد خليجي أمني في شكل فدرالية أو كونفدرالية، وخاصة مع المملكة العربية السعودية،

وتنشيط العلاقات الخليجية من أجل استقرارها ودعمها وتثبيتها، حتى تقوى وتمتد لتتكامل خلال سنوات قليلة، لتحقيق أهداف مشتركة في الداخل أو في الخارج، مع وضع تصور كامل للعلاقات مع الدول المحيطة بنا، يراعي ما يمكن أن يحدث من مستجدات خلال السنوات القادمة.

وهذا كله يؤدي إلى شحذ طاقات التحمل والبناء لدى الأفراد، ويقوي إرادة التحمل فيهم، ويجعلهم عناصر فعّالة تسعى نحو تحقيق الأمن بكل ما تملك، وتحافظ عليه بكل ما تستطيع حتى بأنفسها وأموالها وأولادها.

الخاتمـة

طوفنا من خلال الأوراق الســابقة فى قضايا الأمــة، محاولة منا لغرز الاهــتمام بهمومها فى عقول وقلوب شبيبة الأمة وعلمائها ومفكريها؛ ولإيجاد الحلول والخروج بها سريعًا من المأزق الذى تعيش فيه، والراهن الذى يسيطر عليها.

وقد جــمعنا الكثير من اللفــتات والتوجــيهات فى قضــايا متعددة، يجــمع بينها الرغبة فى توجيه الجهود وحشد الطاقات لمواجــهة التحديات المختلفة التى تتعرض لها الأمة.

وكــان الكتاب بمثــابة نقوش فى قــضايا الأمــة، ودارت مبــاحثــه حول الشــأن السودانى، ومفهوم الحرية بين الانفــلات والضوابط، والأمم بين الاقتصاد والأخلاق، والقوانين والأهواء التى تحكم العالم، وعن الدور الذى ينتظر المسلمين، ولا سيما فى ظل حتمية الصراع بين الصــهاينة والمسلمين، وعن خطورة مصطلح الشرق الأوسط، ولم يغفل الكتاب الحــديث عن دور المستشرقين فى بلاد الغرب والمســتغربين فى بلاد الشرق، وعن شروط الأمة التى تريد أن تنتصر.

وجاء القــسم الثانى مــن الكتاب فى نقــوش فى فقــه العمل الإسلامــى العام، وتناول الحديث عن الطوفان القادم على الدول النامــية، وعن نظرة إلى القرن القادم، وعن العولمة وكونها استعمارًا بشكل جديد، كما تناول الحديث عن المؤسسات الدولية والدينية، والإسلام والغرب، والوفاق العربى، وأشار إلى القوة الكامنة فى الإسلام، وعن مســؤولية الجــميع فى إقــامة المشروع الإســلامى، وتناول النظرة الحــضارية بين المحدثين والأقــدمين وأبرز الطعنات الجاهلية فى الجــسم الإسلامى، وأوضح الطريق، وكون الدين هو الســبيل الوحــيد للنهوض بالأمــة، وكيف تكون صناعــة الأحداث، والتحذير من مساجد الضرار.

والحمد لله الذى تتم بنعمته الصالحات.

ثبت بأهم المراجع

- **أحجار على رقعة الشطرنج.**
- **أرقام تصنع العالم**، أ/ محمد المراغى.
- **الإسلام والاستشراق**، د/ محمود حمدى زقزوق.
- **الأنشطة العربية والحركة الإسلامية**، د/ حامد عبد الماجد قويسى.
- **تباشير النهضة فى العالم الإسلامى**، محمد ضياء الدين الريس.
- **التبشير والاستعمار فى البلاد العربية**، مصطفى الخالدى، وعمر فروخ، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٨٦م.
- **جاهلية القرن العشرين**، محمد قطب.
- **الحضارة • الثقافة • المدنية • دراسة السيرة المصطلح ودلالته.**
- **صدام الحضارات**، هنتنجتون.
- **صحيفة الأنباء الكويتية.**
- **صحيفة الأهرام القاهرية.**
- **صحيفة الشرق الأوسط.**
- **صحيفة القبس الكويتية.**
- **صحيفة الوطن الكويتية.**
- **الطبيب فى بلاد العرب**، بول هاورسون.
- **عصر النهضة.**
- **على جناح طائر**، د/ أحمد شاكر.

• **قيم المجتمع الإسلامى من منظور تاريخى**، د/ أكرم ضياء العـمرى، كتاب الأمة، عدد (٣٩) قطر.

• **فى الحضارة العربية الإسلامية.**

• **مجلة البيان.**

• **مجلة تايم الأمريكية.**

• **مجلة حصاد الفكر.**

• **مجلة كويت الخير.**

• **مجلة المجتمع.**

• **مختصر كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين**، د/ محمد حسن بن عقيل موسى.

• **مستقبل السلام فى الشرق الأوسط**، جواد الحمد.

• **المسلمون من آسيا إلى أوربا**، أ/ فهمى هويدى وآخرين.

• **المعجم الوسيط.**

• **المقدمة**، عبد الرحمن بن خلدون، الذخائر، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة.

• **نحن والحضارة الغربية**، أبو الأعلى المودودى.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

هـذا الكتـاب

قراءة للواقع الذي تحياه الأمة والمشكلات التي تعترض طريقها ، وقد جمع الكثير من اللفتات والتوجيهات في قضايا متعددة تتعرض لها الأمة.

ودارت مباحث الكتاب في القسم الأول حول الشأن السوداني ، ومفهوم الحرية بين الانفلات والضوابط ، والأمم بين الاقتصاد والأخلاق ، والقوانين والأهواء التي تحكم العالم ، وعن الدور الذي ينتظر المسلمين ، وعن خطورة مصطلح الشرق الأوسط ، ودور المستشرقين والمتغربين وعن شروط الأمة التي تنتصر.

وجاء القسم الثاني في فقه العمل الإسلامي العام ، وتناول الحديث عن الطوفان القادم على الدول النامية ، وعن العولمة وكونها استعمارا بشكل جديد.

كما تحدث عن المؤسسات الدولية والدينية ، والإسلام والغرب ، والوفاق العربي ، وعن مسؤولية الجميع في إقامة المشروع الإسلامي ، والنظرة الحضارية بين المحدثين والأقدمين... وكيف تكون صناعة الأحداث وغيرها.

والله نسأل أن ينفع به الإسلام والمسلمين ، وأن يجعله في ميزان حسناتنا يوم الدين.

الناشر

مؤسسة السماحة للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت - المنطقة التجارية رقم ٩ بلوك ١ مكتب ١٢.
E-mail: alsamaha_laib@gmail.com